«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

زمن العهد الجديد

جيمس و. إرماتِنْغِر

4.5.2013



ترجمة: د. ثائر ديب

«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

زمن العهد الجديد

جيمس و. إرماتنْغر

ترجمة: د. ثائر ديب







الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة»

زمن العهد الجديد
جيمس و. إرماتنغر

BR165 .E7612 2011
Ermatinger, James William,1959-
[Daily life in the New Testament]
زمن العهد الجديد / جيمس و. إرماتنغر ؛ ترجمة ثائر ديب ؛ مراجعة سامر أبوهواش.-ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة كلمة، 2011.
ص 217 ؛ 15.5×23.5 سم.-(سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ)
ترجمة كتاب : Daily life in the New Testament
تدمك: 978-9948-01-859-9
1. الكنائس -- تاريخ. 2. فلسطين -- الاحوال الاجتماعية -- / 70 م. 3. اليهود -- الأحوال الاجتماعية-- / 70 م.
4. روما-- تاريخ-- 30 ق. م- 476 م. أ. ديب، ثائر. ب. أبو هواش، سامر، -1972 ج.العنوان. د.السلسلة.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
James W. Ermatinger
Daily Life in the New Testament
Translated from the English Language edition of *Daily Life in the New Testament,* by James W. Ermatinger, originally published by Greenwood Press an imprint of ABC-CLIO, LLC, Santa Barbara, CA, USA.



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



www.mdrek.com
read@mdrek.com
ص. ب: 333577 دبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 3807774 4 00971 فاكس: 3805977 4 00971

زمن العهد الجديد

المحتويات

شكر وعرفان

أودُّ أن أشكر ماريّة غمبِرت من غرينوود بْرِسّ التي اقترحت العمل وشجّعتني حين تلكأتُ، خاصةً حين باشرتُ وظيفتي الجديدة. وأودُّ أن أقرّ بفضل كريس مَكْغُوِن، عميد كلية الرياضيات والعلوم وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية المؤقّت في جامعة ولاية ميسوري الجنوبية الشرقية، وأشكره على ما قدّمه لي من عونٍ ماليٍّ مكّنني من السفر وزيارة المكتبات والمتاحف. أمّا ابنتي ميشيل وابني إيان فلم ينقطعا عن مساعدتي بطرح الأسئلة عليّ ومناقشتي في قضايا تتعلّق بالدّين والحياة. وأودُّ أن أشكر مونا هُيُوي التي تلقيتُ منها التشجيع والدعم. غير أنّني، على الرغم من المساعدة التي قدّمها هؤلاء جميعاً، أتحمّل المسؤولية كاملةً عن مادّة هذا الكتاب. وقد بذلتُ جميع المحاولات للوصول إلى أصحاب الحقوق الفعليين من المؤلّفين والناشرين، فإذا ما كنتُ قد أغفلتُ أحداً أو ارتكبتُ خطأً أرجو الاتصال بي كي أصحّح الغلط.

مَدْخل

شَهِدَ القَرْنُ الأول للميلاد ظهور ديانة جديدة، هي المسيحية، والدمار السياسي للدولة اليهودية. وقد تركت هاتان الظاهرتان السياسيتان والدينيتان أثراً هائلاً على المجتمع. وبالمقابل، فقد أثّر المجتمع على كلٍّ من الخلفية الدينية والتطور السياسي. وهذا العمل يحاول أن يتفحّص تلك الآثار وسط الخلفية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية.

والحياة اليومية التي عاشها البشر في القرن الأول في فلسطين، وآسيا الصغرى، ومناطق شرق المتوسط هي حياةُ تباينٍ بين أديان وجماعات إثنية وقوى سياسية وطبقات اجتماعية. والفارق بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي هو فارقٌ هائل. فعلى المستوى السياسي، كانت روما قد بسطت سيطرتها على المنطقة، وبات الاقتصاد أفضل بفعل طبقةٍ وسطى قوية، وكان انتشار الديانة المسيحية الجديدة –على الرغم من محدوديته– قد صبغ الحياة اليومية.

انطلقت الديانة الجديدة من اليهودية لكنها انفصلت عنها في النهاية لتتطور في اتجاهات مغايرة. ومَنْ أَسَّسَ المسيحية هم تلامذة يسوع، ذلك اليهوديّ الذي عاش حياته وفق عادات اليهود وقواعدهم. لكنَّ يسوع يبقى الشخصية الأهمّ، لأنّ حياته وتعاليمه هما اللتان وفرّتا للديانة الجديدة زخم الانطلاق.

ويسوع هذا ضربٌ من الأحجية، لأنَّ ما بقي من أعمال لا يقدّم عن حياته تلك اللوحة المكتملة. ولعلَّ نظرة الآخرين إلى يسوع أن تكون بالنسبة لنا، نحن القرّاء المحدثين لهذه الأعمال الباقية، أهمّ من سيرته التي قد نرغب في الاطلاع عليها.

وحين نفهم كيف نظرت الجماعات المختلفة إلى يسوع يمكن أن نفهم هذه الجماعات ذاتها، التي كانت تصوغ الحياة اليومية لمن احتكّوا بأتباع الديانة الجديدة. فتفحّص الجماعات المختلفة –تلاميذ يسوع، والجماعات الدينية اليهودية، والقوى السياسية اليهودية، وقادة الرومان، والنخب الاجتماعية، والطبقة الوسطى، والناس العاديين– وكيف نظرت إلى يسوع، يساعد القارئ الحديث على أن يفهم الحياة اليومية زمن العهد الجديد.

تلاميذ يسوع

يذكر العهد الجديد جماعات مختلفة من تلاميذ يسوع. فهنالك أولاً الرسل أو الحواريون الاثنا عشر. وبين هؤلاء أنفسهم ثمة مراتب مختلفة جليّة، تركت أثرها على الديانة المقبلة. فمن الواضح أنَّ سمعان بطرس، أو بطرس، إلى جانب يعقوب ويوحنا ابني زَبَدِي، كانوا أقرب ثقاة يسوع، بحسب الأناجيل على الأقل. ففي كثير من المقاطع لا ينفكّ هؤلاء الثلاثة، فرادى أو مجتمعين، يناقشون يسوعاً، ويسألونه ويسألهم. وبعد هذه الجماعة الصغيرة يأتي بقية الرسل، الذين عادةً ما يُشار إليهم باسم «التلاميذ» فحسب، وكانت تربطهم صلات معينة بيسوع والآخرين. وبعد موت يسوع أمضى تلاميذه فترةً من الوقت حاولوا فيها أن يتمّوا مهمته الأصلية المتمثّلة في حمل رسالته إلى أخوتهم من اليهود. وكان هؤلاء التلاميذ على قناعةٍ واضحة بأنَّ يسوع هو المسيح المُنْتَظَر، لكنَّ ما لم يكن واضحاً هو نوع هذا المسيح المُنْتَظَر: أهو سياسيّ أم عسكريّ أم دينيّ أم اجتماعيّ. وراح هؤلاء الاثنا عشر الأصليون، من دون يهوذا الإسخريوطي الذي حلّ محلّه متياس، يكرزون برسالة يسوع في فلسطين، متسلحين بقوة إيمانهم.

غير أنّ هؤلاء التلاميذ نظروا بصور مختلفة إلى يسوع. فعلى سبيل المثال، يُشار إلى أحد الحواريين باسم سمعان الغيور (أو سمعان الزيلوتي)، وهذه إشارة إلى جماعة سياسية، هي جماعة الغيورين (أو الزيلوت)، تؤمن بإمكانية تحقيق الانتصار العسكري على الرومان. فهل يعني هذا أنّه والآخرون كانوا يؤمنون بالصراع المسلّح؟ محالٌ أن نعلم ذلك علم اليقين، لكن بعض رسل يسوع، بمن فيهم سمعان بطرس، كانوا مسلّحين بل واستخدموا أسلحتهم. وبعد رحيل يسوع جعل بعض حوارييه لهذه الديانة بنيةً وقواماً، خاصةً يعقوب (ابن زبدي أو يعقوب الآخر الأقلّ شأناً[1]) الذي غدا قائد الجماعة البارز في أورشليم. وأقام يوحنا ابن زبدي كنائس في المنطقة الغربية من آسيا الصغرى. كما أظهر التلاميذ، أو بعضهم على الأقل، قدرةً على تنظيم أنفسهم، وشيئاً من الموهبة في خَلْق نوع من التنظيم. هكذا كان التلاميذ المقرّبون ينظرون إلى يسوع على أنّه المسيح المنتظر، وتمكّنوا بعد اضطهادات هيرودس أغريبا العنيفة في أربعينيات القرن الأول الميلادي من

(1) هو يعقوب بن حَلْفي.

(من الضروري الإشارة إلى أنَّ جميع الهوامش المُنَجَّمة هي إضافة من المترجم، أمّا الهوامش المُرَقَّمة فهي هوامش المؤلّف).

أن يوطّدوا أركان ديانة مميّزة.

علاوةً على هذه الجماعة الصغيرة المُقَرَّبَة، كان ثمّة تلاميذ آخرون يتنقّلون مثلهم مع يسوع وبقوا بعد وفاته مع هؤلاء الاثني عشر. وكانت النساء واحدةً من أهمّ هذه الجماعات. وقد ذُكِرْنَ في مناسبات عديدة. ومن بين أهمّ الأعضاء في جماعة النساء هذه والدة يسوع، مريم، ومرتا وأختها مريم، ومريم المجدلية. ولطالما نُظِرَ إلى هذه الأخيرة على أنها امرأة خاطئة، أو زانية، بيد أن هذه الصورة انتُقِدَت مؤخّراً. وباتت النظرة الأحدث إلى المجدليّة أنها كانت في حقيقة الأمر واحدة من تلاميذ يسوع البارزين وأمدَّته بالمال. وإذا ما كان قد نُظِر إليها كخاطئة فذلك لأنّ بعض رؤوس الكنيسة الأولى أرادوا التقليل من شأنها. وسواء أكانت هذه النظرة التقليدية صحيحة أم لا، فإنّ مريم المجدلية كانت تلميذة ذات شأن. ومما يُسَجَّل للنساء أنهنّ كنّ أول جماعة تذهب إلى قبر يسوع وتعلن أنه قد قام من بين الأموات. وعلاوةً على هؤلاء النساء، كان من بين التلاميذ أفراد مثل استيفانوس، الذي غدا الشهيد الأول، وبولس، الذي اسمه في الأصل شاول، وسبق له أن اضطهد أتباع الديانة الجديدة. وكان هؤلاء أيضاً ينظرون إلى يسوع على أنّه المسيح المُنْتَظَر.

الجماعات الدينية اليهودية

نظرت الجماعات الدينية اليهودية إلى يسوع بطرائق مختلفة. وتمثّلت كبرى هذه الجماعات بالفرّيسيين والصدوقيين والإسينيين. وكان الفرّيسيون أيام يسوع الجماعة الدينية الغالبة في يهودا، تعداداً وجمهوراً. وقد أقاموا المجامع وراحوا يكرزون فيها، انطلاقاً من قناعةٍ أنَّ الهيكل ليس مكان اليهودية الوحيد. ولعلّ يسوع قد تثقّف على أيدي فرّيسيين إذ كانوا الجماعة السائدة في الجليل، وكثير من أفكاره فرّيسيّ في حقيقة الأمر. وما أزعج الفرّيسيين في يسوع هو دعواه أنّه ابن الله وتسامحه مع خَرْقِ حوارييه النواميس اليهودية المتعلّقة بالمأكل والمَشْرَب. وإذا ما كانت دعوى يسوع الألوهيّة الأمر الأساسي في عداء الفرّيسيين له، ذلك العداء الذي يمكن أن نراه في هزئهم من أصله الجليليّ، فإنَّ الشكوى الأكثر ترداداً هي أنّ تلاميذه يفعلون ما لا تَحِلُّه قواعد المأكل، فيقطفون السنابل في السبت. والأنكى من ذلك أنَّ يسوع لم يوافق الفرّيسيين على إدانتهم حوارييه، بل

راح يسخر منهم قائلاً إنَّ اهتمامهم بمناصبهم ولباسهم الفاخر ومجدهم يفوق اهتمامهم بشعبهم.

كان الفرّيسيون على قناعةٍ بضرورة عدم الإخلال بتوازن القوى بين اليهود وروما. وكانوا يكرهون الرومان لكنهم يحتملونهم إلى أن يأتي المسيح المُنْتَظَر. وما كان بمقدور يسوع أن يكون هذا المسيح المُنْتَظَر بالنسبة للفرّيسيين لأنّه من الجليل. وبالمقابل، فقد كان ثمّة ضروبٌ بارزةٌ من الشبه بين يسوعَ وتلاميذه والفرّيسيين. وعلى سبيل المثال، آمن يسوع وتلاميذه بقيامة الجسد. والفرّيسيون هم من طوّر فكرة قيامة الجسد؛ فأخذها يسوع عنهم، والأهمّ من ذلك أنَّ تلاميذه قد أخذوها، لتغدو العقيدة الأساسية في المسيحية. ومع تزايد شعبية يسوع، راح الفرّيسيون ينظرون إليه كتهديد مُحْتَمَل لسيطرتهم على الشعب.

وكان الصّدوقيون منافسين للفرّيسيين، يؤمنون بأن السيادة ينبغي أن تكون لـ«الهيكل». فهذا الأخير، بوصفه مكان العبادة الأساسي، هو رمز اليهودية. وبخلاف الفرّيسيين لم يكن الصدوقيون يؤمنون بقيامة الجسد. وكان كلّ من وجود الصدوقيين في الهيكل وسلطة رئيس الكهنة متوقّفين على الرومان، الذين سيطروا على أورشليم وصار بمقدورهم أن يعيّنوا رئيس الكهنة. وعلاوةً على ذلك، كان الصدوقيون الأشدّ مُحافَظَةً بين الجماعات الدينية الكبرى. ومع أنَّ تعدادهم كان أقلّ من تعداد الفرّيسيين، إلا أنّهم أمسكوا بقَدْرٍ من السلطة أكبر.

ولطالما حاجج يسوع الصدوقيين. ومثل الفرّيسيين، انتقد الصدوقيون يسوع لملازمته خطاةً وزواني؛ وبخلاف الفرّيسيين، فإنَّ عدم إيمانهم بقيامة الجسد دفعهم أيضاً إلى انتقاد آراء يسوع في هذا الأمر. كما سخروا من يسوع حين قال إنّه يقدر أن ينقض الهيكل ويبنيه في ثلاثة أيام (مرقس 13: 1–2)[1]. ومع أنَّ المقطع الذي يظهر فيه هذا الحجاج قد يكون إضافةً إلى العهد الجديد، إلا أنّه يبيّن الآراء المتعارضة لكلٍّ من الصدوقيين وتلاميذ يسوع. لقد نظر الصدوقيون إلى يسوع بقلق، بسبب دفاعه عن نظام ديني مختلف، نظام

(1) –«1 وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْهَيْكَلِ، قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: «يَامُعَلِّمُ، انْظُرْ! مَا هذِهِ الْحِجَارَةُ! وَهذِهِ الأَبْنِيَةُ!» 2 فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَنْظُرُ هذِهِ الأَبْنِيَةَ الْعَظِيمَةَ؟ لاَ يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ». ولعلّ الشاهد الأنسب هو متّى 26: 61– 63: «61 هذَا قَالَ: إِنِّي أَقْدِرُ أَنْ أَنْقُضَ هَيْكَلَ اللهِ، وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِيهِ. 62 فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هذَانِ عَلَيْكَ؟» 63 وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتاً».

يقف ضد سلطة الهيكل.

وثمّة جماعة ثالثة، هي الإسينيين، لعلّها لم تكن على احتكاكٍ كبيرٍ بيسوع. وكان هؤلاء بوجه عام انعزاليين نأوا بأنفسهم عن المجتمع، وكانوا ينظرون إلى رؤوس الديانة اليهودية، أي إلى الصدوقيين، على أنهم خونة. ويروي يوسِفوس (المؤرّخ اليهودي الباكر) عن حضورهم في مدن كثيرة في أرجاء فلسطين لكنهم كانوا انعزاليين في الأساس. وتشير الأدلة إلى أنهم كانوا يقيمون في قمران قرب البحر الميت. وتعزّز الأدلة الأثرية والأدبية الرأي الذي مفاده أنهم كانوا انعزاليين ومبغضين للنساء. وكان الإسينيون يمارسون طقوساً في التطهّر خاصّةً، تبعاً لتعاليم كرز بها يوحنا المعمدان وحوّلها يسوع بعد ذلك إلى تطهّر روحي. وعلى الرغم من صعوبة أن نعلم كيف نظر الإسينيون إلى يسوع أو كيف كان يمكن أن ينظروا إليه، فإنَّ المرجّح أنهم نظروا إليه بنوعٍ من الشكِّ والريبة.

القوى السياسية اليهودية

اشتملت اليهودية على جماعات عديدة لها برامجها السياسية المختلفة. وكان بعضها يؤمن بضرورة العنف للإطاحة بقوة الاحتلال الروماني. ومن بين هذه الجماعات الأخيرة فرقة الغيورين (الزيلوت). ومع تمتّع هؤلاء ببعض النفوذ الديني، إلا أنهم كانوا يؤمنون باستعادة الدولة اليهودية المستقلة. والنظرة التقليدية إلى الغيورين أنهم لم يشكّلوا جماعة بالمعنى الفعلي إلا بعد ولادة يسوع. لكن هذه النظرة قد لا تكون مقنعة تماماً. ذلك أنَّ بعض الباحثين يرون أنَّ الغيورين ربما نشأوا قبل ذلك في عهد هيرودس الأكبر. وهذه نظرةٌ يدعمها يوسِفوس، الذي نظر إلى الغيورين كقوة قومية—دينية نشأت قبل التمرد زمن الاحتلال الروماني في السنة 6 للميلاد. ولم يكن الغيورون ينظرون إلى هيرودس وخلفائه كحكّام يهود شرعيين؛ وغالباً ما أَفْضَت وجهة نظرهم إلى هجمات على العساكر والموظفين الرومان واليهود. وقد تعزّزت قوميتهم بتعلّقهم الشديد بأهداب الدين. وإلى جانب الغيورين كان ثمة السيخاري أو حملة الخناجر. وكان هؤلاء يعملون خفيةً، فيضربون سرّاً ويهاجمون أعداءهم. وكانت تقودهم سلالة يهوذا الجليلي، الذي أَشْعَل تمرداً على روما حين وصل كيرينيوس، والي سوريا، إلى يهودا في السنة السادسة للميلاد لكي يجري الاكتتاب [أو التعداد] المطلوب في المقاطعة الرومانية الجديدة.

ومن وجهة نظر واقعية، لم يستطع الغيورون أن يُفْلِحوا بالإرهاب وحده. وبخلاف الدول الحديثة، ما كان على روما أن تخشى الصحف العامة أو التلفاز أو الإنترنت. وغالباً ما تمثّلت سياسة روما باستخدام القوة المفرطة ضد المدنيين لتحويلهم ضد المتمردين من بينهم. وعلاوةً على ذلك، كان برنامج «الغيورين» السياسي بعيداً عن الواقعية لأنه يطالب روما بالتخلي عن فلسطين. ويقال إنَّ واحداً من تلاميذ يسوع كان من الغيورين، مع أنَّ هذا ليس أكيداً لأنّ الكلمة اليونانية التي تعني «الغيور» يمكن ترجمتها أيضاً بـ«المتحمّس». غير أنّه إذا ما كان سمعان الغيور عضواً في هذه الجماعة السياسية، فقد يكون أيضاً أنَّ اسم يهوذا الإسخريوطي لا يشير إلى منطقة معينة ينتمي إليها هذا الأخير، بل إلى أنه واحدٌ من السيخاري[1]. ومن الصعب أن نعلم إنْ كانت هذه الأفكار صحيحة، غير أن القوميين كان يمكن أن يروا إلى يسوع كحليف محتمل. وحين طهّر يسوع الهيكل من التجار والصيارفة، ربما يكون بعض الغيورين قد شعروا بأنّه يحاول أن يثير تمرداً. وحين لم يواصل باتجاه ما يأملونه من صراع مسلَّح، فقد القوميون الثقة به كمسيح عسكري مُنْتَظَر.

وكانت ثمة فرقة أخرى تُدْعى الهيرودسيين، يعتقدون بجدوى التماسِ نوعٍ من الدولة شبه المستقلة تحكمها أسرة هيرودس. وأرادت هذه الفرقة التوصّل إلى نوعٍ من التسوية مع روما. ومثالٌ على هذا ما أَمِلَه هيرودس أغريبا وفرقته من استعادة مملكة هيرودس الأكبر. وغالباً ما كان اليهود المحليون ينظرون إلى هؤلاء الهيرودسيين، الذين بدأوا في الأصل مع هيرودس الأكبر، كمتعاونين مع الرومان، لأنهم سمحوا لهذا الشخص غير اليهودي أو شبه اليهودي بأن يجلس على العرش. أمّا الهيرودسيون فكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم فرقة تبتغي تعزيز نوع من الاستقلال اليهودي. وكانت يهودا قد وصلت في ظلّ هيرودس الأكبر إلى ذروة لم تصلها منذ أيام المكابيين. أما بعد وفاته فقد انقسمت الدولة اليهودية إلى مناطق صغيرة متعددة يحكمها أبناؤه. وسرعان ما احتلّ الرومان منطقة يهودا بطلب من زعماء اليهود.

حاول الهيرودسيون في الجليل، الذي كان يسيطر عليه هيرودس أنتيباس، أن يحفظوا السلم، الأمر الذي أتاح لهم قدراً من الاستقلال. فما دام الجليليون لا يطالبون بقَدْرٍ كبير من الاستقلال ولا يثيرون القلاقل، كان بمقدورهم أن ينعموا بقسط من الحرية بعيداً

(1) Harry Fosdick, The Man from the Nazareth (New York: Harper and Brothers, 1949), 194.

عن تدخّل الرومان. وفي أربعينيات القرن الأول الميلادي، أعيد توحيد المنطقة برمّتها تحت حكم هيرودس أغريبا، الذي نال حظوة لدى الإمبراطورين كاليغولا وكلاوديوس. ويبدو أنه لم يقتصر على محاولة السيطرة على المنطقة بأكملها، بل تعدّى ذلك إلى تعزيز مملكته ودفعها لأن تكون قوة في الشرق. وحين مات على نحوٍ مفاجئ تحطّمت مملكته وفرضتْ روما سيطرتها من جديد. ولقد انتهى أمر الهيرودسيين أثناء الحرب اليهودية الكبرى. أمّا نظرتهم إلى يسوع فلم تكن نظرة ثقة. فهو قريب يوحنا المعمدان، الذي انتقد زواج هيرودس أنتيباس من امرأة أخيه، ولذلك فقد نظروا إليه بشكٍّ ولم يثقوا به. وتروي الأناجيل كيف حاول الهيرودسيون أن يصطادوا يسوع بكلمة وكانوا في تشاورٍ مع الفرّيسيين (متّى 22: 15–16؛ مرقس 3: 6)[1].

ويمكن أن نعتبر الصدّوقيين أيضاً فرقةً سياسية. ففلسفتهم السياسية كانت تقوم على الإمساك برئاسة الكهنة. ويروي يوسِفوس أنه على الرغم من قلّة عددهم، إلا أنَّ سلطتهم كانت تقوم على وصولهم إلى النخب وأصحاب النفوذ. وفي سبيل ذلك كانوا على استعداد لأن يتحالفوا مع الرومان. لكن قاعدتهم السياسية الأساسية كانت مقتصرة على أورشليم، لوجود الهيكل فيها وسيطرة الفرّيسيين في المناطق القصيّة عن المركز. ولكي يعزّزوا موقع رئيس الكهنة، مارس الصدوقيون نفوذاً واسعاً لدى السنهدرين. وهذه الهيئة الأخيرة لم تكن مجرّد محكمة دينية أدانت يسوع؛ بل كانت مجلساً عاماً يُشرِف على الدولة اليهودية، ويعمل كجزء من قوة الاحتلال الروماني وإلى جانبها في آنٍ معاً. وفي النهاية دعم الصدوقيون الغيورين في محاولتهم الإطاحة بالاحتلال الروماني، مما أدّى إلى الحرب اليهودية الكبرى. وبالنسبة للصدوقيين والسنهدرين، كان يسوع ذلك المُغَفَّل الذي ربما يكون مصدر خطر إذ يمكن أن يشجّع الجماهير على التمرّد ويؤلّب الرومان على الدولة، كما جرى في فترة كيرينيوس في العام السادس للميلاد. وبغية الحيلولة دون هذا الأمر جلب الزعماء اليهود يسوع أمام السنهدرين ثمّ أمام الرومان، واتّهموه بالخيانة.

قادة الرومان

حين سيطرت روما على يهودا في العام السادس للميلاد وقعت على عشّ زنابير

(1) –«15حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. 16فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ» (متى).
«6 فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ لِلْوَقْتِ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ وَتَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ» (مرقس).

سياسيّ. ولأنّ الرومان لم يفهموا الديانة اليهودية وميلها إلى ردود الفعل العسكرية، فقد حاولوا أن يحكموا كما فعلوا في المقاطعات الأخرى. لكن ذلك لم يُفِدْ، بالطبع، وجعل علاقة روما مع يهودا علاقة نزاع خلال القرن الأول الميلادي. وعادةً ما تعاملت روما مع اليهود بتلك الطريقة القاسية، التي كانت استراتيجية رومانية شائعة. ومع خراب أورشليم ثم كسر التمرد في عهد هادريان، أفلح الرومان في محق قوة اليهود السياسية. ونظراً لغطرسة الرومان، لم يكن ثمّة مجال للحلول الوسط. ومن الصعب أن نعلم كيف نظر الرومان إلى يسوع. فالأناجيل تصوّر بيلاطس البنطي، الوالي الذي أمر بصلب يسوع، بصورة المتعاطف، الذي يغسل يديه من الأمر كلّه بعد محاولته إطلاق سراحه (متّى 27: 24)[1]. ولعلّ هذه مبالغة. ولعلّ الصحيح فيها أنَّ بيلاطس لم يكترث أصلاً، ولم يَرَ في يسوع أكثر من متمرّد آخر مُحْتَمَل، فإذا ما كان اليهود يريدون أن يصلبوا واحداً من متمرديهم فليكن. ولعلّ قصة إطلاق بيلاطس سراح السجين باراباس، المجرم الخطير، بدلاً من يسوع، أن تكون غير صحيحة أيضاً. ذلك أنَّ الرومان كان يمكن أن يروا في يسوع تهديداً محتملاً نظراً لدفاعه عن ملكوت جديد، كما كان يمكن أن يروا فيه مجرّد شخص مهوّش مثير للمتاعب.

النخب الاجتماعية

غالباً ما كان لأصحاب الثروة والسلطة الهائلتين وجهة نظر مغايرة لوجهة نظر الآخرين. وبخلاف الفقراء، الذين كانوا يرغبون في تغييرِ الحكم أو الأحوال، كان الأثرياء وأصحاب السلطة يرغبون في الحفاظ على منزلتهم، لأنَّ أي تغيير يمكن أن يكون منطوياً على خطر. وكان يسوع يمقت الأثرياء ذلك المقت الواضح. وهو في الأناجيل لا ينفكّ يوبّخهم. والأقوال المدوّنة في العهد الجديد، مثل «مُرورُ جَمَلٍ من ثَقْب إبرة أَيْسَرُ من أن يدخُل غنيٌّ إلى ملكوت الله»، أو «ماذا ينفع الانسان لو ربح العالَم كله وخسر نفسه»، إنما تشير إلى أن يسوع كانت له مشكلات مع الأثرياء (مرقس 10: 23—30؛ لوقا 21:1—4)[2].

(1) «24 فَلَمَّا رَأَى بِيلاَطُسُ أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ شَيْئًا، بَلْ بِالْحَرِيِّ يَحْدُثُ شَغَبٌ، أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلاً: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَم هذَا الْبَارِّ! أَبْصِرُوا أَنْتُمْ!».

(2) «23فَنَظَرَ يَسُوعُ حَوْلَهُ وَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ!» 24فَتَحَيَّرَ التَّلاَمِيذُ مِنْ كَلاَمِهِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ أَيْضًا وَقَالَ لَهُمْ: «يَا بَنِيَّ، مَا أَعْسَرَ دُخُولَ الْمُتَّكِلِينَ عَلَى الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ! 25مُرُورُ

ويبدو أنّ أيّاً من حوارييه المقرّبين لم يكن من النخبة الاجتماعية. ومع هذه النظرة السلبية من السهل أن نرى لماذا لم يناصر الأثرياء الذين كانوا يشكّلون النخبة الاجتماعية يسوع. ثمَّ إنَّ الصلة الوثيقة بين هذه النخب والصدوقيين ما كانت لتتيح لهم أن يثقوا به.

الطبقة الوسطى

تطرح الطبقة الوسطى بعض القضايا المختلفة. ففي حين كان يسوع يعادي الأثرياء، أو لا يثق بهم على الأقل، نجد أنه كان يرغب تلك الرغبة الواضحة في أن يقبل أناساً من الطبقة الوسطى في حلقته. وقد ورد في مقاطع عديدة أنَّ يسوع كان في بيت تاجر أو يتحادث مع تاجر علانيةً. وكان واحداً من تلاميذه يوسف الأريماثي، الذي وضعَ يسوع حين مات في قبره، مما يشير إلى ثرائه (متّى 27: 57—60؛ لوقا 23: 50—54؛ يوحنا 19: 38—42)[1]. والعادة في الطبقة الوسطى أنها ترغب في أن تعزز وضعها في المجتمع.

جَمَل مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ» 26فَبُهِتُوا إِلَى الْغَايَةِ قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: «فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟» 27فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ: «عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلكِنْ لَيْسَ عِنْدَ اللهِ، لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللهِ».

28 وَابْتَدَأَ بُطْرُسُ يَقُولُ لَهُ: «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ». 29فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا أَوْ حُقُولاً، لأَجْلِي وَلأَجْلِ الإِنْجِيلِ، 30إِلاَّ وَيَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ الآنَ فِي هذَا الزَّمَانِ، بُيُوتًا وَإِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ وَأُمَّهَاتٍ وَأَوْلاَدًا وَحُقُولاً، مَعَ اضْطِهَادَاتٍ، وَفِي الدَّهْرِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ» (مرقس).

— «1وَتَطَلَّعَ فَرَأَى الأَغْنِيَاءَ يُلْقُونَ قَرَابِينَهُمْ فِي الْخِزَانَةِ، 2وَرَأَى أَيْضًا أَرْمَلَةً مِسْكِينَةً أَلْقَتْ هُنَاكَ فَلْسَيْنِ. 3فَقَالَ: «بِالْحَقِّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هذِهِ الأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنَ الْجَمِيعِ، 4لأَنَّ هؤُلاَءِ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا فِي قَرَابِينِ اللهِ، وَأَمَّا هذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا، أَلْقَتْ كُلَّ الْمَعِيشَةِ الَّتِي لَهَا» (لوقا).

(1) «57وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، جَاءَ رَجُلٌ غَنِيٌّ مِنَ الرَّامَةِ اسْمُهُ يُوسُفُ، وَكَانَ هُوَ أَيْضًا تِلْمِيذًا لِيَسُوعَ. 58فَهذَا تَقَدَّمَ إِلَى بِيلاَطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ. فَأَمَرَ بِيلاَطُسُ حِينَئِذٍ أَنْ يُعْطَى الْجَسَدُ. 59فَأَخَذَ يُوسُفُ الْجَسَدَ وَلَفَّهُ بِكَتَّانٍ نَقِيٍّ، 60وَوَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي كَانَ قَدْ نَحَتَهُ فِي الصَّخْرَةِ، ثُمَّ دَحْرَجَ حَجَرًا كَبِيرًا عَلَى بَابِ الْقَبْرِ وَمَضَى» (متى).

« 50وَإِذَا رَجُلٌ اسْمُهُ يُوسُفُ، وَكَانَ مُشِيرًا وَرَجُلاً صَالِحًا بَارًّا. 51هذَا لَمْ يَكُنْ مُوافِقًا لِرَأْيِهِمْ وَعَمَلِهِمْ، وَهُوَ مِنَ الرَّامَةِ مَدِينَةٍ لِلْيَهُودِ. وَكَانَ هُوَ أَيْضًا يَنْتَظِرُ مَلَكُوتَ اللهِ. 52هذَا تَقَدَّمَ إِلَى بِيلاَطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ، 53وَأَنْزَلَهُ، وَلَفَّهُ بِكَتَّانٍ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرٍ مَنْحُوتٍ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ وُضِعَ قَطُّ. 54وَكَانَ يَوْمُ الاسْتِعْدَادِ وَالسَّبْتُ يَلُوحُ» (لوقا).

«38ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ، وَهُوَ تِلْمِيذُ يَسُوعَ، وَلكِنْ خُفْيَةً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ، سَأَلَ بِيلاَطُسَ أَنْ يَأْخُذَ جَسَدَ يَسُوعَ، فَأَذِنَ بِيلاَطُسُ. فَجَاءَ وَأَخَذَ جَسَدَ يَسُوعَ. 39وَجَاءَ أَيْضًا نِيقُودِيمُوسُ، الَّذِي أَتَى أَوَّلاً إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً، وَهُوَ حَامِلٌ مَزِيجَ مُرّ وَعُودٍ نَحْوَ مِئَةِ مَنًا. 40فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ، وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الأَطْيَابِ، كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفِّنُوا. 41وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ بُسْتَانٌ، وَفِي الْبُسْتَانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ. 42فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْقَبْرَ كَانَ قَرِيباً» (يوحنا).

ولا شكّ أنّ بعضهم أراد تعزيز وضعه عن طريق التجارة أو الزواج، بغية دخول طبقةٍ اجتماعية أرفع. ولكي يحققوا ذلك غالباً ما كانوا يقومون بأعمال خيرية يقدمونها لمدينتهم أو مواطنيهم، كأن يقدموا الحنطة أو النبيذ، أو يقيموا الألعاب أو السباقات أو الحفلات. ومع أنّنا نجهل عدد الذين تبعوا يسوع من هذه الطبقة، فلا بدّ أن يكون بعض أفرادها قد خشوا من أن يقلب التوازن القائم ويضرّ بفرص صعودهم إلى أعلى.

الشعب العادي

لم يكن الفقراء أو الشعب العادي مجموعة واحدة؛ الأحرى أنّهم كانوا خليطاً من أقسام مختلفة من المجتمع. بعضهم لم يكن يكترث بالسياسة، في حين كان يُسَرّ آخرون باتّباع من يعدهم بالمزيد. وكان ثمة وجهات نظر متنافسة يعبّر عنها أفراد يحاولون أن يحظوا بالنُّصْرَة. وهذا يظهر في الأناجيل حين يتصادم تلاميذ يوحنا المعمدان مع جماعة يسوع، مع أنَّ الرسالتين متماثلتان. ومن الواضح أنَّ الفقراء كانوا محطّ اهتمام يسوع. وعلى سبيل المثال، فإنَّ يسوع في الطوبى يقرّظ الفقراء؛ وهو بهجومه على الأغنياء إنما يدعم الفقراء ضمناً (لوقا6: 20)[1] وكان لا يزال بمقدور الرجل العادي أن يتحوّل إلى الرّعاع. وفي الأناجيل أنَّ يسوع كان يُمْدَح الأحد ويُحمَل عليه الجمعة. لكن سبب هذا التحول مرتبط بلا شك بحقيقة أنَّ الشعب العادي كان ينتظر صوراً مغايرة للمسيح. فقد أراد بعضهم قائداً عسكرياً وسياسياً. وحين أوضح يسوع أنه ليس عازماً على أن يكون هذا القائد العسكري أو السياسي، انفضّ عنه هذا القسم من الجمهور. وحين لم يقدّم يسوع للفقراء ثروات مباشرة انفضوا عنه بدورهم. ولعلَّ أولئك الذين ظلّوا على تأييدهم له كانت لديهم أهداف بديلة. وعلى سبيل المثال، فإنّ بعض البدائل كانت تتمثّل في جلاء روما في نهاية المطاف، أو في ضمان الزعماء اليهود أن يجري تعهّد الفقراء بالرعاية. وهذه الآراء المتنافسة كانت تؤثّر على الجمهور، ولعلّ بعض الذين كانوا يؤيدون يسوع قد غادروه لهذا السبب.

(1) «20وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ:«طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ، لأَنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ».

الأطفال

لا ينفكّ يسوع يُفْرِط في إطراء الأطفال ومحاباتهم على مدار الأناجيل (مرقس 10: 13–16؛ لوقا 9: 46–48)[1]. وفي بعض المقاطع يذكّر يسوع حوارييه بأنهم ينبغي أن يكونوا كالأطفال، أبرياء ومنفتحين لتلقي رسالته. وحين اقترب منه أولاد وحاول حواريوه أن يمنعوهم، وبَّخهم يسوع وترك الأولاد يأتون إليه. ولا بدّ أنّ شعبيته لدى الأطفال كانت واسعة وتنمّ بوضوح على صلته بهم. ومن الواضح في الأناجيل أنهم كانوا يعجبون به ويحبّونه. ومع أنّه لم تكن لديهم سلطة مباشرة، إلا أنهم كانوا مستقبل اليهودية ومن بعدها المسيحية. ومن السهل أن نتصوّر أنَّ بعض هؤلاء الأطفال قد بقوا مخلصين لرسالته وغدوا مسيحيين في المرحلة الأولى الحاسمة من أربعينيات القرن الأول للميلاد إلى سبعينياته حين ميّزت المسيحية نفسها من اليهودية.

غير اليهود في فلسطين

اشتملت منطقة فلسطين على جماعات إثنية ودينية أخرى، غير يهودية. وكان السامريون إحدى هذه الجماعات. فعلى الرغم من اعتبار الرومان السامريين يهوداً، إلا أنّ هؤلاء الأخيرين كانوا قد انفصلوا عن اليهودية وراحوا يقدّمون أنفسهم على أنّهم ورثة موسى. وكان العداء بين السامريين واليهود مستحكماً، ولم يكن لدى أيّ طرف منهما رغبةً في أن يُقْرَن بالآخر. غير أنَّ هذا العداء لا يبدو أنّه قد عرّض يسوع لأيّة عنصرية. وفي أحد المقاطع يطلب يسوع شربة ماء من امرأةٍ سامرية ويجاذبها أطراف الحديث. ثم تمضي إلى مدينتها وتخبر الجميع عن يسوع وقدراته؛ فيأتون بدورهم ويصغون إليه ويؤمنون به (يوحنا 4: 4–30)[2]. ومع أنَّ هذه ليست سوى قصة واحدة، ولعلها أمثولة مجازية، إلا أنّ

---

(1) –«13وَقَدَّمُوا إِلَيْهِ أَوْلاَدًا لِكَيْ يَلْمِسَهُمْ. وَأَمَّا التَّلاَمِيذُ فَانْتَهَرُوا الَّذِينَ قَدَّمُوهُمْ. 14فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ ذلِكَ اغْتَاظَ وَقَالَ لَهُمْ: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ، لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللهِ. 15اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لاَ يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ». 16فَاحْتَضَنَهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ» (مرقس).
«46 وَدَاخَلَهُمْ فِكْرٌ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ فِيهِمْ؟ 47فَعَلِمَ يَسُوعُ فِكْرَ قَلْبِهِمْ، وَأَخَذَ وَلَدًا وَأَقَامَهُ عِنْدَهُ، 48وَقَالَ لَهُمْ:«مَنْ قَبِلَ هذَا الْوَلَدَ بِاسْمِي يَقْبَلُنِي، وَمَنْ قَبِلَنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي، لأَنَّ الأَصْغَرَ فِيكُمْ جَمِيعًا هُوَ يَكُونُ عَظِيمًا» (لوقا).

(2) –«4 وَكَانَ لاَ بُدَّ لَهُ أَنْ يَجْتَازَ السَّامِرَةَ. 5 فَأَتَى إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ يُقَالُ لَهَا سُوخَارُ، بِقُرْبِ الضَّيْعَةِ الَّتِي وَهَبَهَا يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ ابْنِهِ. 6 وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ، جَلَسَ هكَذَا عَلَى الْبِئْرِ، وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. 7 فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ السَّامِرَةِ لِتَسْتَقِيَ مَاءً، فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَعْطِينِي لأَشْرَبَ» 8 لأَنَّ

مصادرنا، التي نسلّم أنَّ عددها قليل، لا تُظْهِر كثيراً من العداء.

وكان هناك آخرون من غير اليهود على طول ساحل المتوسط، في أماكن مثل صور وصيدا. وهاتان المدينتان الفينيقيتان القديمتان كانتا مشهورتين بتجارتهما. وقد زارهما يسوع مرّة على الأقل وكرز فيهما. وتراوحت نظرتهما إلى يسوع بين الالتباس والإيجاب، فلا يبدو أنّه كان هناك أي عداء كبير بين يسوع وحوارييه ومواطني هاتين المدينتين.

خارج فلسطين

لعلّ المقيمين خارج فلسطين أيام يسوع لم يسمعوا به. غير أنَّ يسوع، أو رسالته على الأقل، باتت متاحةً لهؤلاء، بفضل نشاط بولس التبشيري اللاحق. وحين كان بولس والمبشِّرون الأوائل الآخرون يصلون إلى المدن كانوا يذهبون أولاً إلى بيوت يهود، ويعلّمون في المجامع، ويحاولون أن يهدوا هؤلاء. فإذا ما استُقْبِلوا كانوا يحاولون بعد ذلك استمالة غير اليهود، أو الأمم، أو غير المختونين، كما كان اليهود يدعونهم. وغالباً ما كان اليهود المحليون يُظهرون العداء للمبشِّرين الذين كانوا يكرزون بين الأمم. وهذا ما أدّى إلى تقدم

تَلاَمِيذَهُ كَانُوا قَدْ مَضَوْا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبْتَاعُوا طَعَامًا. 9 فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ السَّامِرِيَّةُ: «كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ، وَأَنْتَ
يَهُودِيٌّ وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟» لأَنَّ الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ. 10 أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ
اللهِ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لأَشْرَبَ، لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيًّا». 11 قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ، لاَ
دَلْوَ لَكَ وَالْبِئْرُ عَمِيقَةٌ. فَمِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَاءُ الْحَيُّ؟ 12 أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا يَعْقُوبَ، الَّذِي أَعْطَانَا الْبِئْرَ، وَشَرِبَ مِنْهَا
هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ؟» 13 أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضًا. 14 وَلكِنْ مَنْ يَشْرَبُ
مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ، بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ». 15قَالَتْ
لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هذَا الْمَاءَ، لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ وَلاَ آتِيَ إِلَى هُنَا لأَسْتَقِيَ». 16 قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «اذْهَبِي وَادْعِي
زَوْجَكِ وَتَعَالَيْ إِلَى ههُنَا» 17 أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالتْ: «لَيْسَ لِي زَوْجٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «حَسَنًا قُلْتِ: لَيْسَ لِي زَوْجٌ،
18لأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ، وَالَّذِي لَكِ الآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكِ. هذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ». 19قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا
سَيِّدُ، أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ! 20 آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هذَا الْجَبَلِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ
فِيهِ». 21 قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ، وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ.
22 أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ. لأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. 23 وَلكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ،
وَهِيَ الآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ
لَهُ. 24 اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا». 25 قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيَّا،
الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَسِيحُ، يَأْتِي. فَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُخْبِرُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ». 26قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا الَّذِي أُكَلِّمُكِ هُوَ».
27 وَعِنْدَ ذلِكَ جَاءَ تَلاَمِيذُهُ، وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ. وَلكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: «مَاذَا تَطْلُبُ؟» أَوْ «لِمَاذَا
تَتَكَلَّمُ مَعَهَا؟» 28 فَتَرَكَتِ الْمَرْأَةُ جَرَّتَهَا وَمَضَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَتْ لِلنَّاسِ: 29 «هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَانًا قَالَ لِي كُلَّ مَا
فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟». 30فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا إِلَيْهِ».

المسيحية. ولم تمض فترة طويلة حتى فاق عدد المسيحيين من غير اليهود عدد المسيحيين اليهود، وبات ثمّة تفاوت كبير بين السكّان. ولم يُفْضِ هذا التفاوت إلى بعض العنف بين هاتين الجماعتين وحسب بل إلى انفصام نهائي بين اليهودية والمسيحية. وعندئذٍ غالباً ما جرى نقل أيام العطل والأعياد اليهودية المعتادة إلى أيام أخرى أو إحلالها محلّها. وعلى سبيل المثال، فقد نُقِلَ يوم العبادة اليهودي التقليدي، يوم السبت، إلى الأحد. أمّا نظرة الأمم إلى يسوع، فمن الواضح أنَّ الذين آمنوا بيسوع من بينهم كانوا يرون فيه المسيح المُنتظر أو المخلِّص؛ أمّا الأمم من غير المسيحيين فلعلّهم لم يبالوا كثيراً في ذلك الوقت، غير أنه لم يمضِ نصف قرن حتى نشب النزاع العنيف بين الطرفين؛ وبالمقابل، فإنَّ انعدامٌ الثقة والعداء كانا غالبين لدى اليهود الذين لم يتبعوا يسوع.

من هو يسوع؟

لقد وُجِدَ يسوع في التاريخ. فلم يُذْكَر في العهد الجديد وحسب، بل في مصادر يهودية مثل أعمال يوسفوس والتلمود، كما في مصادر غير يهودية. غير أنَّ الإجابات عن أسئلةٍ تتعلق بمولده ونسبه ومسقط رأسه وطفولته الأولى وحياته العائلية هي محلّ خلاف جميعاً. ففي العهد الجديد ثمّة قصتان عن مولده، حيث يسجّل متّى في إنجيله أنَّ يسوع وُلِد في عهد هيرودس (متى 2: 1–12)[1]. ولأنَّ متّى يذكر لاحقاً ابن هيرودس، أركيلاوس، كملك، فإنَّ الافتراض هو أنَّ هيرودس المذكور هو هيرودس الأكبر. وكان هيرودس تاريخياً قد توفي في العام الرابع للميلاد، مما يشير إلى أنَّ يسوع لا بدَّ أن يكون

(1) –«1 وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ 2 قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». 3 فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ. 4 فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: «أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟» 5فَقَالُوا لَهُ: «فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ. لأَنَّهُ هكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ: 6 وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ، أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا، لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ».
7 حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ. 8ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ، وَقَالَ: «اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ. وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ». 9فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. 10 فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. 11 وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا. 12ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَنْ لاَ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِي طَرِيقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ».

قد وُلِد قبل هذا الوقت، وإن يكن مكان ولادته غير محَدَّد تماماً. أمّا لوقا فيذكر أنَّ يسوع قد وُلِدَ في عهد الإمبراطور أغسطس، حين كان كيرينيوس والياً على سوريا، وهو عهد يبدأ بالسنة السادسة للميلاد (لوقا 2: 1—7)(1). وهذا ما يخلق صعوبةً: فإذا ما صدَّق المرء متّى فإنَّ يسوع يكون قد ولد حوالي العام السادس قبل الميلاد، وإذا ما صدّق لوقا فإنه يكون قد ولد بعد العام السادس للميلاد، بفارقٍ يبلغ 10—12 عاماً. غير أنّه من المعروف أنَّ كيرينيوس كان في السابق والياً عسكرياً على بمفيلية غلاطية في العام السادس قبل الميلاد قبل أن يغدو والياً على سوريا في العام ذاته، ولعلّ لوقا كان يقصد الولاية الأولى حين أعلن أنّه كان والياً على سوريا. ومن اليسير تفهّم مثل هذا الخطأ لأنّه من المعروف أنَّ كيرينيوس كان والياً مرتين، ولكن ليس على المنطقة ذاتها.

ويزيد لوقا القضية تعقيداً حين يعلن أنَّ يوحنا المعمدان كان يكرز في السنة الخامسة عشرة من عهد طيباريوس، 29 للميلاد، وأنَّ يسوع بدأ بعثته بعد ذلك مباشرةً حين كان له نحو ثلاثين سنة (لوقا 3: 1—3، 21—23)(2). وإذا ما كان ذلك صحيحاً يكون يسوع قد

(1) « 1 وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنْ أُوغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ. 2وَهذَا الاكْتِتَابُ الأَوَّلُ جَرَى إِذْ كَانَ كِيرِينِيُوسُ وَالِيَ سُورِيَّةَ. 3فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُكْتَتَبُوا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ. 4فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، 5لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. 6وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. 7فَوَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ وَقَمَّطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي الْمِذْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ».

(2) « 1 وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ سَلْطَنَةِ طِيبَارِيُوسَ قَيْصَرَ، إِذْ كَانَ بِيلاَطُسُ الْبُنْطِيُّ وَالِيًا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَهِيرُودُسُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى الْجَلِيلِ، وَفِيلُبُّسُ أَخُوهُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى إِيطُورِيَّةَ وَكُورَةِ تَرَاخُونِيتِسَ، وَلِيسَانِيُوسُ رَئِيسَ رُبْعٍ عَلَى الأَبِلِيَّةِ، 2فِي أَيَّامِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ حَنَّانَ وَقَيَافَا، كَانَتْ كَلِمَةُ اللهِ عَلَى يُوحَنَّا بْنِ زَكَرِيَّا فِي الْبَرِّيَّةِ، 3فَجَاءَ إِلَى جَمِيعِ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالأُرْدُنِّ يَكْرِزُ بِمَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا».

«21 وَلَمَّا اعْتَمَدَ جَمِيعُ الشَّعْبِ اعْتَمَدَ يَسُوعُ أَيْضًا. وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي انْفَتَحَتِ السَّمَاءُ، 22وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ بِهَيْئَةٍ جِسْمِيَّةٍ مِثْلِ حَمَامَةٍ. وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ، بِكَ سُرِرْتُ».23وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ، بْنِ هَالِي».

«41 وَكَانَ أَبَوَاهُ يَذْهَبَانِ كُلَّ سَنَةٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ. 42وَلَمَّا كَانَتْ لَهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ كَعَادَةِ الْعِيدِ. 43وَبَعْدَمَا أَكْمَلُوا الأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا الصَّبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا. 44وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفْقَةِ، ذَهَبَا مَسِيرَةَ يَوْمٍ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الأَقْرِبَاءِ وَالْمَعَارِفِ. 45وَلَمَّا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ. 46وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ. 47وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوهُ بُهِتُوا مِنْ فَهْمِهِ وَأَجْوِبَتِهِ. 48فَلَمَّا أَبْصَرَاهُ انْدَهَشَا. وَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!» 49فَقَالَ لَهُمَا: «لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟». 50فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا. 51ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذِهِ الأُمُورِ فِي قَلْبِهَا».



موضع عمادة يسوع في نهر الأردن.
بموافقة مكتبة الكونغرس.

وُلِدَ حوالي العام 2 قبل الميلاد، بعد وفاة هيرودس الأكبر، عندما كان كيرينيوس لا يزال في الشرق مستشاراً عسكرياً لغايوس، حفيد أغسطس. وبالطبع، فإنّه يمكن ليسوع أن يكون قد وُلِدَ قبل العام 4 ق.م ويكون له نحو ثلاثين سنة حين بدأ بعثته. ويورد لوقا أيضاً أنّه لما كانت له اثنتا عشرة سنة صعد مع أبويه إلى أورشليم من أجل العيد الكبير، الذي يُفْتَرَض أنّه الفصح، وأنّه بقي هناك عند رجوعهما (لوقا 2: 41–51). وكانت هذه آخر إشارة إلى يوسف، والد يسوع، وحين يسرد لوقا بعثة يسوع لا يذكر يوسف. بل إنَّ حياة يسوع الأسريّة لا تُذْكَر كثيراً في أيّ من المصادر.

وتركّز الأناجيل على بعثة يسوع ورسالته التي حاول أن ينشرها. لكن الأناجيل تحتاج أيضاً لأن يُنْظَر إليها لا كأعمال تاريخية أو سِيَر، بل كرسالة في ألوهية يسوع. وقد كان لكلّ إنجيل جمهوره المختلف. ولعلّ إنجيل مرقس قد كُتِبَ أولاً، في أواخر ستينيات القرن

الأول الميلادي على ما يبدو. ومع أنّه كُتِبَ لجمهور يوناني، وربما باللغة اليونانية، حيث يشرح تعابير آرامية، إلا أنّه ربما كان يستهدف اليهود الذين يعيشون في الشتات ممن لا يعرفون سوى اليونانية وليست لهم روابط مباشرة مع فلسطين. ومن المحتمل أن يكون إنجيل متّى قد كُتِب في سبعينيات القرن الأول الميلادي أو في أوائل ثمانينياته واستعار من مرقس. ويعتقد بعضهم أنَّ إنجيل متّى ربما يكون قد كُتِب قبل إنجيل مرقس، لكن هذا ليس رأي أغلبية الباحثين. وقد كُتِب باليونانية، ولعلّه كان موجّهاً إلى اليهود إذ يبدو أنّه يرتكز إلى التقاليد اليهودية. أمّا إنجيل لوقا فقد كُتِبَ باليونانية خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن الأول الميلادي. والكاتب نفسه هو الذي كتب أعمال الرسل، وإنجيل لوقا هو الإنجيل الوحيد الذي يبدو بمثابة وَصْفٍ تاريخيٍّ ذي منهجيةٍ منتقاة. ويبدو أنّ هذا الإنجيل قد كُتِبَ لغير اليهود، أو الأمم، وحاول أن يوضح لهم أهمية يسوع ومكانته في التوحيد اليهودي. وهذه الأناجيل الثلاثة، المعروفة باسم الأناجيل المتشابهة[1]، تبدي تشابهاً في رسالتها وخطتها. أما الإنجيل الأخير، إنجيل يوحنا، فقد كُتِبَ لِيُظْهِر للقارئ أنَّ يسوع كان المسيح المنتظر، والمُختار. وهذا الإنجيل لاهوتيّ وقُصِد منه أن يبيّن اللوغوس، أو كلمة الله. ويبدو أنّه كُتِبَ في أواخر تسعينيات القرن الأول الميلادي ولعلّه كان الأخير بين الأناجيل من حيث كتابته.

وحياة يسوع كما ترويها الأناجيل ليست بالمكتملة. ولسنا نعلم ما كان يراه بالفعل في قضايا معينة. بل إنَّ وصف بعثة يسوع ليس حتى بالوصف الموثوق، لأنّ التسلسل الزمني والجغرافيا في كلّ إنجيل غالباً ما يتضاربا مع نظرائهم في الأناجيل الأخرى. غير أنّه لا ينبغي أن نُكْثِر من انتقاد الأناجيل، فهي لم يُقْصَد بها أن تكون سيراً كاملةً، بل الفكرة الأساسية فيها جميعاً هي آلام المسيح، وموته، وقيامته.

ومن الواضح في جميع الأناجيل أنَّ يسوع قد خانه واحد من حوارييه، هو يهوذا الإسخريوطي (متّى 26: 47–56؛ لوقا 22: 47–53)[2]. لكن سبب الخيانة لا يُذْكَر؛ فلعلّ

(1) Synoptic Gospel.

(2) « 47وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، إِذَا يَهُوذَا أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ قَدْ جَاءَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ. 48وَالَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلاً: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ». 49فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: «السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ. 50فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟» حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ. 51وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ. 52فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! 53أَتَظُنُّ

يهوذا شعر بأنّ يسوع لا يرقى إلى توقّعاته، أو بأنّه فقد احترام الحشد، أو بأنّ يهوذا قد خاف وحسب. وبصرف النظر عن السبب فإنّ يسوع قد تمّت خيانته وأُمْسِكَ به، وجرت محاكمته أمام مراجع اليهود لادّعائه الألوهة، مما ترى فيه هذه المراجع بِدْعةً. غير أنَّ المحكمة اليهودية لم تكن تملك في ما يبدو سلطة إصدار حكم بالموت. وحاول الوالي الروماني بيلاطس البنطي أن يُحيل يسوع إلى هيرودس أنتيباس على أساس أنَّ يسوع أتى من الجليل، كورة هيرودس. وفي النهاية حَكَم بيلاطس على يسوع بالموت وصَلَبَه. وكان الصلب هو العقاب المعتاد الذي يُعَاقَب به العبيد والمتمردون والطبقات الاجتماعية الدنيا، حيث يغلب أن يعيش المحكوم عدّة أيام قبل أن يموت اختناقاً بسبب الضغط المُطَبَّق على الرئتين. وموت يسوع السريع، بعدما أن أنهكه السهر القسري والجَلْد، هو السبب في أنَّ ساقيه لم تُكسرا، مثل السجينين المحكومين مثله. وبعد موته وُضِع يسوع في قبر قريب. وكان العادة الجارية أن توضع عظام الميت بعد تحلل جسده في مَعْظَمَة، وهي عبارة عن صندوق حجري يشكّل مثواه الأخير. لكن تلاميذ يسوع لم يحتاجوا ذلك لأنه قام من بين الأموات. ويُشار إلى الأناجيل في العهد الجديد بأنها الأناجيل المقبولة، التي أقرّتها الجماعات المسيحية الأولى كأعمال صدّق عليها الربّ وأَلْهَمَها. لكن هذه الأعمال لا تقتصر على تلك التي أشارت إلى يسوع وحسب، بل تتعدّاها إلى أعمال أخرى تركت أثرها على تاريخ المسيحية الباكر.

أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ 54فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟».

55 في تِلْكَ السَّاعَةِ قَالَ يَسُوعُ لِلْجُمُوعِ:«كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ أَجْلِسُ مَعَكُمْ أُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ وَلَمْ تُمْسِكُونِي. 56وَأَمَّا هذَا كُلُّهُ فَقَدْ كَانَ لِكَيْ تُكَمَّلَ كُتُبُ الأَنْبِيَاءِ». حِينَئِذٍ تَرَكَهُ التَّلاَمِيذُ كُلُّهُمْ وَهَرَبُو» (متّى).

– «47وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا جَمْعٌ، وَالَّذِي يُدْعَى يَهُوذَا، أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ، يَتَقَدَّمُهُمْ، فَدَنَا مِنْ يَسُوعَ لِيُقَبِّلَهُ. 48فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا يَهُوذَا، أَبِقُبْلَةٍ تُسَلِّمُ ابْنَ الإِنْسَانِ؟» 49فَلَمَّا رَأَى الَّذِينَ حَوْلَهُ مَايَكُونُ، قَالُوا: «يَارَبُّ، أَنَضْرِبُ بِالسَّيْفِ؟» 50وَضَرَبَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ الْيُمْنَى. 51فَأَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ: «دَعُوا إِلَى هذَا!» وَلَمَسَ أُذْنَهُ وَأَبْرَأَهَا.

52 ثُمَّ قَالَ يَسُوعُ لِرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَقُوَّادِ جُنْدِ الْهَيْكَلِ وَالشُّيُوخِ الْمُقْبِلِينَ عَلَيْهِ: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ! 53إِذْ كُنْتُ مَعَكُمْ كُلَّ يَوْمٍ فِي الْهَيْكَلِ لَمْ تَمُدُّوا عَلَيَّ الأَيَادِيَ. وَلكِنَّ هذِهِ سَاعَتُكُمْ وَسُلْطَانُ الظُّلْمَةِ» (متّى).

الأعمال الأخرى

يشتمل العهد الجديد على أعمال أخرى غير الأناجيل. من بينها أعمال الرسل، الذي كتبه من كَتَبَ إنجيل لوقا، ويصوّر تاريخ المسيحيين الباكر، حيث يقصّ قسمه الأول بعثة حواريي يسوع، خاصةً بطرس، في حين يقصّ قسمه الثاني بعثة بولس. أمّا الأعمال الأخرى في العهد الجديد فهي رسائل بولس، ويعقوب، وبطرس، ويوحنا، ويهوذا، ثمّ رؤيا يوحنا.

والعملان الباكران اللذان ليسا جزءاً من التقليد المقبول هما إنجيل توما وإنجيل بطرس. وقد عُرِفَ إنجيل توما من خلال نصوص نَجْع حمادي (التي اكتُشِفَت في مصر في القرن العشرين) وهو ترجمة قبطية لعمل أَبْكَر. ويرى بعض المؤلفين أنّه كُتِبَ في القرن الأول الميلادي وينبغي النظر إليه كمصدر مقبول. ويتركّز النقاش على أنَّه يختلف عن إنجيل يوحنا لاهوتياً، وأنّه نتاج الجماعة الغنوصيّة، وما دفع معظم الجماعات المسيحية إلى منعه هو مهاجمته أفكار الأناجيل الأخرى. أما إنجيل بطرس فهو سَرْدٌ يتناول آلام المسيح. و يروي هذا النصّ، الذي بقي لنا على نحوٍ غير مكتمل، أنَّ هيرودس أنتيباس وليس بيلاطس البنطي هو المسؤول عن موت يسوع. وهو يفصّل في الأحداث التي تلت موت يسوع، يفصّل في أمور دفنه وقيامته وصعوده (التي يرى أنها جرت في اليوم ذاته). وبذلك يقدّم هذان العملان معلومات وأفكار لا توجد في النصوص المقبولة. فلماذا لم يُقْبلا؟ ثمة أسباب عديدة محتملة. فلعلّهما لم يكونا معروفين، كلَّ المعرفة على الأقل، لدى الكنيسة الأولى. ولعلّهما كانا معروفين واعتُبِرا بِدَعَاً. ولعلّهما كُتِبا بعد إقامة النصوص المقبولة. غير أنهما، مهما يكن السبب وراء إسقاطهما، يقدّمان من المعلومات ما يشكّل إضافةً إلى أناجيل العهد الجديد.

ومن الأعمال الأخرى ذات الأهمية الذيذاخة[1] ، وهو كتيّب يعود إلى أوائل القرن الثاني قُصِدَ منه تثقيف المُهْتَدين، وهو في الأصل جَمْعٌ لأجزاء أربعة: الأول، هو السبيلان (سبيل الحياة وسبيل الموت)؛ والثاني، يُعْنى بشعائر الصَّوم والمعمودية والعشاء الرباني؛ ويُعْنى الثالث بمعاملة الرسل المسافرين؛ والرابع، رؤيا قياميّة. أمّا رسالة برنابا، المكتوبة بعد خراب الهيكل وقبل تمرد بار كوخبا (وهو ثورة يهودية في العام 132 للميلاد)، ربما

(1) Didache، وباليونانية Διδαχή، وتعني تعاليم.

للمسيحيين من غير اليهود، فلعلّها كانت تسعى إلى التوفيق بين المسيحيين من اليهود وغير اليهود. وهناك رسالتان تُنسبان إلى كليمينت، بابا روما. ومع أنَّ هاتين الرسالتين لم تُقْبلا، إلا أنهما كانتا تحظيان بإجلال الكنيسة الباكرة؛ وهما موجّهتان إلى الكنيسة في كورنثوس للمساعدة في حلّ خلاف. أمّا راعي هرمس، المكتوب حوالي 100–150م، فقد اعتُبِر مقبولاً لقرون عدّة قبل أن يُقْصى. وهذا العمل، الذي يُفْتَرَض أنَّ عبداً هو الذي كتبه، يشتمل على خمسِ رؤى، ووصايا وأمثال. ومن بين الأعمال الأخرى إنجيل يهوذا، وطفولة يسوع، ورؤيا بطرس، التي هي أعمال غنوصية. وقد حاولت هذه الأعمال أن تشرح رسالة يسوع لأولئك الذين يتعرّفون الأسرار. وتتركّز الأعمال الغنوصية على فكرة الاثنينية، أو الصراع بين الخير والشرّ. ويشكّل عَيْشُ الزُّهْد، الذي يمثّله الصوم والتقشّف أفضل تمثيل، جزءاً من الشعائر التي تعرض لها هذه الأعمال. وهي أعمال يُنظَر إليها على أنها منحولة، ولا سبيل إلى التحقق من مؤلّفيها. ولقد زُعِمَ أنَّ عمّال الكنيسة الباكرة، ومن بينهم بعض الرسل الأوائل، هم كتبة كثيرٍ من هذه النصوص، مع أنها كُتِبَت في حقيقة الأمر بعد القرن الأول بكثير. ولبعض هذه النصوص قيمة في فهم تكوّن الكنيسة الباكرة في حين أن بعضها الآخر ليس أكثر من زيف وتزوير.

الحياة اليومية

اعترَت منطقة العهد الجديد خلال القرن الأول الميلادي تغيراتٌ هائلة، ليس في المجال الديني وحسب. بل في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية أيضاً. فالديانة الأساسية في يهودا، أي اليهودية، لم تكن تلك الفلسفة المتجانسة. وكانت منقسمة زمن ولادة يسوع إلى ثلاث أو أربع طوائف كبرى. وكلّ منها كان يعمل تحت عباءة اليهودية لكنه يتميّز بفروق تَسِمه؛ فالفرّيسيّون كانوا يؤمنون بقيامة الجسد في حين لم يكن الصدّوقيون يؤمنون بذلك. وكان الغيورون (الزيلوت) من أنصار الردّ العنيف على الرومان أمّا الإسينيون فأرادوا أن ينأوا بأنفسهم عن المجتمع. وقد انضاف يسوع إلى هذا الخليط، وراح يكرز بآراء يهودية شتّى، منها المتحرر، ومنها المحافظ، ومنها الثوري. وكذلك، فقد تغيّرت المنطقة سياسياً زمن يسوع. فعند مولده كان هيرودس هو الذي يحكم يهودا والجليل، وعند وفاته كانت يهودا تحت سيطرة الرومان، فخلال جيل كانت

أورشليم قد خُرِّبَت وفلسطين قد وقعت تحت الاحتلال العسكري الروماني. وقد تركت هذه التغيرات آثارها على حياة البشر اليومية. كما تغيّرت البيئة الاجتماعية أيضاً خلال القرن الأول للميلاد. فقد شُقَّت الطرق مما أدّى إلى تقدّم أقسام كثيرة في المجتمع. وشهدت المنطقة تدفّق المحاربين الرومان، الذين غدوا في الغالب النخب الاجتماعية الجديدة. ومع مزيدٍ من الاستقرار بعد الحروب الأهلية الرومانية، بات المجتمع أشدّ سلاسة. وكان لهذه التغيرات أن تحثّ المنطقة اقتصادياً أيضاً. فمع التغيرات في المجتمع والسياسة، أَمْكَنَ للبشر الآن أن يغدو أكثر ميلاً إلى التجديد. وبات بمقدور التجار أن ينقلوا بضائعهم دون عوائق سياسية. وجميع هذه العوامل تركت أثرها على حياة سكّان فلسطين اليومية.

ولم تكن الحياة اليومية زمن العهد الجديد مقتصرةً على منطقة فلسطين. فالنشاط التبشيري الذي قام به بولس أخذ العقيدة الجديدة، المسيحية، إلى أراضٍ ليست يهودية، خاصةً آسيا الصغرى واليونان. ومع انتشار المسيحية في هذه المناطق الهلنستية، تحولت المسيحية ذاتها، وتغيّرت معها حياة الشعب اليومية. وكان القرن الأول للميلاد مرحلة تغيّر شديد. ومع ترسّخ سلطة الإمبراطور، وتحويل منطقة المتوسط إلى منطقة موحّدة اقتصادياً، وانفتاح المراتب الاجتماعية، كان ثمّة سلسلة كاملة من احتمالات التغيير. ولقد أتاح القرن الأول فرصاً هائلة أمام المهتمين بسبر نظرتهم الفلسفية. ومع التغيّرات في النظرات الدينية والفلسفات، تغيّرت الحياة اليومية أيضاً.

يحاول هذا الكتاب أن يؤسّس لفهم الحياة اليومية خلال فترة العهد الجديد، خاصةً في فلسطين. وسوف تتفحّص فصوله المختلفة جغرافيا المنطقة وتاريخها، وجماعاتها الإثنية المختلفة، والعوامل غير الدينية التي أثّرت بقوة على الحياة اليومية. فالقسم التالي يتفحّص اليهودية قبل المسيح المُنْتَظَر وضروباً من ترقّب هذا المسيح. ثم تكمل الصورة بمختلف المهن التي كانت قائمة، وحياة الفلاحين وسواهم من الأفراد اليومية. أما القسم الأخير فيستكشف روما واحتلالها وما تركته الحياة اليومية آنئذٍ من أثر دائم على العالم الحديث.

التسلسل الزمني للأحداث

323 ق.م وفاة الإسكندر المقدوني

174–163 أنطيوخوس الرابع إبيفانيس يحاول أن يُهَلْيِنَ فلسطين.

168–142 التمرد المكابي.

140–137 المملكة الحشمونية.

134–104 يوحنا هرقانوس يوسّع نطاق اليهودية بالقوة إلى الجليل وإدومية.

63 الجنرال الروماني بومبي يستولي على أورشليم ويسلب الهيكل.

40 بتوجيه من مارك أنطوني، مجلس الشيوخ الروماني يعيّن هيرودس ملكاً على اليهود ويمنحه السلطة على يهودا والسامرة والجليل.

6–4 ولادة يسوع ويوحنا المعمدان.

4 وفاة هيرودس الأكبر.

4 ق.م–39م هيرودس أنتيباس (ابن هيرودس الأكبر) رئيس رُبْعٍ (تِتْرارك) على الجليل.

4ق.م–6م هيرودس أرخيلاوس (ابن هيرودس الأكبر) رئيس قوم (إثنارك) على يهودا إلى أن يُعزّل.

6 يهودا تصبح مقاطعة رومانية؛ كيرينيوس، والي سوريا، يجري اكتتاباً (تعداداً للسكّان) يؤدي إلى تمرد يهوذا الجليلي، الذي يخمده كيرينيوس. الوالي لا يسيطر إلا على يهودا.

7–9 كوبونيوس، أوّل والٍ على يهودا.

9–12 ماركوس أمبيبولوس والياً.

12–15 أنيوس روفوس والياً.

15–26 فاليروس غراتوس والياً، ويعيّن حنّان رئيساً للكهنة.

6–26 فترة سلم.

9 وفاة هلّيل الأكبر.

18–36 الوالي غراتوس يُعَيِّن قيافا رئيساً للكهنة، ووالي سوريا، فيتيليوس، يعزله.

26–36 بيلاطس البنطي والياً، يعزله فيتيليوس؛ خَلَفُه مارسيلوس يتصرف كصنيعة

لفيتيليوس، ولعلّه لم يكن والياً بين 36–37م.

29–30 بعثة يوحنا المعمدان ووفاته، بعثة يسوع ووفاته.

37–41 مارولوس والياً

40 اهتداء بولس

41–44 كلاوديوس يُعَيّن هيرودس أغريبا ملكاً على اليهود.

42 مقتل يعقوب، وهو واحدٌ من رُسُل يسوع ورأس الكنيسة المسيحية في أورشليم.

44–46 تالياً لموت هيرودس، يهودا والسامرة والجليل تحت سيطرة والٍ، كوسبيوس فادوس والياً.

46–48 طيباريوس الإسكندر، الذي وُلِدَ يهودياً، يُعَيَّن والياً على أمل أن يحول دون الاضطراب.

47–67 بعثة بولس.

48–52 فانتيديوس كومانوس، يُعَيَّن والياً ويشتهر بقسوته، ويُعزَل بطلب من الموظفين اليهود.

52–60 فيلكس يُعيَّن والياً بطلب من رئيس الكهنة اليهودي، ويُشرِف على التحقيق الأولي مع بولس.

60–62 بوركيوس فيستوس والياً، ويتفحّص القضية المرفوعة ضدّ بولس. ومع أنّه معروف بعدالته، فإنه يصل متأخراً جداً ولا يفلح في الحيلولة دون التمرد القادم، ويموت في منصبه.

62–64 ألبينوس والياً، ويشتهر بابتزازه السكّان المحليين.

63–66 غاسيوس فلوروس والياً، أعماله تؤدي إلى التمرد اليهودي.

التمرد اليهودي الأول.

فسباسيان يستولي على شمال إسرائيل.

67 مقتل بولس وبطرس.

69 فسباسيان يعلن نفسه إمبراطوراً، وابنه تيتوس يتولّى الأمور.

70 تيتوس يستولي على أورشليم والهيكل يُحْرَق.

73 الجنرال سيلفا يستولي على قلعة مسادة ويجد من فيها صَرْعى.

91–95 دومتيان يضطهد اليهود والمسيحيين.

132– 135 التمرد اليهودي الثاني، تمرد بار كوخبا، الرومان يعيدون تسمية أورشليم إيليا كابيتولينا أي [مدينة إيليوس] خلال حكم هادريان.

الفصل الأول

نظرة جغرافية وتاريخية

*«30فأَجابَ يَسوعُ وَقالَ: «إِنسانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحا، فَوَقَعَ بَيْنَ
لُصوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ. 31فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِنًا
نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. 32وَكَذلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضًا، إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ
جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. 33وَلكِنَّ سَامِرِيًّا مُسَافِرًا جَاءَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ، 34فَتَقَدَّمَ
وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا وَخَمْرًا، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُق
وَاعْتَنَى بِهِ. 35وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ، وَقَالَ
لَهُ: اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ»».*

(لوقا 10: 30-35)

يلتقط القولُ الافتتاحي في هذا المَثَل وَضْعَ يهودا الجغرافيّ زَمَنَ العهد الجديد. فهو ليس بالبساطة التي يبدو عليها، بل يشتمل في الحقيقة على وَصْفٍ حيّ للمكان والوجهة. فأريحا، التي تقع على واحدٍ من الطرق الرئيسة إلى أورشليم، تبعد عن هذه الأخيرة حوالي 15 ميلاً وتنخفض عنها زهاء 1500 قدم. وحين طفق يسوع يقصّ مَثَلَه، كانت في ذهن مستمعيه مسبّقاً فكرةٌ عن المنطقة والمسافة والجهد الذي ينبغي على المسافر أن يبذله. ويتواصل المَثَل بعدئذ ليبيّن أنَّ لصوصاً قد هاجموا المسافر. وهذه صورةٌ كانت مألوفة أيضاً بالنسبة لمستمعي يسوع. فيهودا لها تاريخ من المشكلات مع قطّاع الطرق. وما كان ليصعب على المستمعين أن يلتقطوا هذه الصورة. وكان بمقدور يسوع أن يستبدل بـ «اللصوص» «جنوداً» أو «متطرفين (من الزيلوت)» دون أن يفقد الأمر ما فيه من الدراما. ويتواصل المَثَل بعد ذلك مع فرّيسيّ وصدّوقيّ يمرّان بالجريح دون أن يمدّا له يد العون. وجمهور يسوع كان يعرف جيداً هاتين الجماعتين الدينيتين الكبيرتين. وينتهي المَثَل أخيراً بتاجر سامريّ يُعين المسافر، ويأتي به إلى فندق، ويَعِدُ صاحبه بأن يسدّد لدى عودته أيّة نفقات إضافية. وهذا الجزء من المَثَل يجمع معاً فعلاً دينياً من أفعال الإحسان، هو سمة مميّزة من سمات اليهودية، وطائفيةً دينية بين اليهود والسامريين، على خلفية جغرافية معينة.

جغرافيا العهد الجديد

غالباً ما تتضافر جغرافيا أمّة من الأمم أو شعب من الشعوب مع تاريخ هذه الأمّة أو هذا الشعب، ليس على المستوى التاريخي فحسب بل على مستوى الحياة اليومية أيضاً. وهذا ما يصحّ بشكلٍ خاص على منطقة شرق المتوسط التي دُعيَت تقليدياً باسم فلسطين. وحياة البشر اليومية التي يصوّرها العهد الجديد تبيّن بوضوح تأثير كلٍّ من الجغرافيا والتاريخ. وثمّة مقاطع في العهد الجديد ترتبط بمناطق مثل الجليل، والسامرة، ويهودا داخل فلسطين، إلى جانب قبرص واليونان وآسيا الصغرى وإيطاليا في الخارج. وسوف يستكشف هذا الفصل تفاعل التاريخ والجغرافيا ووصفهما، خاصةً في فلسطين، على نحوِ ما يرتبطان بـ«العهد الجديد».

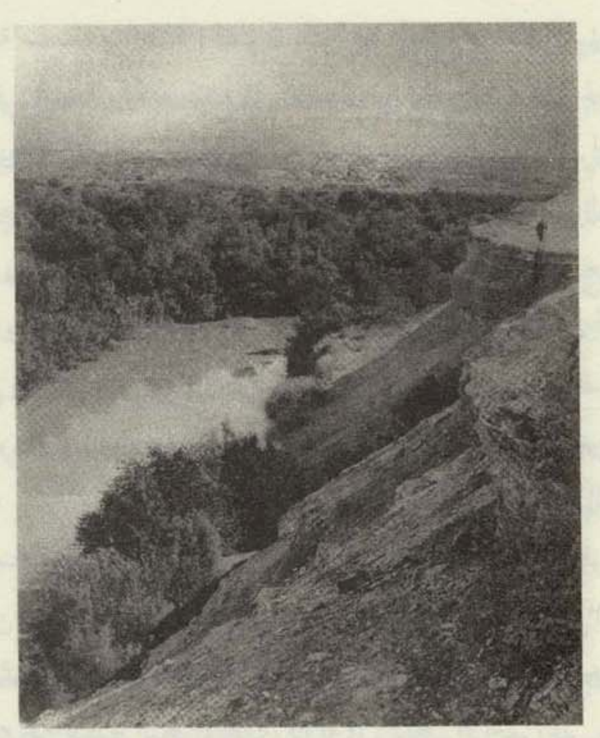
فلسطين

تشكّل فلسطين في الشرق الأوسط نوعاً من المنطقة الجغرافية الجامعة. وعلى الرغم من كونها خَلْقاً صنعياً من نواحٍ كثيرةٍ دون أيّة مكانة إثنية أو جغرافيّة أو قوميّة فعليّة إلا أن فلسطين معروفة ومألوفة لدى معظم الناس. ويمكن استخدام اسم فلسطين، التي كانت تضمّ أجزاء من منطقة لبنان الحالي، وإسرائيل، ومصر (شبه جزيرة سيناء)، وسوريا، كإطار عام تُتَنَاوَل فيه المناطق القديمة المذكورة في العهد الجديد. وكانت هنالك مناطق أكثر تحديداً، على الرغم من مرونتها. ومن بين هذه المناطق الجليل والسامرة ويهودا والبيرة وإدومية. وهذه هي المناطق التي ارتحل فيها يسوع ومعاصروه أو كانوا يألفونها. ويمكن أن نقسم جغرافيا هذه المنطقة إلى سلسلة من المرتفعات والوديان المتوازية التي تبدأ بالقرب من المتوسط ثم تأخذ بالابتعاد عنه. وعلى سبيل المثال، فإن نهر الأردن يبدأ في الجليل عند بحيرة الحلّة، التي ترتفع سبعة أقدام عن سطح البحر. ويسير 10 أميال إلى بحر الجليل (هو بحيرة في الحقيقة)، الذي ينخفض 685 قدماً عن سطح البحر. ثم يسير النهر 65 ميلاً آخر إلى البحر الميت، الذي ينخفض 1290 قدماً عن سطح البحر، لترتفع الأرض بعد ذلك 300 قدم فوق سطح البحر قبل أن تأخذ بالانخفاض التدريجي باتجاه خليج العقبة والبحر الأحمر.

لكن وادي نهر الأردن ليس سوى واحدٍ من سلسلةٍ من الأغوار. وباتجاهنا من المتوسط

إلى الصحراء ثمّة سلسلة من هذه الخطوط المتوازية. أولها هو سهل ساحليّ، لا يتجاوز عرضه 6 أميال في الشمال لكنه يتّسع إلى 30 ميلاً في الجنوب. وهو الجزء الأخصب من يهودا. وهذه المنطقة تتأثّر بالبحر، سواء من حيث المناخ، الذي يكاد أن يكون مدارياً؛ أم من حيث التجارة، نظراً لقلّة المرافئ في هذه المنطقة وغياب الموانئ الطبيعية لأن طمي نهر النيل الذي يجري بعكس عقارب الساعة قد ملأ بالغرين ميناء جوبا (يافا) وميناء صور الجنوبي. وكان هيرودس قد بنى ميناء قيصرية الساحل، الذي أتاح للمنطقة أن تستقبل البضائع وترسلها إلى زوايا المتوسط الأربع. والخط التالي هو السلسلة الوسطى، أو السلسلة السورية الغربية، وهي جدار كلسي طويل عميق يجري من لبنان إلى البحر الأحمر، تقطعه وديان ومرتفعات. وتقع مدينة أورشليم على هذه السلسلة، وتُقْسَم الأرض هنا إلى مناطق أو وحدات صغيرة، مع درجات حرارة شديدة (فوق 100 درجة في الصيف)، وتباين في جريان المياه. يأتي بعد ذلك وادي نهر الأردن مع السلسلة السورية الشرقية، الأشدّ تمادياً من السلسلة الوسطى أو الغربية. وهي تبدأ من جبل حرمون على ارتفاع 2000 قدم عن سطح البحر وتجري نازلة إلى البحر الأحمر على مستوى يكاد أن يكون ثابتاً. وأخيراً، تبدأ صحراء شبه الجزيرة العربية أرضاً قاسيةً غير مضيافة. وحيوانات الأراضي الفلسطينية هي حيوانات متنوعة، نظراً لوجود المراعي والغابات والأجمات والأشجار المثمرة وكروم الزيتون والعنب والحبوب في السهول الدنيا. والمنطقة قاسية؛ فلدى السفر شرقاً من أورشليم عبر أريحا إلى البحر الميت تنخفض الأرض حوالي 4000 قدم في غضون 15 ميلاً. وما من مورد للمياه من أريحا حتى أورشليم قبل أن يصل المرء إلى جبل الزيتون.

والمنطقة بأكملها صغيرة نسبياً، لا تتجاوز 6000 من الأميال المربّعة. وفي الشمال في سهل اسدراليون [مرج ابن عامر] يقع وادي مجدّو (أرماجِدّون) في الغرب ووادي جِزْريل في الشرق، في حين تشرف مرتفعات الجليل في الشمال ومرتفعات إفرايم ويهودا في الجنوب على المدخل إلى إسرائيل. وكلّ من يسيطر على هذه المنطقة يسيطر على مفتاح فلسطين ومواردها. واسدراليون هي المنطقة الأخصب هنا، وقد غدت ذات أهمية كبرى ولا تزال. ومن أرض الدانيين في الشمال، وعلى مدى 150 ميلاً جنوب بئر السبع هي أرض إسرائيل الكاملة. والأردن، الذي لا يتجاوز طوله 65 ميلاً،



إطلالة على نهر الأردن ومحيطه من قمة أحد المرتفعات، في فلسطين. بموافقة مكتبة الكونغرس.

يبعد عن الساحل 28 ميلاً في الشمال في حين يبعد البحر الميت عن الساحل 54 ميلاً في الجنوب. أما جبل حرمون في الشمال فيرتفع عن سطح البحر 9200 قدم، أما البحر الميت فينخفض 275 قدماً تحت سطح البحر، حيث يبلغ الانخفاض 10475 قدماً خلال أقل من 100 ميل.

وتبدي هذه المناطق الجغرافية فروقات دينية ضمن اليهودية ذاتها. فيهودا كانت أرض اليهودية الأصلية، لكنَّ مناطق أخرى تلقّت اليهودية أيضاً. وإلى الشمال ادّعت السامرة حقّاً نهضاً إزاء سيطرة يهودا التقليدية على الهيكل وتنظيمه. وإلى الشمال أكثر، كان الجليليون قد تحولوا مؤخراً (100 ق.م) إلى اليهودية، وكان اليهود في يهودا يعتبرونهم أدنى. غير أنّ سيطرة يهودا على أورشليم والهيكل كانت تجلب اليهود إليها، وتشيع بين أكثرهم حسّ الجماعة.

كان ثمّة أيضاً جيوبٌ من اليهود خارج فلسطين تركت أثرها على الحياة في الحقبة

التي يصفها العهد الجديد. ففي بابل كان جمهورٌ واسعٌ من اليهود، هم ذريّة أولئك الذين سُبوا في العام 587 ق.م ولم يرجعوا بعد سقوط بابل. وكان في الإسكندرية، في مصر، عدد كبير من اليهود، هم ذرية المعمّرين الذين هاجروا إلى هناك في عهد البطالمة، خلفاء الإسكندر المقدوني (356–333 ق.م). وفي آسيا الصغرى، وفي كثير من المدن مثل أَفَسُس وأنطاكية وطرسوس، كان المقيمون اليهود قد وصلوا في عهد السلوقيين إلى هذه المملكة الأخرى التي أقامها أحد خلفاء الإسكندر. وكان ثمّة يهود أيضاً في اليونان وإيطاليا، إذ هاجروا إلى كثير من المدن في عهد الجمهورية الرومانية المتأخرة. وكانت عالميةُ اليهودية قد ازدادت في القرنين السابقين على المسيح.

التاريخ اليهودي

هذا الترابط الداخلي بين الجماعات اليهودية المختلفة كان نتاجاً للتاريخ. فالمملكة اليهودية التي توحّدت في ظلّ داود وسليمان، انقسمت إلى مملكة شمالية، هي إسرائيل، ومملكة جنوبية، هي يهودا. ولقد سقطت إسرائيل بيد الآشوريين في القرن الثامن ق.م، واستُعْبِد كثيرٌ من سكّانها وازدُرِعُوا في الداخل الآشوري. أما يهودا فقد صمدت قرناً آخر لكنها سقطت أخيراً في العام 587 بيد نبوخذ نصّر البابلي، حيث كانت بابل قد أطاحت مؤخراً بسلطة الآشوريين. وقد سبى البابليون كثيراً من العوائل البارزة إلى بابل كرهائن، لكنّ جماعة ضخمة بقيت في يهودا. وبعد سبعين عاماً انتهى السبي بفتح فارس المنطقة بقيادة قورش الكبير. وسُمِح لليهود بأن يعودوا إلى يهودا، لكنَّ كثيراً منهم بقوا في بابل، وقدّمت فارس للعائدين العون كي يعيدوا بناء الهيكل. وأثار اليهود العائدون بعض العداوات مع المقيمين الأصليين. كما اندلعت خلافات –بل وعداوات– مع سكّان المملكة الشمالية السابقة، الذين يعرفون باسم السامريين، وكان يُنْظَر إليهم على أنّهم أنجاس لأنّ منطقتهم كانت تعجّ بالغرباء.

وجاء فتح الإسكندر لفارس بجماعةٍ سياسيةٍ وثقافيةٍ جديدة، هي الإغريق المقدونيون. ولم يكن لهؤلاء المقدونيين، الفاتحين، تاريخ مشترك مع المنطقة، وأدّت الهوّة بينهم وبين اليهود ليس إلى انقلاب سياسي وحسب بل إلى حرب ثقافية/دينية أيضاً. وفي البداية سيطر على منطقة يهودا بطالمة مصر، بدءاً من 323 ق.م. ولم تُحْكَم البلد بوالٍ مُعَيَّن من قبل

الإسكندر بل كانت تحكم ذاتها عن طريق مجلس الشيوخ اليهودي الذي يتزعّمه رئيس الكهنة. ولكي يضمن البطالمة عدم إثارة اليهود القلاقل، أقاموا حول يهودا سلسلة من المستوطنات اليونانية-المقدونية. ولم يضمن هؤلاء المعمرون عدم تمرد اليهود وحسب، بل جلبوا أيضاً ديانتهم وفلسفتهم، اللتان تحدّتا اليهودية. ولطالما اضطر اليهود على مرّ تاريخهم لأن يجابهوا ممارساتٍ دينية أخرى لدى جيرانهم الساميين، أمّا الآن فكان عليهم أن يقارعوا الهلنستية وفلسفتها الوثنية، التي تدعمها الملكية في مصر.

غدت الإسكندرية عاصمة البطالمة مركز شرق المتوسط. وراح اليهود المقيمون في مصر يتقاطرون إلى الإسكندرية، التي باتت أكبر مركز لليهود خارج فلسطين. وسُمِحَ لليهود بممارسة ديانتهم في المدينة، ولم يكن أكبر مجمع معروف يبعد أكثر من 14 ميلاً في شيديا. أما عداء السامية، الذي لم يكن مجهولاً تماماً في الأصل، فقد ازداد الآن، وغالباً ما أفضى إلى صدامات عنيفة. وبغية مواجهة أعمال اليونانيين في المدينة، ترجم اليهود الكتاب المقدّس من العبرية إلى اليونانية. وقد عُرِفَت هذه الترجمة بـ السبعينية(1) ، وهي كلمةٌ يُفْتَرَض بها أن تعني أنَّ العمل قد أنجزه سبعون مترجماً. ومع أنَّ المُراد من هذه الترجمة كان توفير الكتاب المقدّس اليهودي لليونانيين الوثنيين بحيث يفهم هؤلاء الأخيرون اليهود فهماً أفضل، إلا أنّه لم يُفْلِح في ذلك على الأرجح. فما كان لمعظم اليونانيين أن يفهموا القصص والنبوءات، لأنَّ اليهودية متركّزة على الإيمان بإله واحد، وهو أمر غريب على اليونانيين. غير أنَّ ما فعلته الترجمة السبعينية هو أنّها وفّرت للجماعة اليهودية في الإسكندرية، وفي كلّ مكان في النهاية، كتاباً مقدّساً يمكن لهم أن يفهموه، لأنّ معظمهم لم يكن يعرف العبرية.

غير أنّه ظلَّ يُنْظَر إلى فلسطين على أنّها بوابة مصر وسوريا. وأدّى هذا الموقع الفريد إلى عداوات متواصلة بين مصر البطالمة والسلوقيين في سوريا. وشهد القرن الثالث ق.م صراعات مستمرة للسيطرة على فلسطين. واضطر البطالمة إلى تجنيد المزيد من المرتزقة، من الإدوميين خاصةً. وفي 200 ق.م هزم أنطيوخوس الثالث السلوقي البطالمة وسيطر على المنطقة. وقد رحّب كثيرون في يهودا بهذا الاستيلاء لأنه كانت لا تزال لهم صلات ببابل. وسمح أنطيوخوس لليهود بأن يسيطروا على شؤون الدولة الداخلية من خلال رئيس

(1) Septuagint

الكهنة ومجلس الشيوخ. ولم تُفْرَض الجزية على الهيكل وازدهرت الدولة. لكن الوضع سرعان ما تغيّر. فقد ازدادت الجزية تلك الزيادة اللافتة إلى أن بلغ خراج الأرض خلال 25 سنة زهاء ثلث المحصول، أما الهيكل ذاته فقد نُهِبَ أو كاد يُنْهَب في ظلّ سلوقس الرابع (187–175). ولقد نجمت زيادة الجزية عن حاجة السلوقيين إلى دفع الأتاوة إلى روما بعد أن تركت لهم السيطرة في العام 189 ق.م.

أدّت هذه التقلّبات إلى انقسامات داخل العوائل اليهودية البارزة وفي ما بينها. فقد رغب بعضهم في العودة إلى البطالمة ولَفْظ السلوقيين، في حين رغب بعضهم الآخر في البقاء تحت سيطرة السلوقيين. وكانت الجائزة بالنسبة لكلا المعسكرين هي رئاسة الكهنة وما لها من نفوذ في المجلس. هكذا انشقّ بنو طوبيا، الذين كانوا يسيطرون على رئاسة الكهنة. ولم يكن هذا الانشقاق سياسياً وحسب بل ثقافياً أيضاً. ففي العام 180 ربما كان رئيس الكهنة أونياس الثالث موالياً للبطالمة في حين كان أخوه ياسون (يشوع، يسوع) موالياً للسلوقيين. وقد دفع ياسون لأنطيوخوس الرابع إيبفانيس (175–163) لكي يغدو رئيس الكهنة مكان أخيه. وراح ياسون يحوّل أورشليم إلى مدينة يونانية تعيش إلى جانب مدينة يهودية. وكان القسم اليوناني يحوي جمنازيوم[1] حيث يمارس غير اليهود الرياضة عراةً، الأمر الذي كان يشكّل صدمة لمعظم اليهود. وفي 175 أُطيح بياسون وحلّ محلّه مينلاوس، وهو نصير لِلْهَلْيَنَةِ أشدّ حماسة، وعد أنطيوخوس الرابع بذهب الهيكل وسمح بوجود حامية سلوقية في المدينة. وعاد ياسون، فحبس مينلاوس، ووضع حدّاً لمحاولته السابقة خلق مدينة يونانية، وطرد الحامية السلوقية. لكن أنطيوخوس، الذي كان يقاتل البطالمة والفرثيين في إيران، استولى على أورشليم، وهدم أسوارها، ونهب كنوزها، وحصّن القلعة بحامية جديدة، وأعاد تنصيب مينلاوس. بل إنَّ أنطيوخوس عاقب اليهود بمنع الختان واحتفالات السبت. وفرض أضاحي رسمية تُقَدَّم للآلهة الوثنية، وفي العام 167 كرّس الهيكل اليهودي رسمياً كمزار من مزارات زيوس.

ومع أنَّ أنطيوخوس كان قد حاول أن يدمج عبادة الآلهة الأخرى في إطار عام من عبادة زيوس، الذي يمثّله أنطيوخوس نفسه، إلا أنّه لم يَسْعَ من قبل إلى محو ديانةٍ محواً كاملاً. أمّا أعماله اللاحقة ضد اليهود فقد مَضَت إلى أبعد من الجمع بين الديانات، وينبغي أن

(1) قاعة ألعاب رياضية.

تُرى على أنّها عداء صريح. وكانت عاقبة سياسات أنطيوخوس هي التمرد العلني، ثورة المكابيين، على اسم العائلة التي قادت الثورة. وكانت تُدْعى أيضاً الحشمونيين وتنتمي إلى عشيرة يواريب الكهنوتية لكنها لم تكن من آل صادوق، تلك العشيرة التي سيطرت تقليدياً على رئاسة الكهنة.

بدأ ماتاثياس التمرد بامتناعه عن تقديم الأضاحي وقتله يهودياً من بني جلدته كان يمتثل لأوامر أنطيوخوس. وبغية تفادي العقاب، فرّ ماتاثياس وأبناؤه الخمسة، مع آخرين، إلى الجبال. وكان معظم هؤلاء الفارّين من أفقر عناصر المجتمع، وسرعان ما تحول الأمر إلى تمرّد طبقي. وبعد وفاة ماتاثياس عام 166، غدا ابنه يهوذا المكابي قائداً لحرب العصابات. وفي العام 164 أفلح في فرض سيطرته المطلقة على أورشليم، وأعاد تقديس الهيكل، واحتفل بـ«عيد الأنوار» (الحانوكا)[1] مستخدماً شمعداناً مُشَعَّباً سبعة شعب، هو المينوارة. ولأنّ يهوذا كان يعلم حاجته إلى العون في مقاومة السلوقيين، فقد عقد معاهدة مع روما (160 ق.م) وجددها بعد عشرين عاماً. ومن جهتها فقد سُرَّت روما بمدّها يد العون للدولة اليهودية، لأنّ ذلك أتاح لها حضوراً في فناء السلوقيين الخلفي على ذلك النحو الذي يجعلهم تحت أنظارها على الدوام. ومات يهوذا في العام 160 وخلفه أخوه يوناثان. ولم يُصْبِح يهوذا رئيساً للكهنة لأنه ليس من آل هارون، لكن يوناثان لم يكتف بالقيادة الدنيوية بل أباح لنفسه أيضاً أن يغدو القائد الديني (رئيس الكهنة). وقد أفلح في الاستيلاء على يافا على المتوسط لكنه ضمن أيضاً اعتراف السلوقيين به والياً على يهودا بعد أن قدّم لهم عوناً عسكرياً. ومثل أخيه، مات في معركة. وقام سيمون، آخر أبناء ماتاثياس الباقين على قيد الحياة، بطرد الحامية العسكرية السلوقية من أورشليم، واستولى على قلعة عكرة، وأجبر الملك السلوقي على الاعتراف باستقلال يهودا. وغدا سيمون رئيساً للكهنة وسمّى نفسه إثنارخاً، وهو مصطلح يشير إلى رئيس قوم (أو إثنية)، لكنه ليس ملكاً تماماً.

وظلّت يهودا أمّة مستقلة طيلة ثمانين عاماً، ما عدا مرحلة من السيطرة السلوقية الوجيزة من 135—129 ق.م. فقد اغتيل سيمون في العام 135، مما دفع أنطيوخوس السابع سيديتِس لأن يعيد فتح يهودا، الأمر الذي دام حتى وفاته عام 129. وقد قام ابن سيمون، يوحنا هرقانوس (134—104) بتجديد المعاهدة مع روما، وضمن بذلك استقلال الدولة

(1) عيد تجديد الهيكل.

اليهودية عن كلٍّ من مصر البطالمة وسوريا السلوقية. وكان في ظلّ حكمه أن ضُمَّت مناطق السامرة والجليل وإدومية. وقد عاقب السامريين لعدم دعمهم ثورة المكابيين بتدمير معبدهم على جبل جرزيم ومدينتهم المتهلينة السامرة. وفي الجليل، حيث كان بعض النشاط التبشيري جارياً من قبل، أجبر يوحنا هرقانوس البقية على التحول إلى اليهودية؛ وسوف تعني سيطرته على الجليل وتحويله إلى اليهودية بقاء الجليل يهودياً وحسب على مدى 100 عام إلى حين ولادة يسوع وكرازته. كما أجبر يوحنا هرقانوس سكان إدومية على الخضوع للختان وقبول اليهودية. لكن الفرّيسيين لم يَرَوا قيمة لهذه الضروب من التحول إلى اليهودية لأنها فُرِضَت فرضاً على السكان. وخَلَفَ يوحنا هرقانوس ابناه أريستوبولس (104–103) واسكندر ينايوس (103–76)، الذي اتخذ له لقب ملك. وفتح اسكندر المنطقة الجنوبية حول غزة، بهزيمته الأنباط، وسيطر على ساحل يهودا، وعاقب المدن اليونانية. وقد تمرّد بعض الفرّيسيين على اسكندر، ربما بسبب الحدّ من سلطة مجلس الشيوخ وفكرة أنّ ملكاً لا يمكنه أن يكون رئيساً للكهنة. لكن اسكندر حطّم التمرد وأعدم مئاتٍ من الفرّيسيين. وقد خلفته زوجته سالومي اسكندر (76–67). وعكست سياساته الدينية وحابت الفرّيسيين الذين سيطروا، إلى جانب حلفائهم الكَتَبة، على السنهدرين العظيم ووقفوا قبالة الصدوقيين. وغدا ابن سالومي البكر، يوحنا هرقانوس الثاني، رئيساً للكهنة وحكم بعد وفاتها. وغدا مشيره الرئيس، أنتيباتر الإدومي، السلطة الحقيقة وراء العرش. غير أنَّ الجبهة السياسية شرق المتوسط تغيّرت برمّتها في العام 63 ق.م مع وصول بومبي العظيم من روما.

كان بومبي قد أُمِرَ بحلّ مشكلة القراصنة، وحين أنهى هذه المهمة قرر أن يعيد تنظيم المشهد السياسي في الشرق ويعيد تشكيله. ولذلك فقد أنهى السلطة السلوقية وضمّ سوريا، وجعل روما على تماس مباشر مع يهودا. أمّا يوحنا هرقانوس الثاني وأخوه أريستوبولوس الثاني، اللذان كانا منخرطين في صراع على السلطة، فقد تقرّبا كلاهما من بومبي، الذي أعطى السيطرة لأريستوبولوس. غير أنَّ هذا الأخير لم يقدّم لبومبي ما يلزم من المال والعون فأزيح وأُحِلَّ محلّه يوحنا هرقانوس. واستولى بومبي أيضاً على أورشليم ودخل قدس الأقداس في الهيكل، وهو ما يعدّه اليهود ضرباً من التجديف وانتهاك الحرمة. وبقي يوحنا هرقانوس رئيساً للكهنة، لكن منطقة نفوذه اختُزِلَت إلى يهودا

والجليل، دون السامرة، ولُقِّبَ برئيس القوم أو الإثنارك. وبعد بضع سنوات جُرِّد من هذا اللقب لكنه احتفظ بلقب رئيس الكهنة وبالسيطرة على مدينة أورشليم، واختُزِلَت أراضيه إلى خمس وحدات منفصلة يسيطر عليها الصدوقيون. أمّا أنتيباتر، الذي تعاون مع الرومان، فقد أُعطِيَ سيطرة على بلدة إدومية. وخلال الأزمنة المضطربة من حكم الثالوث الأول (كراسوس وبومبي وقيصر) كانت يهودا خاضعةً للسيطرة الرومانية، واستولى كراسوس على كنوز الهيكل. ومع سيطرة قيصر على روما بعد هزيمة بومبي ومدّ يوحنا هرقانوس وأنتيباتر يد العون لقيصر في مصر، نالت الدولة اليهودية مكافآتها. فلم يُعْطَ يوحنا هرقانوس أراضيه السابقة وحسب بل أُعطيَ أيضاً يافا وسها جزريل. كما أعطى لقب رئيس القوم أو الإثنارك، وغدا أنتيباتر وزيره الأول وسيطر ولداه فازيل على أورشليم وهيرودس على الجليل. كما وسّع قيصر حماية اليهود حتى طاولت الشتات اليهودي في المدن اليونانية وأعفاهم من الخدمة العسكرية. وعلى الرغم من أنَّ الرومان سوف يواصلون في المستقبل التأكيد على حرية اليهود وحمايتهم في المدن اليونانية، إلا أنّه كان هنالك توتر دائم بين اليونانيين واليهود.

حكم هيرودس الأكبر

مع اغتيال قيصر (44) وهجوم الفرثيين على آسيا الصغرى (40)، أطبقت المشكلات على يهودا من كلّ جانب. أُزيح يوحنا هرقانوس عن العرش، وقُتِل فازيل، وفرَّ هيرودس في حين أصبح ابن أخي[1] يوحنا ملكاً. وشقَّ هيرودس طريقه إلى روما حيث قابل أنطوني، وهو واحد من ضباط قيصر، وكان يحكم في حينها مع أوكتافيان (الذي سيغدو أغسطس)، وهو ابن قيصر بالتبني. وأقنع أنطوني مجلس شيوخ روما بعقد معاهدة مع هيرودس تعترف به ملكاً على يهودا. وكانت الأسرة الحشمونية من المكابيين، وهي من محتد يهودي عريق، قد أطاحت بها أسرة إدومية من المتهوّدين مؤخراً. وباستعادة أورشليم من أنتيغونيوس في العام 37، غدا هيرودس حاكماً على يهودا والسامرة دون الأراضي القريبة من مصر، إذْ ضمّتها كليوباترا. وفي الداخل، أعدم هيرودس 45 من أصل 71 عضواً في السنهدرين كانوا قد أعانوا أنتيغونيوس، كان معظمهم من الصدوقيين. وقرّر زعيما

(1) هو أنتيجونوس ابن أريستوبولوس الثاني ابن ينايوس.

السنهدرين، هِلّيل وشامّاي (وكلاهما فرّيسيان)، أن يتبنيا سياسة عدم المقاومة حيال حكم هيرودس. وفُصِل منصب رئيس الكهنة عن الحكم الدنيوي لأنّ هيرودس كان من عرقٍ وأسرةٍ لا يتيحان له أن يطمح لأن يغدو رئيساً للكهنة.

وبعد هزيمة أنطوني وكليوباترا أمام أوكتافيان في أكتيوم، أعلن هيرودس ولاءه لأوكتافيان ونال بالمقابل مناطق مملكته الحدودية التي سبق أن اقتطعها بومبي. وقتل زوجته مريامن وأمه اسكندرا (ابنة يوحنا هرقانوس الثاني) بحجّة تآمرهما المزعوم عليه.

أفضى حكم هيرودس في فلسطين أيام أغسطس (أوكتافيان سابقاً) إلى مرحلةٍ من الازدهار وجنون الارتياب في آنٍ معاً. ففي الشؤون الخارجية ارتقى هيرودس بالقضية اليهودية عبر إخلاصه لأغسطس. وعلاوةً على ذلك فقد سلك كملك صنيعة بالمعنى الحقيقي للكلمة، فأقام أبنية يونانية– رومانية مثل المسرح والمدرّج في أورشليم، وجعل من السامرة مدينة يونانية جديدة وأطلق عليها اسم سباسطة (المقابل اليوناني لأغسطس)[1]، وبنى ميناءً جديداً، هو قيصرية، كان أفضل مرفأ شهدته يهودا. كما حصّن يهودا بحصون أقامها في أريحا وهيروديوم وماكايروس ومسادة. وحسّن صورته في اليهودية بإعادته بناء الهيكل في أورشليم وبناء حصن جديد، هو حصن أنطونيا، مما أتاح لأورشليم أن تغدو قبلةً للحجيج، فتدفق اليهود إليها وإلى هيكلها الجديد من أرجاء المتوسط. وساند هيرودس سياسات أغسطس في الشرق وجرت مكافأته على ذلك. فقد نال أجزاء من سوريا الجنوبية، مما جعل بين يديه حركة الحجّ البابلي الثريّ، وغدا أخوه فيروراس والياً على البيرة، عبر نهر الأردن. وقد أعان رعاياه في أوقات المجاعة وقدّم أعطيات للمدن اليونانية في الشرق، وضمن بذلك تعيينه على رأس الألعاب الأولمبية. ولو كانت هذه الصورة هي الوحيدة المعروفة لهيرودس، لبدا لدينا ذلك الحاكم العظيم الذي جلب لشعبه السلام والازدهار.

غير أنَّ جنون الارتياب كان موجوداً أيضاً في يهودا، وكان صادراً مباشرةً عن هيرودس، الذي لم يكن يثق بعائلته، وكان يخشى أنَّ أبناءه وبقية أفراد أسرته لا ينفكّون يتآمرون على حياته وحكمه. ولذلك فقد قتل كثيراً من أفراد أسرته، الأمر الذي صدم أغسطس نفسه.

(1) أغسطس باللاتينية هو سباسطوس باليونانية.

ومما زاد هذه القضية تعقيداً محاولة هيرودس الاستيلاء على مملكة الأنباط. وهذا ما أغضب أغسطس، لأنّ هذه المملكة كانت أيضاً صنيعة روما. ولم يقتصر الأمر على عودة هيرودس من هذا الغزو بخفيّ حنين، بل توترت العلاقات مع روما أيضاً. وبغية تهدئة الإمبراطور، أرسل هيرودس مستشاره الرئيس نيكولاوس الدمشقي للدفاع عن قضيته. وقد فعل ذلك بان شَرَح أنَّ تسمية ما حصل غزواً تنطوي على مبالغة وأنّه مجرد «غارة». وعندئذ أمر هيرودس رعاياه بأن يقسموا بالولاء لأغسطس وله هو نفسه، الأمر الذي أثار ناراً عاصفةً لدى كثير من اليهود، الذين رأوا في ذلك خطوة نحو عبادة تماثيل الإمبراطور كما في المدن اليونانية. وحين رفض كثير من زعماء الفريسيين أن يضحّوا، اضطر هيرودس لأن يكتفي بتغريمهم حفظاً لماء الوجه. ومما زاد في ارتباكه أنَّ أخاه فيروراس دفع الغرامة.

ولقد انطوت التعاليم اليهودية الأخروية على مجيءِ مسيح مُنْتَظَر، الأمر الذي كان يثير خشية هيرودس، لاعتقاده أنّه الوحيد الذي ينبغي النظر إليه كمُنقذٍ لليهودية. وحين عمد بعض الفرّيسيين إلى إقناع خصيّه باغواس بأن يغدو والد المسيح المنتظر، قتله هيرودس بتهمة الخيانة. وكان هيرودس قد وضع صورة نسر على عملته ثمّ نصب الصورة ذاتها على بوابة الهيكل الأساسية. وكان النسر يُعتَبَر رمزاً لروما، وأسقط متمردون يهود هذه الصورة، فأصدر هيرودس، الذي كان يعيش أيامه الأخيرة في أريحا، أمراً بقتلهم؛ كما أمر بقتل ابنه البكر أنتيباتر. وهذه الحوادث، إلى جانبِ قصصٍ عن ذبحِ أبرياء رواها الكتبة المسيحيون (متّى 2: 16)[1] ، هي التي أضفت مزيداً من السواد على صفحة هيرودس. وبوفاته انتهت قوة يهودا وباتت مكانتها ما سيشهده زمن العهد الجديد.

فلسطين زمن الأناجيل

قسم أغسطس مملكة هيرودس بين أبنائه الثلاثة؛ فحكم أرخيلاوس على يهودا والسامرة كرئيس قوم (إثنارك)، وحكم هيرودس أنتيباس على منطقتي الجليل والبيرة المنفصلتين كرئيس رُبْع (تترارك)، وحكم فيليب على أجزاء من سوريا الجنوبية، كرئيس رُبْعٍ أيضاً.

(1) «16حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى هِيرُودُسُ أَنَّ الْمَجُوسَ سَخِرُوا بِهِ غَضِبَ جِدًّا. فَأَرْسَلَ وَقَتَلَ جَمِيعَ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ لَحْمٍ وَفِي كُلِّ تُخُومِهَا، مِنِ ابْنِ سَنَتَيْنِ فَمَا دُونُ، بِحَسَبِ الزَّمَانِ الَّذِي تَحَقَّقَهُ مِنَ الْمَجُوسِ».

وبعد 10 سنوات من الحكم المضطرب وثقيل الوطأة، اشتكى اليهود والسامريون إلى أغسطس من أرخيلاوس، فخلعه أغسطس ونفاه. وباتت يهودا عندئذٍ مقاطعة رومانية صغرى عاصمتها قيصرية الساحل. وقد حكمها أولاً والٍ ثمّ وكيلٌ من طبقة الفرسان. وبات والي سوريا مشرفاً على يهودا، إنْ لم يكن بصورة قانونية فبصورة عملية على الأقل. أما أنتيباس فحكم حتى العام 39م من طبرية في الجليل، في حين انتهى حكم فيليب، الذي كان يحكم من قيصرية فيليب، في العام 34م.

لم يكن الحكم الروماني في يهودا ذلك الحكم الهادئ. فمنذ البداية لم يفهم الرومان اليهودية. ودفعهم استيلاؤهم الأوليّ على يهودا إلى إجراء اكتتاب أو تعداد، لم يَحْظَ بالشعبية إذ رأى فيه كثيرٌ من اليهود مقدمةً لمزيدٍ من الجزية، ولعلّهم كانوا على حقّ. كما عملت الوطنية التقليدية متضافرةً مع الحماسة الدينية على دَفْعِ جماعات مثل الغيورين (الزيلوت) والسيخاري (حملة الخناجر) إلى المنابذة والشقاق. وواصل بعض الفرّيسيين، وسواهم من الأفراد، الإعلاء من شأن فكرة المسيح المُنْتَظَر. أمّا الصدوقيون فقد تعاونوا مع الرومان واحتفظوا بمنصب رئاسة الكهنة كما كانوا أيام هيرودس. ولكي يحافظ الرومان على النظام أعادوا إقامة السنهدرين.

وعندما توفي أغسطس عام 14م، حكم ابن زوجته طيباريوس الإمبراطورية الرومانية. وكان مستشاره وواليه البريتوري سيجانوس، الذي يبدو أنَّ اليهود لم يكونوا يحبونه. ولعلّه كان يخشى من أنَّ دولاً يهودية مستقلة كما هو الحال في فرثيا يمكن أن تكون مستحبّة في يهودا، مما يؤدي إلى التمرد. وفي ظلّ سيجانوس حكم الوالي بيلاطس البنطي المقاطعة (25—36)، وأبقى على قيافا، رئيس الكهنة، في منصبه طوال ولايته. وقد تورّط بيلاطس في سلسلة من الخطوات الخاطئة، التي يمكن اعتبارها مميّزة لإخفاق روما في فهم اليهود.

تعلّقت أولى هذه الخطوات الخاطئة بالرايات العسكرية التي تحمل صورة الإمبراطور. فقد جلب بيلاطس هذه الرايات إلى أورشليم، بقرب الهيكل. ورأى كثير من اليهود في هذه الرايات منحوتات تدنّس الهيكل. وبعد أيام من الاحتجاج، غير العنيف في معظمه، استسلم بيلاطس خشية العصيان والتمرد. لكنه، في خطوة خاطئة أخرى، استخدم المال الموجود في صندوق يهودي ديني لبناء قناة مائية. وحين ثارت الاحتجاجات في أورشليم،

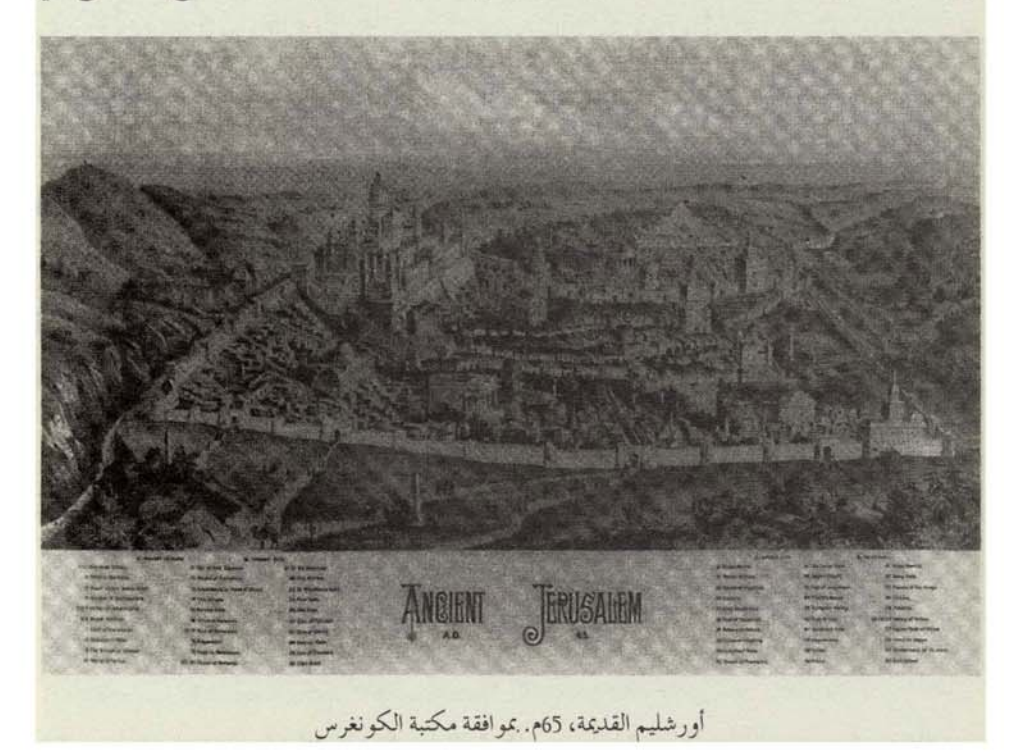
دفع بعض عملائه الرومان المتنكرين في زيّ يهودي لأن يهاجموا المحتجّين. كما أقام بيلاطس في حصن أنطونيا تروساً مُذَهَّبَةً نقش عليها اسمه واسم طيباريوس. ولعلّه فعل ذلك لكي يجد حظوة لدى الإمبراطور إذ كان صنيعة سيجانوس، الذي أُعْدِمَ عام 31. وسرعان ما نشبت الاحتجاجات، ربما على أساس نسب طيباريوس الإلهي (حيث كان أغسطس، زوج أمّه ووالده بالتبني، قد أعلن أنّه إله)، الأمر الذي كان يثير اليهود نظراً لقناعاتهم التوحيدية وتحريمهم الأوثان. وأخيراً، فقد حثَّ مسيحٌ وطنيّ مزعوم أتباعه، في السامرة، على الصعود إلى جبل جرزيم وإيجاد آنية موسى المقدّسة، وأثار ذلك خشيةً من ثورة عارمة: ذلك أنَّ هذه الآنية إذا ما وُجِدَت يمكن أن تعطي للسامرة أفضليةً على يهودا؛ وإذا لم توجد، فيمكن أن يُنْحى باللائمة على روما لتدميرها إياها. ومنع بيلاطس هذا البحث، ومارس صنوفاً من العقاب. فقد اعتقل كثيراً من رؤوس الفتنة وأَعْدَمَهُم. ولعلَّ هذا الحادث هو الذي دفع طيباريوس إلى عزله. وفي هذه الأثناء كان هيرودس أغريبا الأول، حفيد هيرودس الأكبر، يصعد سلم السلطة السياسية في يهودا. ومع وفاة فيليب وعزل هيرودس أنتيباس ونفيه، أُعطِي هيرودس أغريبا أراضيهما وجُعِلَ ملكاً.

وجاء جايوس (المعروف باسم كاليجولا) خَلَفاً لطيباريوس، الأمر الذي أدى إلى مزيد من التوترات. وكان شعب يَمَنيا على ساحل يهودا من اليونان واليهود. وأقام اليونانيون مذبحاً على شرف الإمبراطور، لكن اليهود هدموه. وهذا ما أغضب كاليجولا، فقرر أن يتبع سياسة أنطيوخوس الرابع إبيفانس في إقامة تماثيل عبادة الإمبراطور في الهيكل والمجامع. وأَمَرَ بوبليوس بترونيوس، والي سوريا، بأن يقيم في الهيكل تمثالاً ضخماً من البرونز للإمبراطور في هيئة جوبيتر، الذي كان يحسب أنه هو. لكن بترونيوس تلكّأ، وقال إنّه يحتاج فرقتين لإقامة التمثال لأنه سوف يفضي إلى التمرد. وأثناء تحرّكه جنوباً، التقى عند الحدود هيرودس أغريبا الأول، الذي أقنع كاليجولا بألاّ يمضي في تنفيذ خطته إذا ما سمح اليهود لليونانيين أن يكرّموا الإمبراطور. وبعد ذلك بفترة وجيزة اغتيل كاليجولا.

غدا عمّ كاليجولا، كلاوديوس، إمبراطور روما، وعمل بدوره على تعزيز موقع هيرودس أغريبا بتحويله يهودا إليه. فضمّت مملكته حينئذ الأراضي التي كان جدّه، هيرودس الأكبر، قد سيطر عليها. غير أنَّ هيرودس أغريبا، بخلاف هيرودس الأكبر، حظي بدعم اليهود. ويبدو أنَّ أغريبا عزم على أن يرفع شأنه وشأن يهودا في سياسات

شرق المتوسط. وخطط لعقد مؤتمر لملوك المنطقة من صنائع روما، لكن الوالي الروماني على سوريا قرر ألا يحضر. ولعلّ روما أرادت أن تبعث برسالة مفادها أنّ هؤلاء الملوك الصنائع ليسوا سوى ذلك، مجرّد صنائع لروما. وبموت هيرودس في 44م، بعد أن حكم ثلاث سنوات وحسب، عادت يهودا مرّة أخرى مقاطعة رومانية.

كان تاريخ يهودا بعد هيرودس أغريبا تاريخ عدم استقرار وعنف. وشهد الولاة الذين حكموا تصاعداً في العنف والسخط. وعملت المجازر وقطّاع الطرق والمصاعب الاقتصادية والمجاعة على دَفْع يهودا إلى مزيدٍ من الفوضى. كما عملت المشكلات الدينية الداخلية بين الطوائف اليهودية المختلفة وفَرْعٍ من اليهودية، هو المسيحية، على دفع المنطقة نحو مزيد من عدم الاستقرار. وفي العام 66 بلغت الأمور غاية التدهور حتى إنَّ إليعازر، رئيس الهيكل، ابن حنان رئيس الكهنة السابق، أعلن أنه لن يُسْمَح للغرباء بعد ذلك بأن يقدّموا الأضاحي. وكان ذلك يعني عدم السماح بتقديم الأضاحي للإمبراطور وروما، تلك الأضاحي التي كانت تشتريها روما. وكان هذا في الواقع، وكما يعلم إليعازر، ضَرْباً من التمرد. وتمثّلت النتيجة بـ«التمرد اليهودي الأول»، الذي مزّق نسيج المجتمع في



أورشليم القديمة، 65م. بموافقة مكتبة الكونغرس

يهودا. وفي 69م، استولى الإمبراطور القادم تيتوس على المدينة وأُحْرِق الهيكل، إمّا عمداً أو بالمصادفة. وبات حصار أورشليم علامة بارزة لفلسطين في القرن الأول الميلادي. ففي العام 66 نشبت الحروب وبلغت ذروتها في الحصار الذي ضربه تيتوس، ابن الإمبراطور الجديد، على المدينة واستيلائه عليها عام 70م.

في ربيع العام 69، راح فسباسيان الذي كان يخوض الحرب منذ العام 66، يتقدّم ببطء نحو أورشليم، وحين نشب نزاع مدني بين اليهود حول خوض الحرب، قرر فسباسيان أن يتجنّب مهاجمة أورشليم وتركهم يتشاجرون. وبدلاً من ذلك أَخْضَع السامرة والبيرة وإدومية، ومن ثمّ تقدّم ليحاصر أورشليم. وحين أطيح بالإمبراطور نيرون انتخب الجيش فسباسيان إمبراطوراً ليعيّن بعد ذلك ابنه تيتوس جنرالاً. وعندئذٍ تقدّم تيتوس من المدينة بجيش ضخم. وفي أبريل بدأ تيتوس حصاره، وسرعان ما نقب أسوار المدينة الواطئة. أمّا حصن أنطونيا والهيكل. المحصّنين جيداً، فقد صمدا. فحاول تيتوس عندئذٍ أن يميت اليهود من الجوع ببناء سور ترابي حول المدينة. وحين أخفق في ذلك راح يحاصر المدينة من جديد. وفي 5 يوليو سقط حصن أنطونيا وفي 10 أغسطس تمّ الاستيلاء على الهيكل. وأخيراً أُخِذَت المدينة العليا في 7 سبتمبر وجرت السيطرة على أورشليم. وأمر تيتوس بأن تُسوَّى المدينة بالأرض.

واحتفل الرومان بانتصارهم ببناء قوس تيتوس، حيث نُقِش المينوراة أو الشمعدان ذو الشعب السبع. أما آخر جيوب المقاومة فقد كُسِرَت باستيلاء فلافيوس سيلفا على حصن هيرودس الأكبر في مسادة عام 72، حيث انتحر 960 من المدافعين وعائلاتهم، ولم يبق على قيد الحياة سوى امرأتين وخمسة أطفال، وبوصول التمرد إلى نهايته، كفّت يهودا العهد الجديد عن الوجود.

حصار أورشليم كما يصفه يوسفوس

يبيّن وصف يوسفوس التالي رعب الحصار الذي ضربه تيتوس على أورشليم والوضع في داخلها
4- كان، عندئذٍ، ثمّة امرأة تقطن على الضفة المقابلة من نهر الأردن، اسمها مريم، وأبوها إليعازر، من قرية بيت هيصوب. وكانت ذات نسب ومال، وفرّت إلى أورشليم مع بقية الجمع، وحوصرت معهم هناك. وكان متاع هذه المرأة قد جرى الاستيلاء عليه من قَبْل، أعني حين أخرجته معها من البيرة ونقلته إلى المدينة. أمّا الذي كَنَزَتْهُ جانباً، والطعام الذي استطاعت أن تدّخرهُ، فأخذه أيضاً أولئك الحراس الجشعون، الذين كانوا يهرعون إلى البيت كلّ يوم لهذه الغاية. وهذا ما أغضب المرأة المسكينة أشدّ الغضب، فراحت تصبّ الشتائم واللعنات على هؤلاء الجشعين الأشرار، وتثير سخطهم عليها؛ لكنّ أحداً منهم لم يقتلها، بسبب الأَنَفَة التي أظْهَرَتْها، أو لأنهم رقّوا لحالها؛ وكانت إذا ما وجدت طعاماً، أحسّت أنّ عناءها من أجل الآخرين، لا من أجلها هي نفسها؛ إلى أن سُدَّ في وجهها كلُّ سبيل إلى القوت، فنفذت المجاعة في أحشائها ونقيّها، وتصاعد غضبها حتى تعدّى المجاعة ذاتها، وما كانت لتشاور شيئاً سوى غضبها وما كانت فيه من ضرورة. فجرّبت عندئذٍ شيئاً هو أبعد ما يكون عن الطبيعة؛ إذ نترت ولدها، الذي كان طفلاً يرضع من ثديها، وقالت: «يا طفلي البائس! لمن أبقيك في هذه الحرب، وهذه المجاعة، وهذه الفتنة؟ فإذا ما أبقى الرومان على حياتنا في هذه الحرب، لا بدّ أن نغدو عبيداً. بل إنَّ هذه المجاعة سوف تفتك بنا قبل أن نرزح تحت تلك العبودية؛ أمّا هؤلاء السفلة ممن يثيرون الفتن فأسوأ من الحرب والمجاعة. تعال؛ كُن طعامي، ولتكن غَضْبَةً على هؤلاء الأوغاد المُهَوّشين، وأحدوثة تلهج بها الدنيا، التي لا تريد سوى أن تُتِمَّ فواجعنا نحن اليهود». وما إن قالت ذلك، حتى ذبحت ولدها، ثم شَوَتْهُ، وأكلت نصفه، وأخفت النصف الآخر. وسرعان ما جاء المهوّشون، إذ تنسّموا رائحة الشواء، وهددوها بأن يذبحوها للتوّ واللحظة، إن لم تُرِهم ما أعدّت من الطعام. فأجابت قائلةً إنّها احتفظت لهم بجزء شهيّ منه، وكشفت عمّا بقي من ولدها. فجمدوا من الرعب والذهول، ووقفوا مدهوشين للمنظر، فقالت لهم: «هذا ولدي؛ وما جرى هو فعل يدي! تعالوا، كلوا هذا الطعام؛ فقد أكلت منه أنا نفسي! فلا تزعموا أنكم أرقّ من امرأةٍ، أو أحنّ من أمّ؛ أمّا إن كنتم متحرّجين كلّ هذا التحرّج، وتستنكرون أضحيتي هذه، فكما أكلتُ النصف، دعوا البقية لي أيضاً». فخرج هؤلاء الرجال يرتجفون، إذ لم يسبق لشيء أن أرعبهم مثل هذا، وتركوا بقية اللحم للأم مستصعبين. وسرعان ما سمعت المدينة بأسرها بأمر هذه الفعلة وراح الجميع ينظرون في هذه الحالة البائسة، ويرتجفون، كأن هذه الفعلة غير المسبوقة فعلتهم. ولذلك راح أولئك الذين أحاق بهم بلاء المجاعة يتوقون إلى الموت أشدّ التوق، ورأوا إلى الذين ماتوا على أنهم محظوظون، لأنّهم لم يعيشوا ليسمعوا بمثل هذا الشقاء أو يروه.

المصدر: The works of Josephus, trans, William Whiston (William Milner Cheapside, 1850), Book 6.3.4, War of the jews, pp.602.3

بولس في الشرق اليوناني

غير أنّ العهد الجديد ليس قصة فلسطين وحسب. فبعد الأناجيل، يتواصل العهد الجديد بـ أعمال الرسل، ذلك العمل الذي يبيّن انتشار المسيحية، ويلعب فيه بولس الدور الرئيس. فقد ترحّل بولس في أرجاء شرق المتوسط، وعبر آسيا الصغرى واليونان وقبرص، إلى أن ينتهي أعمال الرسل برحلة بولس إلى روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية.

ومناطق أسفار بولس كانت مناطق يونانية، وليست يهودية. ورسائل بولس وسواه من الكتّاب المسيحيين الأوائل كانت موجّهة بصورة أساسية إلى اليونانيين الذين اهتدوا إلى المسيحية. وكانت ثقافة هؤلاء مختلفة تماماً عن ثقافة فلسطين. فبخلاف منطقة تسيطر عليها ديانة توحيدية مثل اليهودية، كانت المناطق اليونانية وثنية في الأصل. وكذلك كان التاريخ السياسي مختلفاً أيضاً. ففي حين كان ملوكٌ يحكمون في كلتا الثقافتين، إلا أنَّ الشرق اليوناني كان يبجّل قادته وينظر إليهم في بعض الأحيان على أنهم آلهة. بل إنَّ الشرق اليوناني، شأنه شأن الحكم الفارسي القديم، كان يدفع السكّان المحليين إلى اعتبار قادتهم آلهةً أو بشراً فائقين. ومع مجيء الرومان وسيطرتهم على المنطقة، غدا شرق المتوسط جزءاً من الدولة الرومانية مُسْتَوْعَباً فيها.

وعلى الرغم من أنَّ الرومان كانوا جمهورية في الأصل، إلا أنهم تبنّوا في النهاية كثيراً من عادات القيادة في اليونان والشرق الأدنى. فإذا ما كان أغسطس قد حرص على ألاّ يعلن أنّه إله في الغرب، فإنَّ هنالك أدلّة تشير إلى أنّه قد ترك للثقافة اليونانية أن تتغلّب وأن ترفعه إلى مصاف الآلهة في الشرق. ولقد تركت الدولة الرومانية للمجتمعات المحلية أن تحكم نفسها كما كان الحال من قبل. وكان ذلك يعني اكتفاء روما بالسيطرة على القمة في حين تختار المجتمعات المحلية حكّامها. ذلك أنَّ روما كانت تنظر إلى هذه المجتمعات على أنها لا تزال مجتمعات يونانية وليست رومانية. وكانت هذه المجتمعات المحلية تجمّعاً لجماعات شتّى. فقد كان هنالك بعض الرومان، خاصةً في المجتمعات الكبيرة. وقد شكّل هؤلاء الرومان، المؤلَّفين من الجنود والجنود السابقين، قمّة هذه المجتمعات. وكان أكثرهم من المعمِّرين الذين جاء بهم أغسطس بعد انتصاره كي يديم سيطرته. وأدنى من هذه المستويات الرفيعة كان القادة المحليون، خلفاء النخب السابقة التي ظلّت تمسك بزمام السلطة على مدى أجيال. وكان هؤلاء في ظلّ الرومان يسيطرون على الحكومة

المحلية، التي وفّرت لهم السلطة والهيبة. وتحت هذه الجماعة كانت الطبقة الوسطى. وهذه الطبقة الوسطى، المؤلفة في الغالب من جماعات جديدة من المجتمعات المحلية، كانت قد صعدت على الأغلب من خلال الفرص الاقتصادية التي أتاحها السلام الروماني. وأخيراً، في القاع، كان ثمّة الفلاحون، الذين كان أسلافهم من الفلاحين وسوف تظلّ ذريتهم كذلك. وإضافةً إلى السكان المحليين، كان ثمّة آخرون في هذه المجتمعات: غرباء وأجانب، من بينهم يهود أخذوا يهاجرون من فلسطين.

هؤلاء اليهود الذين شكّلوا الشتات (الدياسبورا) لم يكونوا منفيين أو من السَّبي، بل أفراد هاجروا لكي يهدوا الآخرين إلى ديانتهم ويقيموا مجتمعات منفصلة خارج فلسطين. وسوف يبني هؤلاء اليهود مجامعهم الخاصة، التي غدت مركز ديانتهم. فالمجمع، كمؤسسة، هو مركز الإيمان اليهودي. وكان يتيح لليهود أن يحافظوا على هويتهم داخل المجتمع الوثني واليوناني. وكان السكان المحليون آنئذٍ منقسمين إلى جماعات منفصلة، محددة بوضوح. وحين وصل بولس إلى هذه المجتمعات وَجَدَ جماعات يهودية كانت قد عاشت في هذه المناطق على مدى أجيال.

ضمن هذا الإطار التاريخي، كان ثمة انقسام بين القرى والمدن. فالقرى كانت تميل لأن تكون محافظة أكثر، ومتمسّكةً بأنماط العيش التقليدية القديمة. أما المدن فكانت أشدّ انفتاحاً على الأفكار الجديدة نظراً لميل سكّانها إلى التفاعل مع شتّى الجماعات، مما أتاح تدفقَ المعلومات واختلاط الأفكار. وكانت المدن أدنى إلى التأثّر بالأفكار الهلنستية والرومانية. ولقد بنى هيرودس الأكبر مدينة هلنستية جديدة على شاطئ المتوسط، هي قيصرية. وغدت هذه المدينة صلة الوصل بين فلسطين وبقية العالم الروماني. وبخلاف أورشليم، التي بقيت يهودية نظراً لارتباطها الديني القديم، فإنَّ قيصرية كانت يونانية. وكان هيرودس يفضّل أن يقيم في مدن مثل قيصرية، بعكس أورشليم. وحين سيطرت روما، جعل الوالي هذه المدينة الهلنستية عاصمته لأن فيها من مرافق العيش المنعّم ما يتطلّع إليه أي روماني من الطبقة العليا. فقد كان فيها حمام وميدان ألعاب ومسرح، وغير ذلك من الأبنية اليونانية.

تراجم يوحنا الجيشالي، وتيتوس، ويوسفوس

يوحنا الجيشالي

يوحنا الجيشالي واحدٌ من قادة الحرب اليهودية وعدو شخصي ليوسفوس. فهذان الرجلان كانا يقودان الجيوش في الشمال في الجليل عند بداية التمرد. وبعد أن فُتِحَت هذه المنطقة فرَّ إلى الجنوب مع عساكره. ووصل إلى أورشليم حيث لم يلبث أن برز هناك أشدّ البروز حتى إنّه عُيِّن رئيساً للكهنة، باسم فانياس. ويزعم يوسفوس أن يوحنا راح يتصرف كما الطغاة. وأثارت أفعاله صراعاً على السلطة بين أتباعه وإليعازر بن سمعان، الذي كان على رأس الغيورين (الزيلوت). وكان يوحنا يسيطر على بلدة أورشليم الجديدة أو الدنيا في حين كان إليعازر يحتلّ الهيكل. وكان ثمة طرف ثالث، هو سمعان بار جيورا، يسيطر على البلدة القديمة أو العليا ويرى إلى نفسه على أنّه قائد حركة خلاصية. وفي فصح العام 70م سمح إليعازر بدخول أفراد إلى الهيكل لتقديم الأضاحي؛ فاستولى يوحنا وأتباعه بالسيف على المنطقة، وأجبروا رجال إليعازر على الاستسلام.

أضعف الصراع بين هؤلاء الرجال الثلاثة القوى المقاتلة في أورشليم. وكان يوحنا يعتزم ضَرْبَ فرق الرومان لكنه كان يخشى أن يحول إليعازر بينه وبين العودة إلى المدينة، فيقع في الأسر. ولذلك لم يهاجم يوحنا الرومان، الأمر الذي أتاح لهم أن يواصلوا بناء سور يحيط بالمدينة. ولم يجتمع رجال يوحنا ورجال سمعان معاً إلا بعد أن اخترق الرومان الأسوار الخارجية. وبعد خمسة أيام اخترق الرومان السور الثاني ودخلوا المدينة. لكن رجال يوحنا تمكّنوا من إحباط الهجمات الجديدة. وأدرك تيتوس أنَّ الحصار سيستغرق مزيداً من الوقت والجهد، ويكلّف مزيداً من القتلى الرومان. ولذلك غيّر أساليبه وخطّط لتجويع اليهود في أورشليم، وأمر رجاله بمواصلة هجومهم على حصن أنطونيا وبدخول القناة التي حفرها رجال يوحنا. واستولى الرومان على الحصن وبعد صراع مرير أجبروا يوحنا ورجاله على الخروج من الهيكل. وفي النهاية هُدِمَ حصن أنطونيا، وأُخِذ الهيكل، وأُحْرِق إمّا بأمرٍ من تيتوس (وهو الأرجح) أو بالمصادفة (حسب رواية يوسفوس). وبعد دخول المدينة، اختبأ يوحنا ورجاله في مصارف المياه، إلى أن استسلم بعد بضعة أيام.

يبدو أن يوحنا لم يكن ينظر إلى نفسه على أنه المسيح المنتظَر. وحين استولى تيتوس على أورشليم أُحْضِر يوحنا أمامه، وأخذه تيتوس إلى روما حيث سُجِنَ بقية حياته. وكذلك أُخِذ سمعان إلى هناك حيث أُعْدِم.

تيتوس

وُلِدَ تيتوس عام 39م، وكان إمبراطوراً من العام 79 وحتى وفاته في العام 81 واشتُهِر بحملاته على أورشليم واستيلائه عليها. وكان قد ترعرع في بلاط كلاوديوس حيث كان صديقاً لابن الإمبراطور بريتانيكوس. بدأ سيرته العسكرية في ألمانيا عام 57، وخدم في بريطانيا عام 60 خلال تمرد الملكة بوديقا. ولدى عودته إلى روما تزوج من أرّيسينا تورتولا، وفي العام 63 أنجب منها ابنته جوليا فلافيا؛ وتوفيت زوجته في العام 65 فتزوج بمارسيا فورميلا، التي طلّقها بسبب صلة عائلتها بمؤامرة

على الإمبراطور نيرون. ولم يتزوج تيتوس ثانيةً. وكان يحطّ في مصر حين اندلع التمرد اليهودي. فأخذ الفرقة الخامسة عشرة من مصر والتحق بوالده في يهودا.

بعد الحرب أقام تيتوس ألعاب الاحتفال بالنصر في قيصرية وبيروت. وتلقى التاج من الملك الفرثي بلاش الأول، ربما كعلامة خضوع من طرف الفرثيين. ثم عاد إلى روما وأقام احتفالاً بالنصر حُمِلت فيه المينوراة العظيمة في الشوارع. وفي موكب النصر كان سمعان بارجيورا، الذي أُعْدِم بعدئذ في الميدان الروماني. وفي هذه الأثناء، كانت أخت الملك أغريبا الثاني، الملكة برنيكي الكيليكية، تعيش مع تيتوس في القصر علانيةً. لكنه أبعدها حين أنكر عليه العيّابون ذلك لخشيتهم من هذه الملكة الشرقية.

لم تكن سيرة تيتوس في ظلّ أبيه تلك السيرة المذهلة. فقد كان موكلاً كرئيس للحرس بتوفير أمن أبيه. وغالباً ما انطوى ذلك على ممارسة العنف إزاء أعدائه. وبارتفاعه إلى مرتبة الإمبراطور خشي كثيرون من أنه سيغدو برذائله نيرون آخر. غير أنه حاول أن يروق للعامة ونجح في ذلك أشدّ النجاح. فقد أوقف أحكام الخيانة، ولم يضطهد مجلس الشيوخ، وتخلّص من المخبرين بأن نفاهم، وحين حاولت برنيكي أن تعود إلى حظوته أبعدها.

وقعت خلال حكم تيتوس كارثتان كبيرتان، حريقٌ في روما وانفجار بركان فيزوف، الذي أحرق بومبيي. وقد أكمل مدرّج الكوليزيوم، وبنى حماماته فوق قصر نيرون الخاص، البيت الذهبي. وفي 13 سبتمبر من العام 81 التقط واحدةً من الحُمّيات ومات.

يوسفوس

وُلد يوسفوس، ابن متّى، في العام 37 وقاتل في التمرد اليهودي بين 66—70م. وفي العام 67 وقع في الأسر ووجد حظوةً لدى فسباسيان بإعلانه أنّ هذا الأخير سوف يغدو إمبراطوراً. وحين تحقق ذلك ارتفعت مكانته. ولقد اشتهر يوسفوس بعمليه العاديات اليهودية و حروب اليهود. ويبدو أنّه كتب عمليه هذين لغرضين اثنين، هما دحض اتهامه بالخيانة والعمالة من قِبَلِ كثيرٍ من اليهود، وتبرئة فسباسيان وتيتوس. ولقد حاول يوسفوس أن يشرح اليهودية للرومان وأراد بطرائق شتّى أن يوفّق بينهم وبين اليهود.

منح فسباسيان يوسفوس المواطنة الرومانية. ولم تكن حياته الأسرية تلك الحياة الرائقة. فزوجته الأولى ووالداه ماتوا في أورشليم أثناء التمرد. وخلال الحرب أعطاه فسباسيان امرأة يهودية أسرها الرومان. غير أنَّ هذه المرأة تركته أيام حصار أورشليم. فتزوج من ثمّ يهوديةً أخرى من الإسكندرية أنجب منها ثلاثة أطفال. ثمّ طلق يوسفوس زوجته الثالثة، وتزوج زهاء العام 75 يهودية من كريت، وأنجب منها ولدين. ومن الصعب أن نعلم قصة حياته الشخصية الكاملة؛ والواضح هو أنه خلال وقت قصير، لا يعدو السنوات السبع، تزوج أربع مرات.

لم يفلح يوسفوس كقائد عسكري. وكربّ أسرة، لم تكن زيجاته تلك الزيجات الطويلة الناجحة. أمّا كمؤرّخ، فقد حقق صيتاً ذائعاً، والأهمّ من ذلك أنّه قد روى تاريخ مرحلة العهد الجديد.

الفصل الثاني

الجماعات الجغرافية المختلفة في فلسطين
وحياتها اليومية

«4 فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ».

(لوقا 2: 4)

كانت فلسطين بالنسبة إلى الرومان مقاطعةً واحدةً تفصل بين مصر وسوريا، منطقتيّ روما الأشدّ أهمية في الشرق. ذلك أنَّ سوريا كانت تحمي قلب آسيا الصغرى الثمين والسبيل إلى مصر، أرض حبوب الإمبراطورية. وكانت فلسطين، الطريق التقليدية على طول الساحل، تصل بين الاثنين. فإن لم تكن أرض فلسطين على قَدْرٍ من الغنى والثراء، فإنَّ موقعها كان كذلك.

الجليل

كانت فلسطين موطن جماعات كثيرة، كما يشهد على ذلك العهد الجديد. فقد كان هنالك اليهود بالطبع، لكن هذه الجماعة تمكن قسمتها بحسب تجمعاتها المناطقية. ففي الشمال كان ثمة الجليل، الذي تلقّى اليهودية، بالقسر في بعض الأحيان، زهاء العام 100 ق.م. وكانت البقعة صغيرة، 50 ميلاً طولاً و25 عرضاً. وما كان بارزاً في المنطقة أشدّ البروز هو بحر الجليل أو بحيرة الجليل، التي يبلغ طولها 13 ميلاً وعرضها 8 أميال، وتتوضّع في الطرف الشرقي للمنطقة. واللافت أنَّ تلك البقعة كانت الأشدّ اكتظاظاً بين الأراضي اليهودية؛ إذ يشير يوسفوس إلى أنَّ ثلاثة ملايين كانوا يعيشون في المنطقة أيام التمرد الكبير وأنَّ زهاء 240 بلدة كانت منكبّة على بناء السفن، وقطع الأخشاب، وصيد الأسماك، والتجارة حول بحر الجليل. وعلاوةً على ذلك، كانت الدروب تخترق الجليل، بخلاف يهودا، لتربط المنطقة بعوالم خارج فلسطين.

كانت هذه الدروب تصل الجليل بالمتوسط، مما أتاح للتجار والباعة أن يجلبوا البضائع من أرجاء الإمبراطورية الرومانية، في حين قامت على الساحل مصانع الخزف ومَصابغ الملابس. وكان ثمّة مَثَلٌ يهودي يقول «إن كنت تريد الغنى، فاذهب إلى الجليل». وعلاوةً على ثروة الجليل الاقتصادية، فقد برزت المنطقة بسبب وطنيتها، وغدت بؤرة العصيان. في حين لم تبرز بالتزامها الناموس اليهودي، خاصةً قواعد المأكل والمشرب، إذ شاع قول آخر مفاده أنَّ لا نبيّ من الجليل. وهذه آراء لا ننفكّ نقع عليها في العهد الجديد. وكانت التلال والجبال توفّر ملجأً للصوص والمتمردين الذين لم يكفّوا عن العمل هناك. واحتاج الأمر في النهاية رجلاً نشأ في التلال وتمرّس بها كي يهزم المتمردين المحليين، وكان ذلك الرجل هو هيرودس الأكبر، الملك المُقْبِل الذي فتك في أواسط عشرينياته بقادة العصيان بتلك القسوة التي لم تقتصر على قطع دابر الاضطراب (وهو ما سَرَّ روما) بل تعدَّتها إلى تقريعه من قِبَلِ السنهدرين في يهودا.

لقد غدا الجليل مركزاً اقتصادياً على الرغم من حرفته وصناعته المحدودتين. ويروي العهد الجديد أنَّ يوسف والد يسوع كان نجّاراً، حِرَفياً ماهراً، الأمر الذي جعله واحداً من أفراد الطبقة المتوسطة المحترمين (متّى 13: 55)[1]. وكان أتباع يسوع، بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا، صيادين في بحر الجليل يملكون سفناً خاصةً كما يبدو، مما يشير إلى أنهم لم يكونوا مجرّد عمّال (متّى 4: 18—22)[2]. وغالباً ما تشير أمثال يسوع إلى أصحاب مهن كالخزّافين والزّارعين والكرّامين والباعة. ولا بدّ أنّه كان على ألفة بهذه المهن التي لابدّ من أنها كانت شائعةً بما يكفي لأن يعرفها جمهوره ويكوّن صورة عنها في ذهنه حين يُروى المَثَل. ولذلك ينبغي النظر إلى الجليل على أنّه كان يمتلك قوةً عاملةً متنوعةً، الأمر الذي وراء تنوّع الاقتصاد في تلك المنطقة.

وكان الجليليون من الناحية الإثنية كبقية سكّان يهودا، أما من الناحية التاريخية فكانوا متعددي الآلهة. فالآشوريون كانوا قد فتحوا المنطقة بقيادة تغلات بيلصر الثالث (في

(1) «55أَلَيْسَ هذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟».

(2) « 18وَإِذْ كَانَ يَسُوعُ مَاشِيًا عِنْدَ بَحْرِ الْجَلِيلِ أَبْصَرَ أَخَوَيْنِ: سِمْعَانَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ بُطْرُسُ، وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. 19فَقَالَ لَهُمَا:«هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا صَيَّادَيِ النَّاسِ». 20فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا الشِّبَاكَ وَتَبِعَاهُ. 21ثُمَّ اجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ فَرَأَى أَخَوَيْنِ آخَرَيْنِ: يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، فِي السَّفِينَةِ مَعَ زَبْدِي أَبِيهِمَا يُصْلِحَانِ شِبَاكَهُمَا، فَدَعَاهُمَا. 22فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا السَّفِينَةَ وَأَبَاهُمَا وَتَبِعَاهُ».

أربعينيات القرن الثامن ق.م) وجلبوا إليها خليطاً واسعاً من السكّان. وبعد فتح الإسكندر المقدوني (333ق.م) تَهَلْيَنَت المنطقة أكثر من الجنوب. ولم يكن الفرّيسيون يعتبرون تحول الجليليين إلى اليهودية صحيحاً لأنّه فُرِضَ عليهم فَرْضاً في عهد يوحنا هرقانوس الأول. ولذلك كان السكّان زمن يسوع خليطاً من اليهود والوثنيين، ربما بنسبٍ متساوية. وهذا ما يمكن أن يفسّر جزئياً تلك العداوة بين قادتهم ويسوع. ومع أنّ الجليليين ربما كانوا مثل سكّان يهودا من معظم النواحي، إلا أنّه كان يُنْظَر إليهم على أنهم خارجيين ويُستَهان بهم، لتخلفهم في اللاهوت، وانتهاكم قواعد المأكل والمَشرب، وعدم امتداد إرثهم إلى هيكل سليمان. غير أنَّ الجليل كان حاسماً بالنسبة إلى الحياة اليومية التي يشير إليها العهد الجديد لأنّه كان مُقَامَ يسوع.

وفي حين أنّه محلّ شكّ أن يكون يسوع قد وُلِدَ في بيت لحم في يهودا، إذ يُرَجَّح أن يكون قد وُلِدَ في الناصرة أو بقربها، فإنَّ الأناجيل تشير بوضوح إلى أنه قضى معظم حياته في المنطقة الشمالية. ففي الأناجيل أنَّ يسوع أمضى معظم حياته يكرز في الجليل، ولم ينتقل برسالته إلى يهودا إلا في الأشهر الأخيرة. لكن كرازته في الجليل كانت مقتصرةً على أصغر البلدات. وعلى سبيل المثال، فإنَّ يسوعاً كان يتحاشى طبرية، عاصمة هيرودس أنتيباس؛ ولعلّه كان يرغب في أن يتجنّب هيرودس وبِلاطه، خاصةً بعد أن قتل هذا الأخير يوحنا المعمدان. والبلدان الرئيسة التي تذكرها الأناجيل هي الناصرة وقانا وكفرناحوم وطبرية، التي يُشَار إلى أنّها عاصمة هيرودس. ويقع الجليل عند تقاطع الدروب إلى كلٍّ من الشرق والغرب. والطرق التي تجتاز الجليل لا تربطه بكلتا المنطقتين جغرافياً وحسب، بل ثقافياً أيضاً. فإلى الشرق تقع مملكة فرثيا الشرقية، التي تربطها صلاتٌ بالثقافات القديمة، الفارسية والبابلية والآشورية واليونانية. وإلى الغرب تقع اليونان وروما بما لهما من تقاليد. ولقد تلقّى الجليل الواقع في الوسط كلتا الثقافتين في الوقت الذي كان يتلقى من الجنوب، من يهودا اليهودية، طابعه الديني والإثني والتاريخي الأساس.

وكانت دمشق واحدةً من المدن الرئيسة الداخلية، التي ربطت كلتى المنطقتين من خلال طُرق القوافل القديمة، تلك الطرق التي جعلت فلسطين على صلة بالقبائل البدوية في الجزيرة العربية. وهي صلةٌ أضافت المزيد إلى التفاعل الثقافي الذي كان جارياً في المنطقة. واختلاط الثقافات هذا سوف يصوغ القرن الأول ق.م والمراحل الميلادية

اللاحقة ليس ثقافياً وحسب، بل اقتصادياً وسياسياً ودينياً أيضاً. وعلى سبيل المثال، فقد أتت من الشرق أفكار المثنويّة التي نجدها في الديانة الفارسية القديمة. وهذه المثنوية طرحت الصراع بين الخير والشرّ. ومن الشرق، واليونان، والغرب، ومصر، جاءت النظرة الدينية الهلنستية الخاصة بالنشور. وقد أثّر كلٌّ من نشور ديونيزيوس وديميتر، من اليونان، ونشور الإله أوزيريس المُتَهَلْين، من مصر، في الإيمان بقيامة الجسد. ومع أسلوب الحياة البدوي والقوافل عابرة الصحارى باتت هذه الأفكار على اتصال وأفسحت المجال أمام اختلاط العقائد.

منطقة عبر الأردن

إلى الشرق من الجليل تقع مملكة فيليب أخي هيرودس أنتيباس. وفيليب هو ابن هيرودس الأكبر وكليوباترا الأورشليمية وزوج سالومي، ابنة هيروديااس. وكان رئيس رُبْع (تتراركا) على منطقة إِيطُورِيَّة، وبَتانيا، وتَرَاخُونيتس، وأورانيتس، وجولانيتيس، وبانياس. ولقد بنى فيليب مدينة قيصريّة فيليبي. واحتوت منطقته، بالمثل، عدداً كبيراً من الوثنيين ربما كان يشكّل الأغلبية. كما احتوت عدداً كبيراً من السكّان اليونانيين أوالمتهلينين. وكان في هذه المنطقة نفوذ يوناني كثيف ناجم عن المستعمرات التي أقيمت بعد فتح الإسكندر العظيم. ولعلّ هذه المنطقة كانت أشدّ تَهَلْيُناً من بقية المناطق. وكانت المهن فيها مماثلةً لما في الجليل، إنما مع قَدْرٍ أكبر قليلاً من النفوذ التجاري الناجم عن البلدات اليونانية. وكان هؤلاء السكّان يتحدّرون من المستوطنين المقدونيين الذين أقاموا مدناً تماثل المدن اليونانية. وهذه المنطقة، التي لم تتأثر باليهود كثيراً، كانت من نواحٍ كثيرةٍ ملجأً للمنشقّين الفارّين من حكم هيرودس أنتيباس. وكان فيليب لا يني يتطلّع إلى طرائق تربك أخاه لا بتوفير الملاذ الآمن فحسب، بل بدعم الحركات الدينية التي تتحدى هيرودس أيضاً.

وبعد قَتْل يوحنا المعمدان، ترك يسوع الجليل ورحل بالسفينة إلى بيت صيدا حيث واصل كرازته (مرقس 6: 45)[1]. وكما في الجليل، تحاشى يسوع البلدات الكبيرة في منطقة فيليب لأنها كانت وثنية بشكلٍ غالب. والواضح في كرازة يسوع في الجليل وفي منطقة فيليب هو أنه كان يميل لأن يصل إلى سكّان البلدات الريفية أو البلدات الصغيرة المهمة

(1) «45وَلِلْوَقْتِ أَلْزَمَ تَلاَمِيذَهُ أَنْ يَدْخُلُوا السَّفِينَةَ وَيَسْبِقُوا إِلَى الْعَبْرِ، إِلَى بَيْتِ صَيْدَا، حَتَّى يَكُونَ قَدْ صَرَفَ الْجَمْعَ».

على الأقلّ، حيث يغلب اليهود، ويتحاشى عامداً تلك البلدات الوثنية الكوسموبوليتية الكبيرة، لما يمكن أن ينشأ من مشكلات مع السلطات هناك فتحاول أن تحتجزه. فمن دون أتباع كُثُر، ومع أولئك الذين اجتذبهم من المناطق الريفية بصورة أساسية، كان يسوع، مثل يوحنا من قبله، في ضيقةٍ لأن يبقى حرّاً. وكان من مصلحته إلى أبعد الحدود أن يتجنب تلك البقاع. وكان الصراع السياسي بين خليفتي هيرودس الأكبر قد وفّر شيئاً من الحماية لمختلف الجماعات المنشقّة في كلِّ جانب. وامتدَّ الاختلاف بين المنطقتين ليطاول أيضاً نظرتيهما إلى الدين. فهيرودس أنتيباس، الذي كان يحكم أرضاً يهودية في غالبيتها، كان عليه أن يحرص على عدم إثارة السكّان المحليين بتصوره أن يحكم مثل أبيه، كمستبدّ شرقي. وذلك في الوقت الذي لم يكن بمقدوره أن يحكم مثل حاكم يوناني. أمّا أخوه فكان لديه بعض الفسحة لأن معظم منطقته كان وثنياً وشديد التأثّر باليونانيين. ولقد ساد في المنطقتين مفهوم الاقتصاد الروماني-اليوناني. فهذه المنطقة التي كانت تعتمد على التبادل التجاري، كانت تستورد البضائع وتصدّرها من مناطق شرق المتوسط جميعها وإليها. وكانت هذه البضائع، وأكثرها من سلع الرفاهية، تجد طريقها في أنحاء المجتمع.

السامرة

تقع السامرة إلى الجنوب من الجليل، وهذا البلد الذي اشتُهِر بخنازيره البرّيّة وأيائله، وسواها من الحيوان، كان يشكّل صلة الوصل بين الجليل ويهودا. وهنا، كان السكان على صلة وثيقة باليهود في يهودا لكنهم كانوا يدّعون تأويلاً آخر لموسى والتوراة. وكانت الخلافات بين اليهود في يهودا والسامرة خلافات دينية وسياسية. وحين فتح الآشوريون بقيادة سرجون الثاني السامرة في العام 722 ق.م واستولى نبوخذ نصّر البابلي على أورشليم في العام 587 ق.م، عانت المنطقتان كلتاهما صنوف السبي والإبعاد. وكان سكان كلّ واحدة من المنطقتين قد طوّروا سلطتهم الدينية والسياسية والاقتصادية الخاصة. وسوف يزعم اليهود لاحقاً أنّ السامرة مأهولة بالغرباء، لكن معظم السكان كانوا ذريّة أبناء مملكة إسرائيل الشمالية القديمة الأوائل. وقد تمسّك هؤلاء السكّان بأفكار المملكة الشمالية الدينية والسياسية، خاصةً تلك الأفكار السابقة على الأنبياء والتي تدافع عن تصورات دينية خاصة بالمنطقة. ومن ذلك فكرة أنَّ جبل جرزيم أشدّ أهمية من أورشليم. لكنَّ

الوضع تغيّر حين سمحت القوة الفارسية الجديدة بقيادة قورش لليهود في بابل أن يعودوا إلى يهودا. ولعلَّ السامريين خشوا من إحياء الدولة اليهودية في الجنوب وراحوا يفاوضون أورشليم ليحولوا دون إعادة بناء سورها، إذ كانوا يخافون من أنَّ يهودا قوية يمكن أن تدفع الفرس إلى إعادة النظر في سياستهم وإجبار المنطقة على الخضوع.

وبعد فتح الإسكندر تنكّر السامريون لنفوذ أورشليم الديني، وأعلنوا أنّهم ذرية شريعة موسى الحقّة، وانّ الموضع المقدّس القديم على جبل جرزيم هو مركز اليهودية الحقّ وليس مدينة أورشليم اللاحقة (التي لم تَغْدُ مركزاً إلا منذ داود)، وأنَّ البنتاتوك[1] ، المكتوب بالعبرية وليس الآرامية (اللغة التي اتخذها اللاجئون البابليون) هو المرجع الموثوق. ويمكن النظر إلى الديانة السامرية، التي تؤكد على البنتاتوك وسفر يشوع على أنها طائفة محافظة ضمن اليهودية. لكن السامريين، الذين لم يصرّوا قطّ على استقلالهم السياسي وسلطتهم، وغالباً ما كانوا محاطين بدول أقوى، يهودية ووثنية على السواء، كانوا يتلقون تأثيرات من كلٍّ من اليهود وغير اليهود. وحين ضعفت الدولة اليهودية أنكر السامريون إرثهم اليهودي وسعوا إلى مزيد من التحالف مع الصيدونيين لتحدّرهم من أصل كنعاني—فينيقي. أمّا تعاون السامريين مع أنطيوخوس إبيفانس وتكريسهم هيكلهم في جرزيم للإله اليوناني زيوس، ولو مؤقتاً، فقد دفع اليهود إلى اعتبارهم خونة، وغير يهود، أو مارقين.

وحين أحيت الدولة اليهودية إرثها بعد أنطيوخوس، راحت السامرة تتلقى تأثيراً مباشراً من الجنوب. وفي النهاية هدم يوحنا هرقانوس الهيكل البديل على جبل جرزيم. وفي مرحلة العهد الجديد كان اليهود ينظرون إلى السامريين على أنهم لا يكادون أن يكونوا يهوداً. وإذا ما كان هيرودس الأكبر قد حكم السامرة بشيء من النجاح فذلك لأنه لم يكن هو أيضاً ذلك اليهودي الأمثل. فهيرودس من منطقة لم تتحول إلى اليهودية إلا مؤخّراً، وبصورة قَسْريّة في بعض الأحيان، ولذلك كانت له ألفةٌ بالسامرة تفوق ألفة أسلافه اليهود. أمّا السامريون من جهتهم، وبخلاف اليهود، فلم ينظر أكثرهم إلى هيرودس نظرة ازدراء.

وسوف يبني هيرودس الأكبر قصراً في مدينة السامرة، التي أعيدت تسميتها سباسطة (على اسم أغسطس باليونانية)، وكانت يونانية أكثر منها سامرية. ذلك لأنَّ بومبي كان

(1) أسفار موسى الخمسة، التكوين، الخروج، اللاويين، العدد ، التثنية.

قد أعاد بناء المدينة، وأضفى عليها هيرودس مزيداً من الروعة بالأبراج والأسوار. وبعد وفاة هيرودس قسى ابنه أرخيلاوس على السامريين، في حين غالباً ما كان هؤلاء في ظلّ الرومان على نزاع مع الحكومة المركزية. أمّا بيلاطس البنطي فقد ذبح السامريين الذين حاولوا السيطرة على جبل جرزيم؛ وكان احتجاجهم على والي سوريا سبب استدعائه إلى روما.

ونظرة كتّاب العهد الجديد وقرّائه إلى سكان السامرة هي نظرة ازدراء في الأساس. فعلى الرغم من أنهم قد يكونون مثل سكّان يهودا من الناحية الإثنية، إلا أنَّ النظرة إليهم كانت صريحةً أنّهم أدنى وليسوا يهوداً (لوقا 9: 51–56)[1] وقد حدّ يسوع من ذهاب تلاميذه إلى السامرة على أسس دينية. وكان أعداؤه يدعونه بالسامريّ، في محاولة للحطّ من شأنه (يوحنا 8: 48)[2]. أما السامريون من طرفهم فلم يتوانوا عن إقلاق السلطات اليهودية، خاصةً في ما يخصّ الأضحيات في هيكل أورشليم أو في ما يخصّ التقويم الديني الصادر عن أورشليم. وعلى سبيل المثال، فقد حاولوا مرّة تدنيس الحَرَم بإلقاء عظام في الهيكل، وفي مرّة أخرى أضاؤوا منارات (وهذه ممارسة كانت شائعة في القديم لإرسال رسالة) لكي يعلنوا للشتات على نحوٍ مضلِّل بداية الشهر الجديد وفقاً لتقويمٍ زمنيٍّ مختلف عن ذلك الذي حددته السلطات في أورشليم. وتَرِدُ في واحدٍ من نصوصهم قصة ما فعله شابان سامريان بحاجّ يهودي، إذ استبدلوا بالحمام المخصّص للأضحية في الهيكل فئراناً، فلم يكتشف ذلك إلا بعد وصوله إلى أورشليم وانطلاقها (لا ندري كيف) لتقويض الهيكل. ومع أنَّ كتّاب العهد الجديد لم يكونوا من اليهود جميعاً، إلا أنّ الانحياز العام ضد السامريين باقٍ على حاله لديهم جميعاً. ولعلَّ هذا الانحياز أن يكون ناجماً عن أتباع يسوع الأوائل، وكذلك عن بولس، الذين كانوا يكنّون عداءً طبيعياً للسامريين. وكانت هذه المنطقة بعد قيام الدولة اليهودية المستقلة في القرن الثاني ق.م قد عملت كوقاء دارئ بين اليونانيين السوريين في الشمال ويهود يهودا في الجنوب. وهذا

(1) «51وَحِينَ تَمَّتِ الأَيَّامُ لارْتِفَاعِهِ ثَبَّتَ وَجْهَهُ لِيَنْطَلِقَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، 52وَأَرْسَلَ أَمَامَ وَجْهِهِ رُسُلاً، فَذَهَبُوا وَدَخَلُوا قَرْيَةً لِلسَّامِرِيِّينَ حَتَّى يُعِدُّوا لَهُ. 53فَلَمْ يَقْبَلُوهُ لأَنَّ وَجْهَهُ كَانَ مُتَّجِهًا نَحْوَ أُورُشَلِيمَ. 54فَلَمَّا رَأَى ذلِكَ تِلْمِيذَاهُ يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا، قَالاَ: «يَارَبُّ، أَتُرِيدُ أَنْ نَقُولَ أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُفْنِيَهُمْ، كَمَا فَعَلَ إِيلِيَّا أَيْضًا؟» 55فَالْتَفَتَ وَانْتَهَرَهُمَا وَقَالَ: «لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مِنْ أَيِّ رُوحٍ أَنْتُمَا! 56لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُهْلِكَ أَنْفُسَ النَّاسِ، بَلْ لِيُخَلِّصَ». فَمَضَوْا إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى».

(2) «48فَأَجَاب الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا: إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟»».

الوضع الدارئ أتاح لليهود أن يتلقوا دَفْقَ الأفكار اليونانية دون اتصال مباشر مع الأراضي الوثنية الصرف. وعلى الرغم من النظر إلى السامريين بازدراء، فقد وفّروا صلاتٍ ثقافيةٍ واقتصاديةٍ مهمة.

وكانت المهن في منطقة السامرة مماثلة لما في المناطق الأخرى. ولابد من أنّ الزراعة كانت تشكّل معظم المَعَاش والقوة العاملة. والعنصر الزراعي الذي نجده في جميع المناطق هو تربية الأغنام. فقد كانت الأغنام، والماعز بدرجة أقل، تلك السلع المهمة التي توفّر لسكان المنطقة المأكل والملبس. وإلى الجنوب من السامرة ثمة منطقة يهودا، قلب اليهودية التقليدي.

يهودا

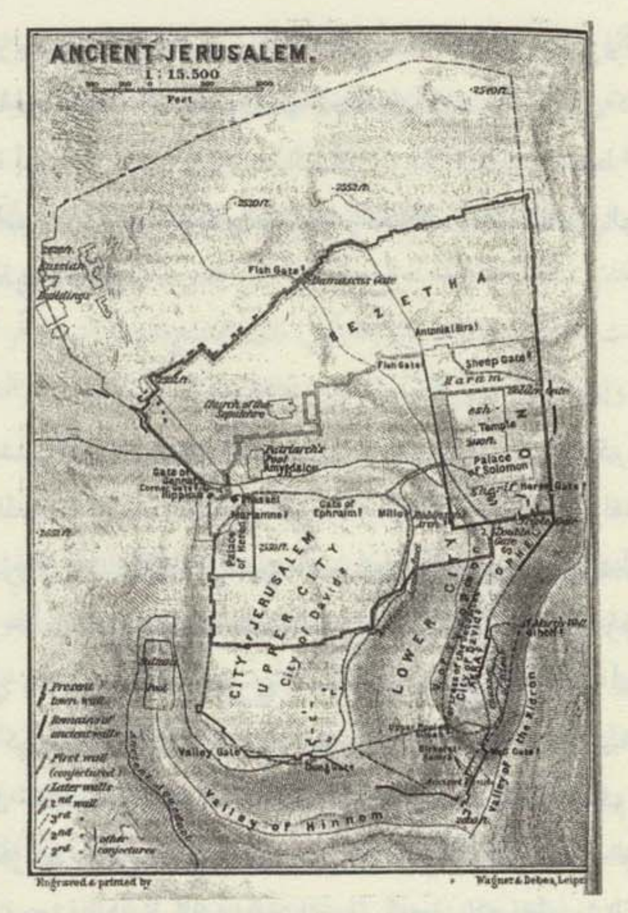
ساد لدى اليهود في يهودا زَعْمُ أنهم يتحدّرون من مملكة داود. وهذا ليس صحيحاً إلا بصورة جزئية، لأنَّ السكّان لم يكونوا متجانسين حتى هنا. ففي أيام داود كان ثمة مرتزقة غدوا جزءاً من المجتمع، مثل أوريا الحثّي. وفي أيام سليمان وخلفائه كان ثمّة استيعاب متواصل لأفراد من إثنيات أخرى. وبعد سقوط أورشليم في العام 587 أُخِذَ بعض السكّان، وهم أغلبية النخب السياسية والاجتماعية، إلى بابل حيث قضوا في الأسر ما يزيد على خمسين عاماً قبل أن يعودوا. ولعلّ بعضهم قد تزوجوا من المجتمع المحلي. وحين عادت ذرّيتهم لعلّها جلبت بعض المهتدين الجدد وأفراد العائلة، حيث اختلط هؤلاء عندئذٍ مع بقية الذين لم يؤخذوا إلى بابل. ولعلَّ هذه البقية ذاتها كانت قد تلقّت دَفْقاً من العناصر الجديدة، من خارج يهودا، أي من البابليين والمصريين والآشوريين والفينيقيين.

ولعلَّ منطقة يهودا كانت أشدّ استقراراً من السامرة أو إدومية. وعلى الرغم من كون الزراعة القوة الاقتصادية المسيطرة، إلا أنَّ الفرص التجارية كانت قائمة على الدوام. وإحدى هذه الفرص كانت فرصة يهودية صريحة تتمثّل في أعمال الهيكل. فلم يكن الهيكل مجرّد موضع دينيّ، بل كان مركز اليهودية الفلسفي والديني. وهنا كان الاحتفال الديني يوفّر فرصةً لتفاعل اليهود جميعاً بل وغير اليهود. وعلى الصعيد الاقتصادي كان على جميع اليهود أن يقدّموا مدفوعات للهيكل، هي ما يُدعى جزية الهيكل، التي كانت إعالة صيانته. وعلاوةً على ذلك، كان غير اليهود، وخاصة الإمبراطور الروماني، يقدّمون أموالاً كي تُقَدَّم بها الأضحيات باسمه ومن أجل سلامته. أيّ أنَّ هذه الأضحيات لم تكن

تُقَدَّم للإمبراطور بل من أجل سلامته. وزيادةً على هذا، كان على الذين يرغبون في تقديم الأضحيات، كالحمام مثلاً، أن يدفعوا ثمنها بعملة الهيكل، الأمر الذي كان يعني تحويل العملة الرومانية أو عملة المدينة إلى عملة الهيكل. وهذا التعامل البسيط كان يوفّر مِهناً عديدة: باعة الحيوانات واللحامون والصيارفة والكهنة. وكان اقتصاد الهيكل ذا أهمية كبرى بالنسبة لمدينة أورشليم.

أورشليم

كانت لأورشليم أهمية قيادية في اقتصاد يهودا ومجتمعها، كونها أكبر مدن فلسطين وأهمّها. فهذه المدينة كانت تسلك على أنّها مركز اليهودية السياسي. ولقد قام هيرودس الأكبر ببناء حصنٍ إلى جانب الهيكل، هو حصن أنطونيا، على اسم مارك أنطوني، لم يكن يحمي المدينة وحسب، بل كان يتيح لهيرودس أن «يراقب» الهيكل. وفي هذا الحصن استجوب الوالي بيلاطس البنطي يسوع وحكم عليه. وبنى هيرودس أيضاً قصراً قريباً كان يستخدمه كمركز لسلطته. ونجد في العهد الجديد أنَّ هيرودس أنتيباس كان يشغل هذا القصر حين مقابلته مع يسوع بعد أن حوَّل له بيلاطس حقّ الحكم عليه. وكانت المدينة أيضاً مركز يهودا الاقتصادي. فهنا كان التجار يتفاوضون على البضائع الداخلة إلى المنطقة والخارجة منها، إذ كانت البضائع من أرجاء الإمبراطورية الرومانية جميعاً تُباع وتُشرى وتوفّر صلةً مهمة مع خارج يهودا. وأخيراً، كانت المدينة المركز الاجتماعي للمنطقة كلها. وكان بمقدور نخبها، خاصةً الصدوقيين الذين سيطروا على الهيكل، أن يفرضوا نفوذهم على اليهوديّة بأسرها. وبقيت أورشليم مركز سلطة اليهودية حتى هزيمة بار كوخبا أثناء حكم هادريان. وكانت يهودا بالنسبة لروما أهمّ مقاطعة في الشرق. فعلى الرغم من نظرة روما إلى اليهود أنّهم مشاكسون ومثيرون للقلاقل، إلا أنَّ هذه المقاطعة كانت أساسية للسيطرة على الطريق بين ولاية سوريا في الشرق ومصر في الغرب. وهاتان المنطقتان كانتا أساسيتين لبقاء روما العسكري والاقتصادي. ولقد انضافت الديانة اليهودية إلى هذا الخليط. فنظراً لاحتياج الرومان إلى المنطقة، كان لابدّ لهم من أن يتفاعلوا مع اليهود ذلك التفاعل المتواصل. وهذا التفاعل المتواصل كان يؤدي إلى نزاع متواصل. وهذه النزاعات كانت توقظ حَمِيَّات شديدة لأنه لم يكن ثمة منطقة وسطى مشتركة.



خريطة أورشليم القديمة. من كتاب:

Palestine and Syria: Handbook for Travellers by Karl Baedeker، 5th ed.، 1912.

University of Texas Libraries (فلسطين وسوريا: دليل المسافرين لكارل بيديكر، الطبعة الخامسة، 1912، مكتبة جامعة تكساس).

إدوم

إلى الجنوب من اليهودية، كان ثمة منطقة أخرى اهتدت إلى اليهودية مؤخّراً هي إدومية، الاسم اليوناني المقابل لإدوم، وهي المكان الذي أتت منه عائلة هيرودس الأكبر. وكانت هذه المنطقة تمتد من البحر الميت باتجاه الجنوب الشرقي إلى خليج العقبة. وقد ظلّت في منأى عن الاحتلال حتى القرن الثالث عشر ق.م، حين احتلتها قبيلة سامية ذات صلة إثنية بالعبرانيين. وفتح داود هذه المنطقة. وبعد فتح الإسكندر سيطر عليها العرب

الأنباط، الذين أقاموا مملكة إدومية العربية من موآب إلى الخليج وكانت البتراء عاصمتها. ولقد اغتبط الإدوميون لخراب أورشليم عام 587 ق.م، وذَكَر كثيرٌ من الأنبياء ما كان من عداء بين إدوم ويهودا. وبعد حروب المكابيين، هاجمتها يهودا، ولم تُخْضِع شعبها سياسياً وحسب بل دينياً أيضاً، حيث فرضت عليهم إما التحول إلى اليهودية أو النفي. وكانت هذه أول مرّة يُجْبِر فيها اليهودُ جماعةً على تغيير دينهم والدخول في اليهودية. واعترف الإدوميون بعيسى، أخي إسحق، على أنّه جدّهم الأعلى. لكنهم بقوا وثنيين، وحين فُرِضَت عليهم اليهودية آمن كثير منهم، إنْ لم يكن معظمهم، إيماناً لفظياً وحسب. وسرعان ما انقلب إذلالهم مع صعود هيرودس، الذي كان ابن إدومي (تحول إلى اليهودية حديثاً) وأميرة عربية (وثنية)، وكانت سلالته وربما تطلعاته تجعله وثنياً (وكوسموبوليتياً) أكثر منه يهودياً. غير أنَّ هذه المنطقة كانت يهودية بما يكفي لأن ترسل إلى أورشليم في التمرد اليهودي الكبير عام 66م عدداً كبيراً من الجنود، حوالي 20000. وقد زحف فسباسيان على المنطقة وأخذ بلدتين، هما بيتوبرِس وكفرطوبا، وقتل، وفقاً ليوسفوس، 10 آلاف من السكان. وكان في هذه المنطقة أيضاً أن احتلّ المتمردون حصن مسادة العظيم إلى حين دماره في العام 73م على يد الجنرال سيلفا؛ فقبل قرنين من ذلك الوقت كانت إدومية وثنية تماماً، أمّا الآن فكانت آخر معاقل التمرد اليهودي. ولذلك لا بدّ من اعتبار إدومية منطقة يهودية من حيث الحياة اليومية زمن العهد الجديد.

وكان يُنْظَر إلى منطقة أدومية على أنّها منطقة بدوية، حيث انخرط معظم سكّانها في حياة الرعي. وكان كثير من السكّان، خاصةً قبل فتح يهودا لها، من البدو الرّحل الذين يتنقلون عبر الصحارى إلى شبه الجزيرة العربية ومصر. وكانت هذه الأرض قاسية ليس فيها سوى قلّة قليلة من مواضع الاستقرار. أمّا شعبها فكان يتطلّع إلى الجنوب والغرب بعيداً عن يهودا أكثر مما يتطلّع إلى المتوسط والدولة اليهودية. وقد سيطر الأنباط على طُرِق القوافل التي تصل الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية ومصر وسوريا. وكانوا يسيطرون على مدينة دمشق بعد العام 37م، حين تحوّل بولس إلى اليهودية وكان عليه أن يفرّ بإنزاله من السور بتدليته في سَلٍّ. غير أنَّ هذه المنطقة وفّرت بعض الصلة مع حضارات أخرى غير الرومانية/اليونانية. فكانت تصل المنطقة بضائع من شبه الجزيرة العربية والهند، خاصةً التوابل. وقد أدّت هذه الكماليات إلى تدفق العملة الذهبية من الإمبراطورية الرومانية.

ويعلّق الكاتب الروماني بليني الكبير أنَّ تدفّق الذهب من الإمبراطورية إلى الشرق كان بمثابة استنزاف للاقتصاد. لكن هذا الرأي ليس بالصائب تماماً، لأن الرومان كانوا يتلقون لقاءها السلع الكمالية. وعلى أية حال، فإنَّ هذه التجارة لم تكن تنفع المقيم العادي، لأن وجهة البضائع كانت إلى روما.

فينيقية وسوريا

اشتملت منطقة فلسطين الساحلية على المدن الفينيقية العظيمة صور، وصيدون، وبيبلوس. وهذه المدن، السامية من الناحية الإثنية، كانت تتطلع تقليدياً إلى البحر والتجارة التي يجلبها وليس إلى البرّ. ويشير العهد الجديد إلى صلةٍ ليسوع بالمدن الساحلية، وإلى أنَّ تلامذته قد زاروا هذه المدن من ضمن نشاطهم التبشيري الأول. وكانت هذه المدن مدناً كوسموبوليتية، نظراً لتدفّق اليونان بعد فتح الإسكندر الكبير. وهو تدفّقٌ جَلَبَ معه الهلنستية، سواء إلى هنا أم إلى مدن أخرى. وكانت المنطقة مفتوحة لتبادل البضائع والأفكار مع أرجاء المتوسط. وكان للأفكار اليونانية أن تؤثّر ليس في السكان الوثنيين وحسب بل بالمقيمين اليهود أيضاً، الأمر الذي أفسح المجال لقيام مفاهيم ثقافية ودينية واجتماعية جديدة.

أما أبعد من ذلك إلى الشمال فكانت سوريا. وتتألف سوريا من سلسلة من الأشرطة الشمالية–الجنوبية الخصبة الموازية للساحل. والسهل الساحلي سهل ضيق في الشمال، محاط بالبحر وجبال لبنان، يتّسع في فلسطين ليضمّ نجديّ يهودا والسامرة، ويحوي موانئ غزة وأنطاكية وصور وصيدا الاستراتيجية. وكانت أنطاكية المدينة الأهمّ، ذلك أنها كانت تسيطر على الطريق إلى الفرات وإلى آسيا الصغرى سواء من خليج إسكندرونة أو عبر جبال الأمانوس عن طريق ممر بيلان. وكان السوريون عبارة عن تجمّع جماعات إثنية مختلفة. فقد عرفت هذه المنطقة في الألفية السابقة كلاً من الحثيين والآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان مع أنَّ معظم سكّانها ربما كانوا من الآشوريين. وهذه المنطقة، الوثنية، كانت تقليدياً نقطة الانطلاق لغزو فلسطين. وفي زمن العهد الجديد كانت سوريا الولاية الرومانية الرئيسة التي لم تكن تحمي فلسطين وحسب بل آسيا الصغرى أيضاً من الفرثيين والفرس. وكانت أنطاكية المدينة الرئيسة، وهي مدينة يونانية، زارها كلٌّ من

بطرس وبولس، وهدوا فيها كثيرين. ومن أنطاكية سافر بولس إلى آسيا الصغرى واليونان. وكان في هذه المناطق جماعات يهودية لكن غالبية السكان كانت يونانية.

ولم يكن اليونان في هذه المناطق من ذرية أتباع الإسكندر وحسب، بل من واصلين أسبق بكثير. فخلال القرن الثامن ق.م حصلت حركة هجرة واستعمار عظيمة من اليونان. وهؤلاء المعمّرون، الذين استوطنوا الساحل بصورة أساسية، أقاموا مدناً تنافس كثيراً من مدن اليونان ذاتها: مثل أفسس، وميليتس، ورودس. وإضافة إلى اليونانيين، فقد شهدت آسيا الصغرى غزو الغاليين من الشمال في القرن الثالث ق.م وكانت ذريّة هؤلاء، التي استوطنت في المنطقة الشمالية، هي أهل غلاطية، الذين كتب لهم بولس رسالته.

آسيا الصغرى وتاريخها

كانت آسيا الصغرى مجموعة من الأراضي القديمة التي مضى على وجودها ما يقارب الألفيّة من السنين. وبعد وصول الجماعات البدوية حوالي العام 1000 ق.م خُرِّبَ نسيج سكّان شرق المتوسط القدماء. فقد قامت جماعة تُعرَف باسم شعوب البحر، وهو اسمٌ على غير مُسَمًّى وُجِدَ في نصٍّ مصري قديم، بتخريب فلسطين والشرق. وما خُرِّبَ في آسيا الصغرى هو مملكة الحثيين. وبعد دمارها نشأت هناك سلسلة من الممالك: الليديون، والليكيون، والكاريون. وبعد عصور الظلام اليونانية التي تلت انهيار قوة موكينا وحتى نشوء المدن اليونانية القديمة حوالي العام 700 ق.م، كان المعمّرون اليونان يحطون على شاطئ آسيا الصغرى الغربي. وباتت معظم المدن على الساحل يونانية. والرسالة إلى أهل أفسس في العهد الجديد هي إلى ذريّة هؤلاء المعمّرين اليونان.

وحوالي العام 270 ق.م وصلت جماعة أخرى إلى آسيا الصغرى، هي الغاليون الذين أتوا من أوروبا. وأقام الغاليون في النهاية مملكتهم الخاصة، وثانيةً نجد رسالةً إلى ذريّة هؤلاء هي رسالة بولس إلى أهل غلاطية. وفي ظلّ الإمبراطورية الباكرة كانت غلاطية إلى الشرق من بيثينية وكانت تضمّ بافلاجونية القديمة، إلى الشمال الشرقي من فريجية، وجزءاً من كبدوكية الغربية. أما الجزء الجنوبي، الواقع على كلتي ضفتي نهر هاليس، فكان غلاطية بالمعنى الصحيح.

كانت آسيا الصغرى أرضاً مؤلَفةً من مناطق جغرافية مميّزة عديدة. فعلى طول الساحل

قرب سوريا كانت كيليكية. وبالنسبة للرومان، فإنَّ استيلاءهم على كيليكية وضع حدّاً لتهديد القراصنة الخطير في أواخر عهد الجمهورية، لكن هذه المنطقة طلع منها قطّاع طرق، راحوا يعملون عملهم طوال سيطرة روما. ومقاطعة كيليكية الباكرة تقع إلى الشرق من بمفيلية وإلى الجنوب من كبدوكية، وتطاول ساحل آسيا الصغرى الجنوبي من ألانيا الحاليّة إلى الإسكندرية. و كان الجزء الشرقي من هذه المقاطعة يُعرَف باسم كامبستريس والغربي باسم مونتانا أو أسبيرس. ويبلغ الارتفاع في معظم المنطقة الساحلية ما بين 300 إلى 1500 قدم، لكنه يرتفع بسرعة إلى ما يزيد على 6000 قدم في الجبال. وفي سلوقية تتفرع الطريق الساحلية، التي تسير غرباً إلى أنيموريوم وسيلينوس، إلى الطريق الجبلية المفضية إلى كلوديوبولِس، ثم إلى لاراندة، حيث يبدأ إلى الطريق الشرقي—الغربي إلى دربة وتيانا. ويمتد الطريق الساحلي من إسوس في الغرب إلى أضنة وطرسوس. وفي طرسوس يتفرع إلى طريقين، يسير أولهما غرباً والآخر شمالاً عبر بوابات كيليكية إلى بوداندوس، وفاوستينوبولس، وتيانا. وقد عرف بولس هذه المناطق، كما تشهد على ذلك رسائله إلى أهل غلاطية، وأهل كولوسي، وكما تدلّ رحلاته في أعمال الرسل إلى بَمْفيليّة وبيسيديّة.

وإلى الشمال تقع منطقة بنطوس، بجبالها التي يزيد ارتفاعها على 3000 قدم، والتي تشكّل اليوم شمال تركيا على الساحل الجنوبي للبحر الأسود. ومقاطعة كبدوكية الأصلية كانت تتاخم غلاطية وبمفيلية باتجاه الشرق. وهي أيضاً كانت تضمّ أربع مناطق: ليكأونية، في أقصى الغرب تاليةً لإيساورية وآسيا؛ وكبدوكية بالمعنى الصحيح، إلى الشرق من ليكأونية على كلتي ضفتي هاليس؛ وبونطيوس، إلى الشمال من كبدوكية بالمعنى الصحيح، إلى البحر الأسود؛ وأرمينيا الصغرى، إلى الجنوب الشرقي من بنطوس، على طول نهر الفرات الأعلى. وهذه المنطقة بأسرها كانت وعرة، والجبال تقسم المناطق وتفصلها، ولذلك غالباً ما كانت المدن منقطعةً عن جماعات لا تبعد عنها سوى بضعة أميال. وكانت هذه المدن تضم جماعات مميزة عديدة.

زار بولس أيضاً بلاد اليونان القديمة. وما نراه في سلسلة من الرسائل لا يقتصر على نقل بولس رسالة المسيحية، بل يتعدّاه إلى مشكلته مع المهتدين الجدد. فثمة رسالته إلى أهل تسالونيكي. ورسالته إلى أهل فيلبي، المدينة القديمة التي أقامها فيليب المقدوني، والد الإسكندر الكبير. وثمّة أخيراً الرسالة إلى أهل كورنثوس.

ويشير العهد الجديد، خاصة رسائل بولس، إلى أن اليهود لم يكونوا الجماعة الوحيدة التي تلقّت رسالة يسوع. فالجماعات الإثنية المختلفة كانت توجد في بيئة أوسع بكثير، هي العالم الروماني. ومع أنَّ عدد الرومان من إيطاليا لم يكن ذلك العدد الكبير، إلا أنَّ هؤلاء كان لهم حضورهم (متّى 8: 5)[1]. وكان الإيطاليون الطبقة ذات الحظوة وقد استقروا في هذه المنطقة بعد الحروب الأهلية الكبرى، خاصةً بعد أن سرّح أغسطس الجيش. وقد جلب هؤلاء الأفراد للمنطقة الأفكار الغربية والصلات مع إيطاليا.

ويشير العهد الجديد إلى الغرب. فرسائل بولس إلى أهل رومية تشير إلى جماعة مسيحية باكرة في روما، لعلها لم تكن مؤلّفة من اليهود وحسب، بل من غير اليهود أيضاً. ولقد انفصلت هذه الجماعة لاحقاً عن السكّان اليهود، ربما في عهد كلوديوس، وغدت مؤلّفةً من غير اليهود بصورة أساسية.

ويواجهنا العالم اليوناني بمجتمع جديد وأراضٍ جديدة. ويذكر العهد الجديد مناطق يونانية كثيرة. وأولى المناطق التي جرت زيارتها خارج فلسطين هي سوريا، وقبرص، وآسيا الصغرى.

وتُبدي المناطق والشعوب المذكورة في العهد الجديد تنوّعاً شديداً في الحياة خلال القرن الأول الميلادي. وقدرة فرد، مثل بولس، على أن يرحل من منطقة إلى أخرى ويلتقي شتّى البشر إنما تشير إلى حيوية فلسطين وتعقيدها. وبعيداً عن القيود الوطنية التي تميّز السَّفَر الحديث، كان بمقدور البشر أن يلتقوا في رحلةٍ قصيرة برومان، ويونان، ويهود، وسوريين، ومصريين، وبابليين، وفرس، بل وحبشيين من مختلف الطوائف الوثنية واليهودية. وهذه العوامل جميعاً هي التي جعلت الحياة اليومية التي يصوّرها العهد الجديد على ما هي عليه من التعقيد.

(1) «5وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ كَفْرَنَاحُومَ، جَاءَ إِلَيْهِ قَائِدُ مِئَةٍ».

الفصل الثالث

مؤثّرات من خارج الدّين:
اللغة والفنّ والثقافة الهلنستية

«... 4وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا... 8فَكَيْفَ نَسْمَعُ نَحْنُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا لُغَتَهُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا؟ 9فَرْتِيُّونَ وَمَادِيُّونَ وَعِيلاَمِيُّونَ، وَالسَّاكِنُونَ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَالْيَهُودِيَّةَ وَكَبَّدُوكِيَّةَ وَبُنْتُسَ وَأَسِيَّا 10وَفَرِيجِيَّةَ وَبَمْفِيلِيَّةَ وَمِصْرَ، وَنَوَاحِيَ لِيبِيَّةَ الَّتِي نَحْوَ الْقَيْرَوَانِ، وَالرُّومَانِيُّونَ الْمُسْتَوْطِنُونَ يَهُودٌ وَدُخَلاَءُ، 11كِرِيتِيُّونَ وَعَرَبٌ، نَسْمَعُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا بِعَظَائِمِ اللهِ!».

(أعمال الرسل 2:4، 8–11)

اللغة

حين يتناول المرء الكتاب المقدّس ويقرأه، فإنه يفعل ذلك بلسانه المحليّ أو لغته الوطنية. وكثير من المسيحيين ينسون أنَّ لغة العهد القديم الأصلية هي العبرية وأنَّ العهد الجديد قد نُقِل باليونانية. ولدى قراءة الأناجيل، وأعمال الرسل، ورسائل بولس بالإنجليزية أو الإسبانية أو الألمانية، ينسى المرء أنَّ هذه ليست سوى ترجمات غالباً ما يضيع فيها المعنى الأصلي أو يتغيّر ذلك التغيّر الغامض. وعلى سبيل المثال، فإنّ الكلمة اللاتينية «Pax» غالباً ما تُتَرْجَم، في اللغة الإنجليزية، إلى «Peace». وبالنسبة للقرّاء المُحدَثين غالباً ما تُؤخذ على أنها تعني عدم وصول النزاعات إلى حالة الحرب. أما بالنسبة للرومان فكانت «Pax» تعني محق العدو وتدميره تدميراً كاملاً؛ ذلك أنَّ السلام لا يمكن أن يتحقق إلا بمحق المرء عدوّه. ومثل هذا الضرب من سوء الفهم، بل مثل هذا الضرب من سوء الترجمة، هو الذي يفسح المجال أمام التغيّر في اللغة ومعناها.

واللغة هي قوة فاعلة تصوغ الكيفية التي ينظر بها مجتمعٌ ما ليس إلى الآخرين وحسب بل إلى ذاته أيضاً. وغالباً ما يجد المهاجرون إلى بلد جديد أنَّ من المفيد تعلّم لغة البلد المضيف إذا ما أرادوا أن يحققوا النجاح، أمّا السكّان المحليون فغالباً ما يخشون المهاجرين الذين

يتكلمون بلسانٍ غريب. واللغات التي يجري بها تداول الكتاب المقدّس اليوم ليست في الغالب لغة المؤسسين. والأرجح أنَّ يسوع لم يكن يتكلم العبرية أو اليونانية، بل الآرامية. وعلاوةً على ذلك، أنّه كان يتكلم لهجة معينة من الآرامية، من بين لهجات عديدة كانت في فلسطين. ولكي نحيط بالحياة اليومية لأولئك الذين عاشوا زمن العهد الجديد، من المهم أن نفهم المنوَّعات اللغوية جميعاً وما كانت تتركه من أثرٍ على المجتمع.

تبيّن قائمة الأماكن المذكورة أعلاه في أعمال الرسل لغات الشتات اليهودي بحسب مناطقه من الشرق إلى الغرب، مع احتمال أن تكون اليهودية (أو يهودا) قد أُدْخِلَت إليها لاحقاً. ومعظم هذه اللغات ذات أصل آرامي، وكثير منها لم تكن لغات مميزة بل لهجات من الآرامية. فلغة يسوع كانت تختلف عن لغة قيافا رئيس الكهنة في أورشليم، مع أنَّ كليهما كانا يتكلّمان الآرامية. ولقد أعلنت السلطات أنَّ يسوعاً جليليّ، وكانت تلك تهمةٌ ناجمةٌ في جزءٍ منها عن لغته وكلامه.

اللغات السامية القديمة

كانت لغات فلسطين تلك اللغات المعقّدة. وكان يهود العهد القديم يتكلمون العبريّة، التي هي لغة سامية. واللغات السامية أسرة ضخمة تضمّ الأكّادية والكنعانية والآرامية والعربية والحبشية وسواها. وفي اللغة الكنعانية لغات فرعية تضم الفينيقية والعبرانية. وتنقسم هذه الأخيرة مزيداً من الانقسام إلى الموآبية والعبرية والأدومية والعمّونية. وكانت السورية التي هي لغة فرعية أخرى من اللغات الكنعانية، تضم الآرامية[1]. ولقد باتت الآرامية اللغة المسيطرة في الشرق الأدنى بعد القرن الثامن. وكانت الآرامية القديمة قد بدأت زهاء القرن الحادي عشر ق.م في غربي سوريا وكان لها شكلها المكتوب. وحين لجأ الآشوريون والبابليون إلى ازدراع السكّان كطريقة لضمان السيطرة على مناطقهم المفتوحة حديثاً، غدت الآرامية أوسع انتشاراً نظراً لمرونتها وبساطتها. وحين سيطر الفرس على كامل الشرق الأدنى، جعل ملكهم داريوس الأول الآرامية اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية الغربية. وكان في هذا الوقت أنَّ عناصر من الآرامية المتأخّرة أو

(1) Gary A. Rendsburg, «Semitic Languages», in Near Eastern Archaeology: A Reader, ed. Suzanne Richard, pp.71-73 (Winona Larke, IN: Eisenbrauns, 2003).

الكلاسيكية (200 ق.م إلى 1200م) قد استُخْدِمَت في أجزاء من سفري عزرا ودانيال، شاقّة طريقها إلى الكتاب المقدّس. وفي القرن الرابع ق.م كانت الآرامية اللغة المسيطرة، مع أنَّ الفينيقية ظلَّ يُنْطَق بها إلى القرن الأول ق.م.

وفي فترة العهد الجديد كانت تُستَخْدَم في يهودا لهجاتٌ آرامية مختلفة، من بينها العبرية المتوسطة والعبرية الجديدة واليهودية القديمة الحشمونية، التي كانت تُسْتَخْدَم إلى جانب بعضها بعضاً لأنماط مختلفة من الأدب. ولقد تحدّرت العبرية المتوسطة والجديدة من عصر أنبياء إسرائيل وملوكها وظلت تُستخدَم في الكتابات اللاهوتية، في حين كانت الحشمونية لغة الكتابة في أورشليم ويهودا في ظلِّ الحشمونيين (142–37 ق.م) وكانت مرتبطة بالاستقلال اليهودي. وظلت اليهودية القديمة تُستَخْدَم في الكتابات الخاصة. وكانت أمثال يسوع وأقواله المأثورة بـ«اليهودية القديمة»، مما يدلّ على أنَّ تقاليده لم تأتِ إلى اليونانية من آرامية الجليل بل عن طريق أورشليم. وآرامية الجليل والآرامية السامريّة هما لهجتان من الآرامية كانتا تستخدمان زمن يسوع. وعلاوةً على ذلك، كانت هنالك لغة صنعية، هي الترجوم الجليلية، التي كانت خليطاً من الحشمونية واللغات الجليلية، التي كانت تُسْتَخْدَم في المجامع[1].

وتُظْهِر أدبيات الكتاب المقدّس القديمة والأدبيات الحاخامية الباكرة، مثل المشناه[2] أنَّ لغة الكتاب المقدّس العبري ليست تلك الوحدة المتراصّة. فقد أتاحت التنوعات دخول عناصر مختلفة من الحياة اليومية إلى الممارسات الدينية. وعادةً ما يُنْظَر إلى لغة المشناه أو العبرية المتوسطة على أنها مجرد رطانة مدرسية صنعية تُسْتَخدَم في الكتابات اللاهوتية، لكن الباحثين المُحدَثين ينظرون إليها الآن كلغة عامية ظلّت قيد الاستخدام حتى العام

(1) Klaus Beyer, The Aramic Language and Its Distribution and Subdivisions, trans. Jhon F. Healey (Gottingen: Vandenhoek and Ruprecht, 1986).

(2) المشناه هو المصدر الأساسي للنصوص الدينية اليهودية الحاخامية. ويعتبر أول سجل للشريعة اليهودية الشفهية، والعمل الأول ضمن اليهودية الحاخامية. ابتدأ بتدوين الشريعة اليهودية الشفاهية إثر خراب الهيكل عام 70 للميلاد، ويتألف المشناه من ستة مباحث (سِداريم، مفردها «سِدِر»؛ أي سِلك) و كل واحد من هذه المباحث يتألف من 7 إلى 12 مقالة تدعى مَستِخْتوت (مفردها مستيخت). ويتضمن المشناه آراء فقهية محسومة، و كثيراً ما يشتمل على خلافات في وجهات النظر بين المعلمين أو الحاخامات، و فيه القليل من الحوار. ويكاد معظم المشناه أن يكون مكتوباً بالعبرية، باستثناء بعض العبارات المكتوبة بالآرامية. أمّا تعليقات الحاخامات على المشناه خلال القرون الثلاثة التالية فقد سُجِّلت جميعها تقريباً بالآرامية. وعلى نحو ذلك وُضِعَت الجمارا أيضاً، حيث يشكّل المشناه مع الجمارا سويةً التلمود.

200م. ولذلك كلّه ينبغي أن تُتْرَك فكرة أنّ الكتاب المقدس قد كُتِب بلغة واحدة دون أي تأثيرات أخرى. فالبحث في اللغات يُظْهِر أنَّ الكتاب المقدّس كان تلك الوثيقة الحيّة التي تأثّرت بعوامل كثيرة[1].

اللاتينية واليونانية

إضافةً إلى الآرامية، لغة الحكم الرئيسة، كان التجار والنخب المتعلّمة يونانيين. وكانت اللاتينية لغة الإدارة الرئيسة في الإمبراطورية الرومانية. وهي واحدة من اللغات الإيطاليقية في المجموعة الهندوأوروبية أقامت أبجديتها على اليونانية. وقد استُمِدَّت اللاتينية من قبيلةٍ تُدعى اللاتين، هاجرت إلى المنطقة حول نهر التيبر في سهل لاتيوم، وما إن استقرّت هناك حتى اتصلت بالإتروسكان، الذين لم تكن لغتهم هندو أوروبية. وقد ورث اللاتين الأبجدية الإتروسكانية، المشتقة من اليونانية، وحوّلوها إلى لاتينية. ومن الأوجه المهمة في اللاتينية القديمة أو الكلاسيكية غياب علامات الترقيم والفراغات بين الكلمات. وكانوا، علاوةً على ذلك، يكتبون بأحرف كبيرة. واللاتينية، مثل ذرّيتها من اللغات الرومانسية الحديثة[2] ، لم تكن بحاجة، مثل الإنجليزية، إلى ما يُدعى ترتيب الكلمات[3]؛ أي ترتيبها ضمن الجملة الواحدة بما يشكّل أحد عناصر المعنى القواعدي، وكانت تستخدم تصاريف توفّر حالات لا بدّ منها لتحديد هوية أقسام الكلام الرئيسة الخاصة بالأسماء والضمائر. هكذا، كانت حالة الرّفع[4] التي تدلّ على فاعل الجملة؛ وحالة الجرّ[5] التي عادةً ما تُظْهِر الإضافة؛ وحالة النّصب[6] التي تُظْهر المفعول به المباشر؛ وكذلك حالة المفعول به غير

(1) Richard C. Steiner, «Ancient Hebrew», in The Semitic Languages, ed. Robert Hetron, pp. 145-73 (London: Routledge, 1977).

(2) اللغات الرومانسية، Romance languages، هي لغات نشأت عن اللغة اللاتينية الوسطى، وتنتمي إلى المجموعة الإيطاليقية ضمن العائلة الهندو أوروبية. وتشمل الإيطالية والفرنسية والبروفانسية والإسبانية والبرتغالية والكاتالانية والرومانية والسردينية.

(3) word order

(4) the nominative case

(5) the genitive case

(6) the accusative case

المباشر[1] التي تشير إلى الضمائر التي تأتي في محلّ نصب مفعول به؛ وحالة المنشأ[2]، التي تُظْهِر، من بين أشياء أخرى، الحركة إلى أو من أحد ما أو شيء ما، وكانت تُستَخْدَم مع حروف الجرّ. والحالة الأخيرة هي حالة المنادى[3]، التي كانت تُستَخْدَم للكلام المباشر. وعلى الرغم من قيام المستعمرات الرومانية في أرجاء الشرق، فإنَّ اللاتينية لم تكن لها الصدارة هناك. غير أنّها كانت اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية. والأرجح أنَّ بيلاطس البنطي كان يكتب مراسلاته الرسمية إلى الإمبراطور وعمّاله باللاتينية. وكلّ إعلان رسمي أو قرار قانوني كان أيضاً يُكتَب باللاتينية. وقد اقتضت هذه الوقائع أفراداً يعرفون اللاتينية واللغات الأخرى لضمان ترجمة الوثائق وكتابتها. أمّا في المعاملات اليومية فلم تكن اللاتينية لغة كونية، بخلاف اليونانية.

والأرجح ألا يكون بيلاطس البنطي قد تكلّم مع زعماء اليهود بالآرامية، لغتهم، أو باللاتينية، لغته، بل باليونانية. واليونانية الكلاسيكية، أو الأتيكية، التي كتب بها أفلاطون وأرسطو وثيوسيديديس لم تكن اللهجة اليومية. بل كانت اللغة الكوينيّة، اللغة اليومية الشائعة لذلك الزمن، هي الشكل الرئيس لليونانية في العصر الهلنستي، حيث انتشرت هذه اللغة التي حملها معه جيش الإسكندر الكبير من مصر إلى السند. وسار تطور اليونانية من الموكينية، القديمة أو الكلاسيكية، إلى الهلنستية أو الكوينيّة. واليونانية، بوصفها واحدة من أوائل اللغات الهندوأوروبية، كانت موجودة منذ 1200 ق.م. وقد ابتُدِعَت الأبجدية اليونانية زهاء القرن التاسع ق.م. وكُتِبَ العهد الجديد باليونانية الكوينيّة، لغة السكّان العاديين.

يبيّن هذا النقاش أنّه كان في فلسطين لغات ولهجات كثيرة. ولابدّ من أن يكون ذلك قد ترك أثره على الحياة اليومية من نواحٍ شتّى. فقد كان على الأفراد أن يتعاملوا مع آخرين يتكلمون لغات مختلفة، الأمر الذي زاد من كوسموبوليتية المنطقة. ولابدّ من أن يكون تدفّق الزوار المتواصل إلى أورشليم من الشتات قد جاء بآراء مختلفة، ولابدّ أيضاً من أن يكون قد جاء بضروب من التحيّز والارتياب. فحين لا يتكلم أحدٌ ما لغة المرء يكون ثمّة ميلٌ إلى عدم الثقة فيه. وعلاوةً على هذا، لابدّ من أن تكون قد قامت ضروبٌ

(1) the dative case

(2) the ablative case

(3) the vocative case

معتادة من سوء التواصل بين الأفراد الذين يتكلمون لغات مختلفة. أما التأثير الآخر فكان العلاقة مع السلطات. فعلى مستوى أول، ثمّة العلاقة مع الإدارة الرومانية التي تستخدم اللاتينية وتقتضي فهم لغة الرومان، الأمر الذي كانت تزيده تعقيداً تلك الحاجة إلى فهم القانون الروماني وفروقاته الدقيقة. وعلى مستوىً ثانٍ، ثمّة السلطات اليهودية التي كان مطلوباً منها الحفاظ على السلم. وهنا كانت اللغة إمّا الآرامية، في أورشليم، أو ربما اليونانية، في بلاط هيرودس. أمّا بالنسبة إلى السكّان المحليين، فثمة قضية أخرى تتمثّل في اللهجة المستخدمة، سواء أكانت سامرية، أم يهودية، أم جليلية، أم إحدى اللهجات الفرعية الأخرى. كما كانت هنالك ضروبٌ من التفاعل مع المدن الفينيقية القديمة، صور وصيدون وبيبلوس. وكانت لهذه المدن لهجتها الخاصة، التي أمكن لها بدورها أن تزيد الوضع تعقيداً.

التَّرْجُوم

تركّز شكلٌ خاصٌ من الأدب زمن العهد الجديد في فلسطين على المخطوطات التي كانت تُقرَأ في المجامع. وهذه المخطوطات كانت مكتوبة بالعبرية، اللغة المشتركة في مملكة إسرائيل في العام 701 ق.م (سفر الملوك الثاني: 18: 26)[1]. أما بعد السبي في العام 587 ق.م، حين غدت الآرامية اللغة الشعبية، فلم تعد العبرية اللغة المشتركة. وفي زمن نحميا كانت ترجمات البنتاتوك العبري الآرامية، التي عُرِفَت باسم الترجوم، تزحف وتتقدّم شيئاً فشيئاً. فبعد تلاوة البنتاتوك العبري، كان يُتَرْجَم إلى الآرامية. والترجوم كان شفوياً في الأصل، غير أنَّ أمثلةً مكتوبةً وُجِدَت في لفافات البحر الميت.

كان معظم الترجوم شفوياً نظراً للتكلفة الباهظة التي يقتضيها وضع نسخة مكتوبة. وهذا ما خلق وضعاً غدا فيه من الصعب معرفة ما كان أصلياً (عبرياً) وما أضيف، ما هو تفسيرٌ (تأويلٌ) أو تحشية (تعليقات مكتوبة أصلاً في الهامش). وهذه الأخيرة كانت بالآرامية. وقد دُعِي البنتاتوك باسم التوراة، التي لم تكن تعني الشريعة المكتوبة أو الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب المقدّس فحسب، بل أيضاً الشريعة الشفوية التي اشتملت على

(1) «فقال ألياقيم بن حِلْقِيَّا وشِبْنَةُ ويُواخ لرَبْشاقى كَلِّمْ عبيدك بالآراميّ لأننا نفهمه ولا تكلّمنا باليهوديّ في مسامع الشعب الذين على السور».

التحشيات المكتوبة الأخيرة.

كان الترجوم حاضراً في المجامع إلى جانب قراءة الكتب المقدّسة وتعليمها. وكان هدفه الأساسي جعل الكتب المقدسة العبرية مفهومةً للجمهور الناطق بالآرامية. وهذه الترجمات الآرامية كانت معروفةً بطابعها الشعبي، بعكس ترجمة مدرسة الإسكندرية، تلك الترجمة الصارمة، والمتكلّفة غالباً. فقد حاول الترجوم الفلسطيني أن يسدّ الفجوة بين العبرية الرسمية والآرامية العامية.

و لعلّ ترجوم البنتاتوك الآرامي، كما يمثّله مجلّد اكتُشِف في مكتبة الفاتيكان عام 1956، يعود إلى أصل كان قائماً زمن الإسْدراس[1]. فإذا ما كان الأمر كذلك، فإن الترجوم يكون أقدم مما يُعتَقَد ومعاصراً للكتب المقدّسة العبرية في العصر الهلنستي وزمن العهد الجديد. ومفهوم التأويل الذي يُرى في الترجوم كان موجوداً أيضاً في رسائل بولس، مما يُظهر أنَّ الترجوم قد تأثّر ليس باليهودية فقط بل بالمسيحية الباكرة أيضاً.

لم يكن الترجوم ترجمةً وحسب، بل كان أيضاً محاولةً لشرح الكتب المقدّسة تبعاً لمقتضيات الحياة اليومية. ولأنّ العبرية لم تكن تستخدم سوى الصوامت، فقد أُدْخِلَت ضروبٌ مختلفة من الإعلال[2] ، الأمر الذي خلق إمكانيةً لتغيير المعنى، وفتح الباب أمام التأويل. وعلى سبيل المثال، فإنَّ كلمة «شيم»، التي تعني «اسم»، يمكن أيضاً، مع صوائت مختلفة، أن تعني «شام»، أي «ذلك» (تكوين 22: 14)[3]. ولقد أتاح الترجوم مثل هذا التأويل أمام الجمهور الناطق بالآرامية.

وتكمن أهمية الأدب الترجومي في أنّه أتاح للجمهور العام، سواء كان متعلّماً أم لا، أن يشارك في المجمع. وفي العهد الجديد، نجد يسوع وهو يقرأ الكتب المقدسة، سفر أشعيا، ثم يعلّق عليها.

وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَ قَدْ تَرَبَّى. وَدَخَلَ الْمَجْمَعَ حَسَبَ عَادَتِهِ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَامَ

(1) ثمّة إسدراس الأول، أو عزرا اليوناني، وهو نسخة يونانية قديمة من سفر عزرا في الكتاب المقدّس كانت تستخدمه الجاليات اليهودية القديمة، والكنائس الباكرة، وكثير من المسيحيين المُحْدَثين، على الرغم من الخلاف الشديد على قانونيته. وثمّة إسدراس الثاني، أو عزرا اللاتيني، أو سفر نحميا. ولهذه الأسفار أهمية تاريخية بالغة.

(2) الإعلال هو قلب الحرف الصامت إلى حرف صائت أو إلى حرف علّة.

(3) « 14 فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَهْ». حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى».

لِيَقْرَأَ، فَدُفِعَ إِلَيْهِ سِفْرُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ. وَلَمَّا فَتَحَ السِّفْرَ وَجَدَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ مَكْتُوبًا فِيهِ... ثُمَّ طَوَى السِّفْرَ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْخَادِمِ، وَجَلَسَ... فَابْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ... (لوقا 4: 16–21)

يبدو من هذا المقطع أن يسوع قرأ الكتاب المقدّس، ربما بالعبرية، ثمّ قدّم الترجوم. ويبيّن العهد الجديد علاوةً على ذلك أنَّ المسيحية الباكرة كانت متّصلة باليهودية عَبر المَجْمَع. وقد استخدمت المسيحية المجمع والطقوس الدينية لكي ترتقي بالدين الجديد وتعزّزه، خاصّةً أن تلك الطقوس كانت على حالٍ من التغيّر الدائم.

وكان ثمّة أشكال أخرى من الآرامية تُستخدم خارج يهودا، مثل النبطية في مملكة البتراء العربية منذ العام 400 ق.م وتدمر منذ العام 44 ق.م إلى 274م. وكانت الأرساسية، لغة الإمبراطورية الفرثية، واسعة النفوذ على الرغم من استخدامها خارج الإمبراطورية الرومانية وحسب من 247 إلى 224م.

البشر واللغة

لعلّ بعض الأمثلة أن تكون مفيدةً في ما يتعلق بلغات الأفراد المتعيّنين: الزَّارع أو التاجر أو الحاج أو الحاخام أو السيّد النبيل. فلدى الزَّارع الجليلي كان ثمّة اللغة أو اللهجة الآرامية–الجليلية. وكان هذا الزَّارع يقضي معظم سنيّ حياته في مسكنه وما حوله من أرض، أو في قريته، من دون تماس كثيف مع الموظّفين الرومان، ولذلك لم يكن يصله أيّ إعلان تعلنه الحكومة إلا عبر الترجمة في اليونانية أولاً ثم في الآرامية. وهذه الترجمة غالباً ما كانت بعيدة عن السّداد أو مقصِّرةً عن نَقْل التفاصيل الدقيقة. وعلى سبيل المثال، فقد أصدر الإمبراطور ديوقليتيان في الحقبة الإمبراطورية المتأخرة مرسوماً خاصاً بالأسعار بيّن فيه الحدود القصوى لأسعار البضائع والخدمات؛ وقد وُضِع هذا المرسوم ومسوّغاته باللغة اللاتينية على شكل تمهيدٍ تلته قائمة البضائع. وفي آسيا الصغرى أرفق أحد الولاة بهذا المرسوم رسالةً شارحةً كُتِبَت باليونانية، أعلن فيها أنَّ البضائع ستُباع بتلك الأسعار، التي لم تَعُد بذلك حدوداً قصوى. وما يبيّنه هذا المثال هو أنّه كان ثمّة خَلْط وتشوّش بين الإمبراطور (أو قنصله) وواليه، وأنَّ مثل هذه الترجمات كانت تفضي إلى سوء قراءة المراسيم بين عموم السكّان. ففي حياة زرّاعنا الافتراضيّ اليومية، كان يمكن للمراسيم القادمة من روما مصاغةً باللاتينية أن تُتَرْجَم بدورها إلى اليونانية، مع بعض التغييرات، ثم

إلى الآرامية مع مزيدٍ من التغييرات. وما إن يسمع الزّارع بالمراسيم الجديدة، حتى يكون عليه أن يتعامل مع الموظفين، خاصةً الجباة أو جامعي الجزيّة، الذين لعلّهم لم يعرفوا المرسوم إلا من خلال وثيقة مُتَرْجَمة (وربما من خلال وثيقة أسيئت ترجمتها)، مما يُحدث مزيداً من الخلط والتشوش. كما كان لهذا الزّارع بعض احتكاك مع السادة النبلاء أو الكهنة أثناء الحجّ السنويّ إلى أورشليم. ولأنَّ فلسطين كانت صغيرة بما يكفي لأن تتيح السفر برفقة مجموعات متعددة والتواصل معها، فإن الزّارع العادي كان يحتكّ مع آخرين يستخدمون لغاتٍ مختلفة، حتى لو لم يكن يفهم هذه اللغات.

ويشكّل الحجيج جماعة خاصة من حيث أنّهم لا يحتكّون في العادة مع السكان المحليين لفترات طويلة من الزمن. ومثل السائح الحديث، لم يكن الحجيج الذين يزورون فلسطين زمن العهد الجديد متضلعين بالضرورة من اللغة المحلية. ولعلّ حاجّاً من الإسكندرية أن يعرف اليونانية دون الآرامية أو العبرية. فما كان ليتفاعل مع السكّان المحليين بل مع الأدلاّء، ورفاقه الحجيج، وأولئك الذين يقومون على خدمة المسافرين، ممن قد يتحدثون اليونانية. وغالباً ما كان الحجيج يسافرون معاً كما هي حال المجموعات السياحية اليوم. وكان بعضهم يعرف اللهجات المحلية، فإن لم يعرفونها، أَمْكَنَهُم أن يستأجروا دليلاً محترفاً. وكان هؤلاء الحجيج يقيمون في نُزُلٍ، وتشير الأدلّة إلى أنّ هذه النُّزل غالباً ما كانت مرتبطة بالمجامع.

أمّا التاجر فكانت لديه منافذ أكبر إلى اللغات والثقافات الأخرى نظراً لأسفاره. ولعلَّ لغة هذا التاجر الأساسية أن تكون اليونانية. فهذه لغةٌ تخدمه جيداً في الإمبراطورية الرومانية، وتمكّنه من الترحال في الأصقاع التي يذكرها العهد الجديد من دون أن تعترضه أيّة صعوبة. أمّا في معاملاته اليومية مع المحليين فربما كان عليه أن يعرف اللهجة المحلية. وكانت هنالك بالطبع طبقات مختلفة من التجار. فبعضهم كان من الموزّعين، الذين لم يكونوا بحاجةٍ إلى معرفة اللغة المحلية بخلاف باعة التجزئة والموزّعين المحليين الذين كان عليهم أن يعرفوا اليونانية لكي يتعاملوا مع من يمدّونهم بالبضائع والآرامية لكي يتعاملوا مع زبائنهم المحليين. وكان كثير من التجار اليهود يسافرون بكثافة في أرجاء المتوسط، مما كان يتيح لهم التماس مع جماعات كثيرة، يهودية وسواها. وكانت أسفارهم تتيح لهم فرصة التعرّف إلى لغات مختلفة وربما تعلّمها. ولقد بقيت روايات من آسيا الصغرى تبيّن

أنّ التجار قاموا برحلات كثيرة إلى الغرب. وخلال القرن الأول كان التجار يسافرون من الشرق وإليه. وبخلاف المراحل السابقة حين كان المتوسط مُبْتَلى بالقراصنة، مما جعل السفر خطيراً، كان القرن الأول زمن سلمٍ عام. وهذا السلم أتاح للتجار أن يحظوا بالاستقرار والحماية.

وكان الحاخامات يتكلمون الآرامية، ولعلّ بعضهم كان يعرف العبرية. فليس واضحاً إن كانوا جميعاً يعرفون لغة العهد القديم، وبعض المعلمين، ومن بينهم يسوع نفسه، ربما كانوا يستخدمون ترجمات أو شروحاً آرامية. وربما كان بعضهم يعرف اليونانية، مع أننا لا نعلم، مرّة أخرى، إنْ كانت لدى يسوع أية معرفة بها. ومن غير المحتمل أن يكون من يعرفون اللاتينية بتلك الكثرة. فقد كان الحاخامات معنيين بالجماعة المحلية بصورة أساسية، ولذلك كانت اللغة الأهمّ بالنسبة لهم هي اللهجة المحلية. وأولئك الذين كانوا منكّبين على تأويلٍ متواصل لـ«العهد القديم» كانوا يعرفون العبرية. وكان الحاخامات صلة الوصل الأساسية بين الساكن المحلي والطبقة الدينية الرسمية في أورشليم. وعلى الرغم من أنهم قد لا يكونون من السادة أو النبلاء، إلا أنهم كانوا مدرَّبين. فكلمة «رَبِّي» أو «حاخام» لا تعني كاهناً بالضرورة، بل يمكن أن تعني معلّماً، أو شخصاً مثقّفاً. ولقد دُعِيَ يسوع حاخاماً (متى 26: 25؛ مرقس 9: 5؛ يوحنا 1: 38، 3: 1–3)[1]، غير أنه ليس واضحاً إن كان قد حاز أيّ تدريب رسميّ. فالكلمة لم تكن تعني سوى شخص لديه ذكاء فطري.

أمّا السادة النبلاء فكانوا على تماس متواصل مع السلطات الرومانية، والزعماء المحليين اليهود واليونانيين، والسكّان المحليين. وكانوا يعرفون الآرامية، واليونانية، وربما العبرية، بل ربما اللاتينية ذاتها. ومن بين الجماعات كلّها، كانت لدى السادة أوسع فرص التفاعل

(1) «25فَأَجَابَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ وَقَالَ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا سَيِّدِي؟» قَالَ لَهُ: «أَنْتَ قُلْتَ» (متّى).
«5 فَجَعَلَ بُطْرُسُ يَقولُ لِيَسُوعَ:«يَا سَيِّدِي...» (مرقس).
«38 فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَنَظَرَهُمَا يَتْبَعَانِ، فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» فَقَالاَ: «رَبِّي، الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ، أَيْنَ تَمْكُثُ؟» (يوحنا).
«1كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ، رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ. 2هذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَقَالَ لَهُ:«يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللهِ مُعَلِّمًا...» (يوحنا).
من الواضح أنّ كلمة «ربي» تَرِدُ في ترجمة الكتاب المقدّس الصادرة عن دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط على هيئة «سيّد»، و«معلّم».

مع تشكيلة واسعة من الثقافات والجماعات، بسبب موقعهم الذي كان يتيح لهم النفاذ إلى هذه اللغات المختلفة. كما كانت لديهم علاوة على ذلك فرص السفر في أرجاء المتوسط، والتفاعل مع كثير من الجماعات المختلفة.

الهلنستيّة

هذه الجماعة الأخيرة (جماعة السادة النبلاء) هي التي وفّرت فرص التفاعل مع ثاني أكبر مكوِّن من مكوِّنات التأثير غير الديني، ألا وهو الهلنستية. فقد عرفت منطقة فلسطين ضروباً كثيرة من التأثير والنفوذ؛ كانت الهلنستية، أي الثقافة اليونانية التي انتشرت بعد فتح الإسكندر الكبير، رئيسة بينها. وكانت ضروب النفوذ اليوناني قد أتت في البداية مع الجنود والتجار في جيش الإسكندر، وكان هؤلاء من المقدونيين بصورة أساسية. ومع أنَّ المقدونيين كانوا ينظرون من عل إلى الأثينيين وسواهم من اليونانيين الجنوبيين، إلا أنهم كانوا يونانيين في الحقيقة. وما أكسبهم الأهمية هو إيمانهم بتفوقهم. وبعد هزيمتهم أهل طيبة وإجبارهم بقية البرّ اليوناني على الخضوع، انتقل المقدونيون إلى فتح فارس بأسرها. وما كان هؤلاء المقدونيون، الذين يفخرون باستقلالهم أشدّ الفخر، يرغبون في الاختلاط مع الأعراق المفتوحة. ومع أنَّ الإسكندر حاول أن يجمع المقدونيين والفرس معاً، لكن ذلك لم ينجح، حتى في المملكة السلوقية، التي شهدت من هذه الحوادث ما يزيد على ما شهده البطالمة في مصر. وحتى هنا كانت الثقافة اليونانية مسيطرة.

هكذا جلب المقدونيون الثقافة اليونانية، التي ورثوها من خلال سيطرتهم على اليونان، إلى البلدان المفتوحة، التي كان من بينها فلسطين وآسيا الصغرى. وكان قد سبق لهاتين المنطقتين أن استقبلتا ضروب النفوذ اليوناني، خاصةً في غربي آسيا الصغرى. أما الآن فقد جلب المقدونيون إلى المنطقة مزيداً من النشاط والقوة، والأهمّ من ذلك أنهم فتحوها أمام التجار والمعمِّرين اليونانيين. وهذا السبيل الجديد أتاح للثقافة اليونانية، التي التحمت بخصائص وصفات أخرى، أن تنتج الهلنستية، أو الثقافة ذات النفوذ اليوناني، التي باتت لها السيطرة.

لم يقبل السكّان الأصليون الثقافة الجديدة بالضرورة. فالثقافة اليونانية لم تنفذ في الحقيقة إلا إلى المناطق المدينية، وإلى المدن اليونانية المشادة حديثاً بصورة أساسية، وبعض

المدن التجارية القديمة. أما المناطق الريفية وسكّانها، بأعدادهم الكبيرة، فلم تتأثر بتلك السهولة. ولذلك ينبغي أن يُنْظَر إلى الهلنستية على أنها ظاهرة مدينية قَبِلَتْها أقليةٌ صغيرة وحسب، لكنها فاعلة، هي الطبقة العليا.

غير أنَّ هذه الطبقة العليا لم تتخلَّ عن ثقافاتها المحلية؛ وما يبدو أنه قد حدث، على العكس من ذلك، هو امتزاج الثقافتين اليونانية والمحلية، مما أنتج الثقافة الهلنستية. فقد أدركت الطبقة العليا المحلية قيمة تمثّل الثقافة اليونانية، خاصةً إذا رغبت في الانتفاع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً من أسيادها المقدونيين. غير أنّها احتفظت أيضاً بكثير من عاداتها المحلية، ولو أنّها لم تكن تُبْرِزها أوتعطيها الصدارة. وقد مثّلت اللغة واحدةً من المناطق التي حاولت فيها الطبقة العليا التكيف. فقد أتاح تعلّم اليونانية لهؤلاء الأفراد أن يتفاعلوا بمزيد من الفعالية مع أسيادهم السياسيين المقدونيين فضلاً عن تفاعلهم مع التجار والحرفيين الأجانب.

الممارسات الدينية الهلنستية

لم تكن اللغة السبيل الوحيد الذي تمثّل به المحليون الهلنستية. فقد كان للدين أيضاً أهميته على هذا الصعيد. ففي فلسطين كان ثمّة وثنيون إضافةً إلى اليهود، خاصةً في الصحارى وعلى طول السواحل. فالمناطق الساحلية ظلّت متمسّكةً بأفكار الفلسطينيين القدماء والفينيقيين. واستمرّت عبادة الإله بعل، التي غالباً ما جعلتهم على خلاف مع جيرانهم اليهود وزعمائهم. وغالباً ما كان هذا النزاع عنيفاً، مما فاقم الوضع أكثر، وراح الطرفان كلاهما يؤججان هذا العنف. كما وُجِدَت الوثنية أيضاً في المناطق الصحراوية. وعلى الرغم من اعتناق كثيرين اليهودية وإصدار أسرة هيرودس مرسوماً يقضي بقبول اليهودية، إلا أنَّ الوثنية ظلّت باقية.

ولم تكن العبادة الوثنية مشتملةً على صلوات للأصنام والآلهة المتعددة وحسب بل عادةً ما كانت تقتضي تضحية دموية، أي التضحية بالحيوانات وأكلها. وبالمثل، فقد كان لليهودية تضحيتها الدموية لكنها لإله واحد ولا تُؤدَّى إلا في الهيكل، وليس في أيّة أمكنة أخرى من أمكنة العبادة كالمجامع. ولقد أدخلت الهلنستية آلهةً جديدة، خاصةً زيوس، وديونيزيوس، وسيرابيس (إله مصري مُتَهلِين) من بين آلهة أخرى. وراح المقدونيون

يدخلون هذه الآلهة وعبادتها في أرجاء المنطقة، بالقسر غالباً. وفي زمن العهد الجديد كانت الوثنية موجودةً إلى جانب اليهودية التي كان يُنْظَر إليها على أنّها المزاحم الأكبر للهلنستية.

كانت الهلنستية المأثرة الثقافية للفترة الممتدة من وفاة الإسكندر الكبير إلى هزيمة كليوباترا في العام 30 ق.م، فهذه الفترة هي العصر الهلنستي. لكن الهلنستية استمرت بعد ذلك، إذ أتاحت لها الإمبراطورية الرومانية أن تنتشر من الشرق اليوناني إلى الغرب الروماني. وغدت الإسكندرية ومكتبتها العظيمة أهمّ مركز للهلنستية. فهذه المدينة، التي بناها بطليموس الأول على أسس وضعها الإسكندر، كانت يونانية على وجه الحصر، على الرغم من وجودها في مصر. وقد اجتذبت علماء وتجار، مما أتاح لها أن تزدهر وتغدو مركز الثقافة اليونانية. وكانت الهلنستية التحام هذه الثقافة اليونانية مع الثقافة المحلية. ولعلّ افضل مكان نرى فيه ذلك هو الفنّ والدين.

الفنّ والدّين

الفنّ عنصر مهم من عناصر الثقافة. ويتيح الفنّ للمجتمع أن يعبّر عن ثقافته. وقد أدّت فترة العهد الجديد إلى صدام بين الثقافات في الفنّ. فالفنّ اليهودي كان يحرّم تمثيل الأشخاص، خاصةً صور الإله. وهذا ما جعل معظم الفنّ اليهودي متركّزاً على التصاميم الهندسية والنباتية. وقد أنتج هذا التمثيل من نواحٍ كثيرةٍ شكلاً سكونياً من أشكال الثقافة الفنية. أمّا بالنسبة لغير اليهود، فقد كان ثمّة حشد غنيّ من الفنون. كانت هنالك، أولاً، ثقافة الشرق الأدنى القديمة، التي تُرى في الأعمال الآشورية والبابلية. ومع أنّ هذه الأعمال كانت تنزع لأن تكون ذات بعدين، إلا أنّها كانت تشتمل على تمثيل الأشخاص، من ملوك وسواهم. غير أنّ التجديد الرئيس تمثّل في إدخال الفن الهلنستي. وهذا الشكل الفني جلب الأفكار اليونانية الكلاسيكية، التي اختلطت مع التأثيرات المحلية. والنحت هو أحد أهم الأعمال الفنية التي يمكن أن يُرى فيها الفارق بين الثقافة اليهودية والثقافة الهلنستية على أفضل وجه.

ففي الثقافة الكلاسيكية والهلنستية، كان النحت يصوّر الإنساني والإلهي. وكانت

الأعمال المنحوتة تلقي الضوء على مآثر الآلهة، كما تُرى في أفاريز البارثينون[1]. ومنحوتة سائق عربة دلفي تصوّر بوضوح قسمات إنسان. ومثل هذا التمثيل كان يتيح لليونانيين عبادة الآلهة أو تبجيل البَشَر. أما بالنسبة لليهود فكان هذا مناقضاً للوصية بألاّ تكون لهم منحوتات، فمع أنَّ الكتاب المقدَّس لا يدين المنحوتات التي تصوّر بشراً، إلا أنَّ تأويل الوصية امتدّ ليطاول البشر الأحياء والأموات، وهذا ما خَلَق معضلةً بالنسبة لليهود زمن العهد الجديد؛ فاليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين وخارجها كانوا لا ينفكّون يتعرّضون لمنحوتات ذلك الزمن، التي لم تكن تقتصر على تصوير الآلهة الوثنية بل تعدّتها إلى بشر باتوا مُؤلَّهين، بل لا يزال بعضهم أحياء كما في حالة أغسطس. وهذا التعرّض، إضافةً إلى سيطرة الرومان، أجبر اليهود آنئذٍ أن يدركوا أنَّ طريقتهم في الحياة تخالف الثقافة السائدة تلك المخالفة المتصلة. وغالباً ما كان على اليهودي التقيّ أن يختار بين التمسّك بدينه مما يمكن أن يهين السلطات و إطاعة السلطات مما يمكن أن يهين دينه. وقد أمكن لهذا الصدام أن يؤدي إلى غياب الثقة لدى الطرفين بل وإلى الحرب في الغالب، مثل الحرب اليهودية الكبرى أيام نيرون.

كان لهذه المؤثّرات أن تفعل فعلها في حياة الأفراد اليومية في أرجاء المتوسط زمن العهد الجديد. فقد كان في فلسطين، بوصفها نقطةً تتقاطع فيها الثقافات، تشكيلة من اللغات، التي لطالما أثّرت على ارتكاس البشر وتفاعلهم. فقد أتاحت اللغات المختلفة لدفق المعلومات والأفكار أن ينتشر في أرجاء المنطقة. والتجار الذين كانوا يصلون من بلاد بعيدة كانوا يتكلمون الآرامية المحلية أو يأملون أن يكون التاجر المحلي يعرف اليونانية، لغة التجارة العالمية. غير أنَّ التبادل التجاري لم يكن التفاعل الوحيد. ومن الواضح في رسائل بولس وغيره من الكتّاب أنّه كانت هنالك حركة تحوّل وهداية ناشطةٍ من مختلف الأديان وإليها، بما فيها اليهودية والمسيحية والديانات الأسرارية. وهذه التفاعلات التي كانت تستخدم لغات مختلفة تأثّرت أيضاً بتفاعلات الثقافات المختلفة. والوجه الأهمّ لهذه التفاعلات الثقافية كان التفاعل بين الهلنستية واليهودية.

ولقد شكّل الدين نقطةً لتقاطع هذا التفاعل الثقافي. فبالنسبة إلى اليونانيين ومعظم الوثنيين في حقيقة الأمر، كان تصوير الآلهة يجري في أشكال بشرية وطبيعية. وعبادة

(1) هيكل الآلهة أثينا.

هذه التصاوير أو الأصنام أقامت صلةً بين الفاني والإلهيّ. وكان لأصنام العبادة سلطة خاصة على مدينة أو منطقة. وحين كانت أمّة تهزم أخرى لم يكن من غير الشائع بالنسبة للمنتصر أن يزيل أصنام العبادة ويبعدها حيث يتّخذها رهينة. فإذا ما حاول الشعب المهزوم أن يتمرّد، يمكن أن تُدَمَّر أصنام العبادة هذه فيحسب الشعب أنَّ آلهته قد تخلّت عنه. وهذا المفهوم الخاص بجعل الأصنام «حيّة»، كان غريباً تماماً على اليهوديّ. فاليهود، الذين كانوا يتبعون الوصية الثانية بألا يعملوا صوراً للرب، لم يكتفوا بمقاومة النقلة باتجاه صنع الصور الدنيوية، بل حاولوا باستمرار أن يدّمروا كلَّ صور الآلهة الوثنية. وهذا هو التماس الذي اختلطت فيه الثقافة الهلنستية واليهودية، وكانت له نتائجه العنيفة في أغلب الأحيان.

الفصل الرابع

اليهودية قبل المسيح المُنْتَظَر:
العبادة وطقوس الهيكل

«1وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْهَيْكَلِ، قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: «يَامُعَلِّمُ، انْظُرْ! مَا هذِهِ الْحِجَارَةُ! وَهذِهِ الأَبْنِيَةُ!» 2فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَنْظُرُ هذِهِ الأَبْنِيَةَ الْعَظِيمَةَ؟ لاَ يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ».

(مرقس 13: 1-2)

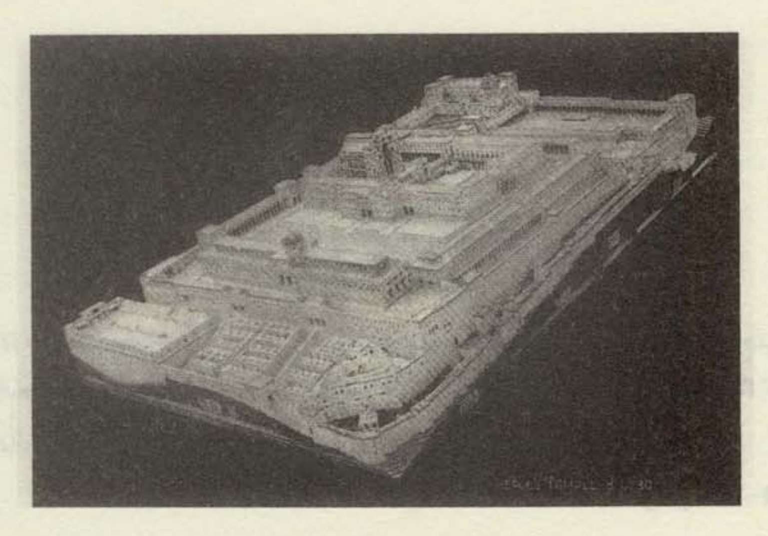
الهيكل اليهودي

منذ أيام سليمان، تركّزت الحياة اليهودية على الهيكل والعبادة الدينية في مدينة أورشليم. وبعد دمار أورشليم والسبي البابلي، تغيّرت الطقوس الدينية. وخلال هذه الفترة نهض المَجْمَع ليتيح استمرار اليهودية في غياب الهيكل. وحين أعاد هيرودس الأكبر بناء الهيكل كانت لديه خطة سليمان العامة ذاتها. واللافت أنَّ العهد الجديد لا يقدّم كثيراً من المعلومات حول الهيكل؛ لكنّ المؤرّخ اليهودي يُوسفوس يُقدّم وَصْفاً لمبانيه مع بعض المعلومات الإضافية المستمدّة من التلمود.

يورد إنجيل مرقس أنَّ الهيكل كان بناءً مهيباً يُشرِف على أورشليم بأسرها. وكانت أهمية الأروقة، المقامة على سلسلةٍ من المصاطب، تزداد حسب ترتيبها، حيث الهيكل هو الأعـلى.

وكانت مباني الهيكل بأسرها، وفقاً ليوسفوس، عبارة عن استاديوم واحد، أو حوالي 630 قدماً، في حين أشار التلمود إلى أنه كان 500 ذراع، أو حوالي 700 قدم[1]. وكان ذروة الإنجاز المعماري الذي أنجزه هيرودس في المدينة. ولم يكن الهيكل تمجيداً لحكم هيرودس وحسب، بل الأهمّ من ذلك أنّه كان تمجيداً لليهودية، التي تتيح لأمّة هيرودس أن تنافس في مجتمعٍ يوناني. وبالنسبة للشخص العادي، كان الهيكل قبلة الدِّين، والأمّة، والفخار.

(1) Herod's Temple Illustration, http: //www. bible-history.com/ jewishtemple/ JEWISH_ TEMPLEHerods_ Temple_Illustration.htm.



نموذج لهيكل هيرودس كما ظهر في 30 ق.م.

بموافقة مكتبة الكونغرس.

وحول مباني الهيكل كان ثمّة أسوار لها بوابات تتحكم بالمرور إلى المباني لا لضمان الأمن وحسب بل أيضاً لضبط الحشود. وكانت للأسوار من الداخل أروقة مُعَمَّدة مضاعفة مرّتين من ثلاث جهات ومضاعفة ثلاث مرّات من الجهة الجنوبية. وهذه الأروقة المُعَمَّدة كانت تقي من الشمس والطقس العاصف. وكانت أسقفها مصنوعة من السدر، بارتفاع 25 ذراعاً، أمّا أرضياتها المرصوفة بالفسيفساء فتتيح النفاذ إلى فناء غير اليهود على كلا جانبيّ بناء الهيكل الأساسي. وباقتراب المرء من منطقة الهيكل الداخلية، كان ثمّة سور عليه نقش ينبّه غير اليهود وغير المطهّرين ألاّ يدخلوا. وفي الجانب الشرقي يدخل المرء من البوابة E أو بوابة نيكانور، المصنوعة من نحاس أصفر كورنثيّ، والتي يبلغ ارتفاعها 40 ذراعاً، وكانت كثيرة الزخرفة، وتُعَدُّ المدخل الأساسي والأهمّ بين مداخل الهيكل.

وهنا، كان فناء النساء، وهو ساحة مربعة طول ضلعها 135 ذراعاً، محاطة بأسوار ذات أروقة معمّدة، وفي الزوايا كان ثمّة حجرات تستخدم لتخزين الخشب غير الملائم لأضحيات المذبح، ولاغتسال المجذومين، وتخزين الشراب والزيت، ولكي يقصّ الناصريون (وهم رجال أخذوا على أنفسهم نذوراً خاصةً) شعورهم ويطبخوا لحم الأضاحي. وإذ يعبر المرء فناء النساء، فإنّه يدخل فناء بني إسرائيل أو فناء الرجال. وتقيس

PALESTINE EXPLORATION FUND.

ΜΗΘΕΝΑΑΛΛΟΓΕΝΗΕΙΣΠΟ
ΡΕΥΕΣΘΑΙΕΝΤΟΣΤΟΥΠΕ
ΡΙΤΟΙΕΡΟΝΤΡΥΦΑΚΤΟΥΚΑΙ
ΠΕΡΙΒΟΛΟΥΟΣΔΑΝΛΗ
ΦΘΗΕΑΥΤΩΙΑΙΤΙΟΣΕΣ
ΤΑΙΔΙΑΤΟΕΞΑΚΟΛΟΥ
ΘΕΙΝΘΑΝΑΤΟΝ

TABLET FROM HEROD'S TEMPLE.

لوحة مأخوذة من هيكل هيرودس. بموافقة مكتبة الكونغرس.

هذه المنطقة 187 ذراعاً طولاً و135 عرضاً وتحيط بـ الهيكل بالمعنى الصحيح للكلمة. وعلى طول الأسوار كان ثمة مخازن للآنية المستخدمة في الهيكل. وإلى الشرق كان ثمة فناء ضيق لا يتجاوز 11 ذراعاً، هو فناء الكهنة الذي يقوم فيه المذبح حيث تُقَدَّم المُحْرقات؛ وإلى الغرب على منصّة مرتفعة كان يقوم الهيكل بالمعنى الصحيح.

وكان المرء يصعد اثنتي عشرة درجة كي يقترب من الهيكل بالمعنى الصحيح، الذي يبلغ كلٌّ من طوله وارتفاعه 100 ذراع. وكان المرء يدخل عبر رواق إلى الموضع المقدّس، الذي كان طوله 40 ذراعاً، وعرضه 20 ذراعاً، وارتفاعه 60 ذراعاً، حيث وُضِع سراج ذهبي واحد، ومنضدة للخبز الذي يمثّل حضور الإله، ومذبح للبخور. وكان ثمّة حاجز خشبي بين الموضع المقدَّس وقدس الأقداس، الذي كان طوله 20 ذراعاً وكان فارغاً لأنَّ تابوت العهد لم يعد هناك. وكان ثمّة حجاب بين هاتين الحجرتين، لعلّه الحجاب الذي تذكره الرواية الإنجيلية، والذي انشقّ لدى موت يسوع[1]، ولمّا كان بأسره داخل قدس الأقداس فإنَّ أحداً لم يكن يراه لأنَّ رئيس الكهنة وحده كان يمكنه الدخول إلى هناك.

(1) « 50 فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. 51وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ.» (متّى 27: 50–51).

حصن أنطونيا

كانت مباني الهيكل بمجملها عبارة عن سلسلة من المصاطب المرتفعة، غدت الأعلى بين أبنية أورشليم، فكانت تُرى من المنطقة المحيطة؛ وفي الزاوية الجنوبية الغربية كان حصن أنطونيا، وهو أعلى بقليل. وهذا الحصن الذي بناه هيرودس وأسماه على اسم مارك أنطوني كان يوفّر الحماية للمدينة. غير أنَّ أبنية هيرودس، خاصةً أعلاها، كانت تثير لدى كثيرٍ من اليهود، خاصةً الزعماء الدينيين، ضروب السخط على هيرودس. وهذا الحصن الذي يوفّر الحماية للمدينة، كان يخلق أيضاً ذلك التوتّر الشديد، بعد أن غدا رمزاً للاضطهاد، اضطهاد هيرودس أولاً ثم اضطهاد روما، التي استخدمت هذا الحصن كي تضمن السيطرة والسكينة. وبذلك كان هذا الحصن سيفاً ذا حدّين. فقد شكّل، من جهةٍ أولى، رمزاً لهيمنة الرومان وأتاح لهم أن يسيطروا على المدينة، لكنه غدا، من جهةٍ ثانيةٍ، رمزاً للاضطهاد ومركزاً للمعارضة. وكان اليهود المحليون ينظرون إليه على أنّه ذلك الشيء الأجنبي الغريب الذي يثير حضوره ضروب الاحتجاج. وكان يمكن لهذه الاحتجاجات أن تؤدّي إلى العنف واحتمال التمرد. ولقد غدا هذا الحصن مركز الجذب خلال الحوادث التي أدّت إلى التمرّد العظيم. وقد أُسِرَ قاطنوه وجرى إذلالهم حين استسلموا بعد حصار.

المسكن

داخل الهيكل كان يقوم المسكن، أو الحرم، حيث يسكن الإله. وفي الهيكل الأصلي الذي بناه سليمان، كان المسكن يحتوي تابوت العهد. وكان له فناء خارجي ومحراب داخلي، هو قدس الأقداس، مفصول بستارة أو حجاب. وفي الفناء الخارجي كانت المينوراه، مُصوَّرةً على قوس تيتوس، ومنضدة لأرغفة الخبز، ومذبح يحرق فيه البخور. وباجتياز الحجاب الداخلي أو الستارة الداخلية يدخل المرء قدس الأقداس أو القُدِش، الذي كان فارغاً عندما بنى هيرودس الهيكل الثاني (الذي دعوناه هنا هيكل هيرودس) لأنَّ تابوت العهد كان قد اختفى بعد سليمان. وغدت المينوراه الرمز الأمْيَز للدولة اليهودية والديانة اليهودية. وهذه المينوراه، التي قيل إنها ترمز للعلّيقة المشتعلة حيث كلّم

لوح من هيكل هيرودس

هو واحدٌ من تلك الألواح التي تحذّر الغرباء من عبور المنطقة المقدّسة، كما يخبرنا يوسفوس. وترجمته على النحو التالي:-

«لا يُسمَح لغريب باجتياز الحاجز حول الهيكل والمنطقة المقدّسة. وكلُّ من يُخالف هو المسؤول عن موته، الذي سوف ينجم عن ذلك».

والمقطع لدى يوسفوس هو على النحو التالي:-

حين تجتاز هذه الأروقة المعمَّدة الأولى إلى الثانية (فناء الهياكل السبعة)، كان ثمة حاجز من الحجر يحيط بها جميعاً، ارتفاعه ثلاثة أذرع، وبناؤه بالغ الأناقة. وقد ارتفعت فوقه أعمدة على مسافات متساوية واحدها عن الآخر، تبيّن قواعد الطهارة، بعضها بالأحرف اليونانية، وبعضها بالأحرف الرومانية، وتبيّن أنَّ «الغريب لا يمكن أن يدخل ذلك الحرم».

ترجمة أحد الألواح من هيكل هيرودس. بموافقة مكتبة الكونغرس

الإله موسى على طور سيناء، كانت تُسْتَخْدَم في المسكن قبل بناء الهيكل ووُضِعَت لاحقاً في الفناء الخارجي في الهيكل. وكانت هذه المينوراه، المصنوعة من قطعة واحدة من الذهب (الخروج 25: 31—40)[1] ، توقد بزيت الزيتون الذي يوضع عند كلِّ طرف من شعبها السبع. والنظريات حول أصولها موضع جدال. حيث ترى إحدى هذه النظريات أنّها مستمدَّة من نبات له شعبٌ سبع ينمو في الصحراء، في حين ترى نظرية أخرى أنها مستمدَّة من الأجرام الكونية السبع المعروفة في ذلك الوقت: الشمس والقمر وعطارد والزُّهرة والمرّيخ والمشتري وزُحل. وثمة فكرة أخيرة مستمدَّة من العقيدة السومرية القديمة المتعلقة بالربّة الأم، التي غدت لاحقاً تمثيلاً للتوحيد. ومن المستحيل أن نحدد أيّاً من هذه هي الأساس الذي يقوم عليه أصل المينوراه، إذا ما كان يقوم على أيٍّ منها.

وكانت المينوراه تُمَثَّل على النقود وغدت مقترنةً بعيد الحانوكا أو عيد تجديد الهيكل،

(1) «31 وَتَصْنَعُ مَنَارَةً مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. عَمَلَ الْخِرَاطَةِ تُصْنَعُ الْمَنَارَةُ، قَاعِدَتُهَا وَسَاقُهَا. تَكُونُ كَأْسَاتُهَا وَعُجَرُهَا وَأَزْهَارُهَا مِنْهَا. 32وَسِتُّ شُعَبٍ خَارِجَةٌ مِنْ جَانِبَيْهَا. مِنْ جَانِبِهَا الْوَاحِدِ ثَلاَثُ شُعَبِ مَنَارَةٍ، وَمِنْ جَانِبِهَا الثَّانِي ثَلاَثُ شُعَبِ مَنَارَةٍ. 33فِي الشُّعْبَةِ الْوَاحِدَةِ ثَلاَثُ كَأْسَاتٍ لَوْزِيَّةٍ بِعُجْرَةٍ وَزَهْرٍ، وَفِي الشُّعْبَةِ الثَّانِيَةِ ثَلاَثُ كَأْسَاتٍ لَوْزِيَّةٍ بِعُجْرَةٍ وَزَهْرٍ، وَهكَذَا إِلَى السِّتِّ الشُّعَبِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْمَنَارَةِ. 34وَفِي الْمَنَارَةِ أَرْبَعُ كَأْسَاتٍ لَوْزِيَّةٍ بِعُجَرِهَا وَأَزْهَارِهَا. 35وَتَحْتَ الشُّعْبَتَيْنِ مِنْهَا عُجْرَةٌ، وَتَحْتَ الشُّعْبَتَيْنِ مِنْهَا عُجْرَةٌ، وَتَحْتَ الشُّعْبَتَيْنِ مِنْهَا عُجْرَةٌ إِلَى السِّتِّ الشُّعَبِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْمَنَارَةِ. 36تَكُونُ عُجَرُهَا وَشُعَبُهَا مِنْهَا. جَمِيعُهَا خِرَاطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. 37وَتَصْنَعُ سُرُجَهَا سَبْعَةً، فَتُصْعَدُ سُرُجُهَا لِتُضِيءَ إِلَى مُقَابِلِهَا. 38وَمِلاَقِطُهَا وَمَنَافِضُهَا مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ. 39مِنْ وَزْنَةِ ذَهَبٍ نَقِيٍّ تُصْنَعُ مَعَ جَمِيعِ هذِهِ الأَوَانِي. 40وَانْظُرْ فَاصْنَعْهَا عَلَى مِثَالِهَا الَّذِي أُظْهِرَ لَكَ فِي الْجَبَلِ».

حين انتُهِكَت حرمة الهيكل وواصل الزيت المتروك في المينوراه اشتعاله بنوعٍ من الإعجاز على مدى ثمانية أيام دون أن يُملأ ثانيةً إلى أن أَمْكَن جَلْبُ زيت مقدَّس جديد إلى الهيكل المقدَّس المُعاد بناؤه. وبعد خراب الهيكل في العام 70م، أخذ الرومان المينوراه من أورشليم وعادوا بها إلى روما فرحين بانتصارهم، حيث وُضِعَت في هيكل السلام الذي بناه فسباسيان، والد الجنرال الفاتح تيتوس، وبقي إلى أن استولى الفاندال[1] على المدينة ونهبوها في العام 455م. وقد نقل الفاندال المينوراه إلى قرطاج، حيث بقيت إلى أن فتحَ الجنرال بيليساريوس من الإمبراطورية الشرقية التي يحكمها جستنيان المدينة فنقلها إلى القسطنطينية. ويقول الكاتب بروكوبيوس، معاصر بيليساريوس، إنّها رُفِعَت ابتهاجاً بالنصر في شوارع العاصمة الشرقية. كما يقول إنها أُرْسِلَت إلى أورشليم، مع أنّه ما من دليل آخر على صحّة هذا القول. وبعد هذه الحادثة فُقِدَت المينوراه.

ولقد غدا المسكن بخطوطه العامة نموذجاً للمجامع، حيث التابوت في الأمام يحوي التوراة ويشكّل الجزء الأَقْدَس من البناء، مثل تابوت العهد، الذي احتوى الوصايا العشر في قدس الأقداس. والمَجْمَع، خاصةً في المجتمعات الحديثة، يحتوي المينوراه ومنصّة مرتفعة حيث تُقْرَأ التوراة، قريباً من المينوراه القديمة والمذبح.

المَجْمَع

يعود أصل المَجْمَع إلى مرحلة النفي بعد خراب هيكل سليمان والسبي البابلي. فالقادة اليهود، الذين لم يكونوا على صلة مع أورشليم والموضع المقدَّس، بدأوا عملية صياغة الشعائر دون الحاجة إلى الهيكل. فقد أدرك هؤلاء القادة أنّه مع تشتّت اليهود، سواء قبل خراب الهيكل أم بعده، كان خطر الزّوال يحيق باليهودية. ولذلك فقد وضعوا خططاً لإقامة أماكن للعبادة فردية وخاصة، هي أسلاف المجامع. وكان على المجامع أن تتجه صوب أورشليم.

(1) الفاندال هم إحدى القبائل الجرمانية الشرقية، اقتطعوا أجزاء من الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي وأسسوا لهم دولة في شمال أفريقيا مركزها مدينة قرطاج وضموا إليها جزيرة صقلية والعديد من جزر البحر المتوسط. يعتقد أن اسم الأندلس مشتق من اسم هذه القبيلة (في الأصل سميت المنطقة فاندلوسيا ثم حوّلها العرب إلى الأندلس) حيث سكنوا جنوب أيبيريا لمدة من الزمن ثم انتقلوا بعدها إلى أفريقيا. في سنة 455 اقتحم الفانداليون مدينة روما وعاثوا فيها فساداً وخربوها تخريباً عظيماً لا سيما الآثار الفنية والأدبية.

والمَجْمَع، أو بيت ها–كنيست، مشتق من كلمة يونانية تعني «يجمع». وكان للمجمع حَرَم ضَخْم حيث تُؤدَّى الصلوات. ومع أنّ التاريخ الدقيق لنشأة المجامع يبقى مجهولاً، إلا أنّها كانت شائعة في القرن الأول الميلادي، وذكرها كلٌّ من يوسفوس وفيلو، والعهد الجديد، والمصادر الحاخامية. ويحمل نَقْش من أورشليم الرسالة التالية:

> *«ثيودوتوس بن فيتينوس الكاهن ورئيس المَجْمَع، ابن رئيس مَجْمَع وحفيد رئيس مَجْمَع، بنى هذا المَجْمَع لقراءة التوراة ودراسة الوصايا ولكي يكون نزلاً بحجراتٍ ومصادر للمياه يلبّي حاجات القادمين من الخارج، بعد أن كان آباؤه، والشيوخ، والسمعانيون قد وضعوا أساساته»*(1).

من الواضح أنه كان ثمّة مَجْمَع حتى في أورشليم، زمن الهيكل، ولم يكن يُسْتَخْدَم للصلاة فقط بل كنزل أو فندق. ولعلّه كان يُنْظَر إلى المَجْمَع آنئذٍ ليس كمركز للعبادة وحسب بل أيضاً كمكان للضيافة. وما يعنيه هذا هو أنَّ وظيفة المجامع كانت تمتدّ أبعد من المبنى الفعلي. ومن المعقول أن نفترض أنَّ المجمع لم يكن الجزء الوحيد الذي يتألف منه هذا البناء المركَّب. ولعل النقش الذي أوردناه يشير إلى فكرة مفادها أنَّ نزلاً أو فندقاً كان يتّصل بمكان العبادة، أي بما ندعوه المَجْمَع، الأمر الذي يمكن أن نرى شبيهاً له في الرهبانيات والأديرة المسيحية، التي كانت تحتوي مضافات متصلة بها.

ونجد في التلمود أنَّ المَجْمَع، مثل الهيكل، ينبغي أن يكون أعلى نقطة في المدينة، وأبوابه تفتح على الشرق. وينبغي أن توجَّه مقدمته نحو التيڤا أو صندوق اللفافات الموضوع على جدار متراصف مع أورشليم. وعلى الشيوخ أن يجلسوا في مواجهة الشعب وظهورهم إلى القُدْس (أورشليم)، و كذلك التيڤا الذي يواجه الشعب وظهره إلى القُدِس، في حين يواجه الشعب القُدِس.

غير أنَّ المجامع لم تكن على غرار واحد. فقد كان هنالك ثلاثة أنماط كبرى عمل الآثاريون على تصنيفها من خلال أكثر من 100 مجمع معروف منذ القدم في فلسطين. فثمة البيت الواسع، حيث تتجه الجدران نحو الشرق ويكون بينها واحد أطول أو أعرض،

(1) Steven Fine, «Synagogues in the Land of Israel», in Near Eastern Archaeology: A Reader, ed. Suzanne Richard, pp.455-64 (Winona Lark, IN: Eisenbrauns, 2003),p.455.

ويكون مقام التوراة على الجدار الأعرض المتراصف مع أورشليم. وثمة البيت الطويل المؤلَّف من ردهة أو قاعة مركزية، ويكون مقام التوراة على منصّة على الجدار المتراصف مع أورشليم. وكان يوضَع بجانب مقام التوراة، الذي يُدعى الأرونا، مينوراه بسبع شعب. ولاحقاً، كانت توضع في بعض الأحيان ستارة تفصل مقام التوراة عن بقية الواجهة. أما النمط الثالث فهو الجليلي، الذي وجد في كفر ناحوم منذ القرن الثاني أو الثالث للميلاد. وهو مَجْمَع ضخم لم يكن يوجد في غير مكان وكانت الأعمدة داخله مرتّبة بشكل حرف U.

و لا يقتصر الأمر في العهد الجديد على أنَّ يسوع كان يأتي إلى المجامع (متّى 12: 9؛ لوقا 4: 44)[1] بل يتعدّاه إلى أنّه كان يقرأ بصوت مرتفع مقاطع من العهد القديم، الذي لا يشتمل على التوراة وحدها بل كذلك على أعمال أخرى، مثل سفر أشعيا (لوقا 4: 16–17)[2]. وبعد قراءة المقطع كان يسوع يشرح القراءة المختارة أو يفسّرها، مقدّماً النُّصح والموعظة. وكان المَجْمَع عندئذٍ يعمل كصلة وصل بين القديم والجديد. فالمجمع بتوجّهه نحو الهيكل كان يتيح ليهودية العهد القديم، قبل النفي، أن ترتبط بواقعٍ جديد يتمثّل بانتشار اليهودية أبعد من حدودها التقليدية. ومن الواضح في رسائل بولس وأعمال الرسل أنَّ بولس كان يتكلّم في المجامع (أعمال الرسل 13: 5، 15، 14: 1)[3]. إذ سعى أولاً لأن يجلب الدين الجديد إلى اليهود ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى أبعد منهم فيهدي غير اليهود.

المجامع في روما

لم يقتصر وجود المجامع على كثيرٍ من مدن الشرق، بل امتدّ إلى روما أيضاً. ولابدّ من أن يكون المسيحيون الأوائل في روما، ممن تبعوا بطرس وبولس، قد أقاموا

(1) «9ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَى مَجْمَعِهِمْ» (متّى).
«44فَكَانَ يَكْرِزُ فِي مَجَامِعِ الْجَلِيلِ» (لوقا).

(2) «16وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَ قَدْ تَرَبَّى. وَدَخَلَ الْمَجْمَعَ حَسَبَ عَادَتِهِ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَامَ لِيَقْرَأَ، 17فَدُفِعَ إِلَيْهِ سِفْرُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ «

(3) «5وَلَمَّا صَارَا فِي سَلاَمِيسَ نَادَيَا بِكَلِمَةِ اللهِ فِي مَجَامِعِ الْيَهُودِ».
«15وَبَعْدَ قِرَاءَةِ النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ، أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُؤَسَاءُ الْمَجْمَعِ قَائِلِينَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، إِنْ كَانَتْ عِنْدَكُمْ كَلِمَةُ وَعْظٍ لِلشَّعْبِ فَقُولُوا».
«1وَحَدَثَ فِي إِيقُونِيَةَ أَنَّهُمَا دَخَلاَ مَعًا إِلَى مَجْمَعِ الْيَهُودِ وَتَكَلَّمَا، حَتَّى آمَنَ جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالْيُونَانِيِّينَ».

صلةً بالمجامع اليهودية. فحين وصل بطرس إلى المدينة في أربعينيات القرن الأول الميلادي، من الطبيعي أن يكون قد استخدم أصله وتراثه اليهوديين لكي يبدأ نشاطه التبشيري في روما. وخلال هذه الفترة ربما كان في روما خمسة مجامع؛ وكان أحدها، مجمع العبرانيين، موجوداً منذ أواخر الجمهورية، في حين أُقيم اثنان آخران في عهد أغسطس، تكريماً له ولصهره ماركوس أغريبا. وكان ثمة مجمع رابع تكريماً لهيرودس الأكبر ولعله بُني في عهد أغسطس أيضاً. أمّا المجمع الخامس فلعله أقيم تكريماً لفولومينوس، نصير العوام في سوريا، وراعي اليهود. وكانت مواضع هذه المجامع في منطقة التيبر في المنطقة 14، التي هي تراستيفير الحالية. وكان من المعروف أنَّ في هذه الأنحاء عدد ضخم من المهاجرين، خاصةً أولئك الذين يعملون في شَحْن مراكب التيبر وإفراغها.

ومع أنّه لا توجد أيّة بقايا أثرية لمجامع روما القديمة، فقد اكتُشِفَ بالقرب من أوستيا، ميناء روما، مجمعٌ يعود إلى القرن الأول وجرى التنقيب فيه. وكان هذا البناء قد أقيم كمجمع أصلاً، بعكس المواضع الأخرى، بما فيها التي كانت في روما، والتي يبدو أنها كانت في الأصل بيوتاً خاصة ثم تحولت إلى مجامع.

الفنّ اليهودي

لطالما أَبْدَت اليهودية على مَرِّ تاريخها ذلك التقيّد الصارم في ما يتعلّق بالفنّ. وكان الفنّ اليهودي قد وُلِدَ من أجل الجماعة اليهودية على وجه الحصر وتبعاً لقوانين محدَّدة. وقد اتّسم فنّ الهيكل الثاني بأنّه فنٌّ تزيينيّ، يحفل برموز الطبيعة. فبخلاف الفن الهلنستي، الذي يحتفي بالأشخاص، قام الفنّ اليهودي على النماذج النباتية، والهندسية، والمعمارية. وتجنّب تصوير البشر، والأهمّ من ذلك أنّه لم يصوّر الإله أيّ تصوير. وهذه القيود نجمت عن تأويل الوصية التي تحرّم صنع التماثيل المنحوتة أو الصور ممّا في السماء من فوق وما في الأرض من تحت. ويذكر يوسفوس تخريب الغوغاء قصر هيرودس أنتيباس لأنه كان مزيّناً بصور حيوانات. وبعد خراب الهيكل تواصل الفنّ اليهودي في المجمع، غير أن فنّ التصوير تطور مع نهاية القرن الثاني الميلادي. وباتت تُرى مشاهد من الكتاب المقدّس،

ودائرة البروج، فضلاً عن النماذج النباتية والهندسية والمعمارية التقليدية[1].

الأضاحي والأعياد

كانت الأضحية عنصراً مهماً في الهيكل وفي المجتمع اليهودي. فالهيكل كان يشهد تقدمات في الصباح وبعد الظهر تُتْلى فيها صلوات مثل البَرْكو، والشيما، وبركة الكاهن. وخلال هذه الصلوات تُتْلى المزامير. وهذه الأضحيات اليومية تتعزز من ثمّ بتقدمات السبت والأعياد اليهودية.

والتقدمات، أو القُرْبان (والجمع قُرْبانوت)، يؤدّيها الكُهانيم (والمفرد كُهين)، أي الكهنة اليهود، في الهيكل. والأضحية هي تكريم ليهوه وعلامة على الميثاق أو العهد بين الإله واليهود. وعادةً ما كانت الأضحية حيواناً، الأمر الذي تسوّغه قصة قبول الإله الحَمَل الذي قدّمه هابيل وعدم قبوله أثمار الأرض التي قدّمها قابيل. وكان الحيوان يُقْتَل بحسب الشعائر ثم يُطْبَخ تنفيذاً للشطر الذي يخصّ اليهود من الميثاق. ويمكن لهذا الحيوان أن يكون ثوراً أو كبشاً، وكان الكهنة يأكلون بعض الأجزاء المطبوخة في حين يُتْرَك بعضها الآخر ليحترق (أي ليأكله الإله). ولعلّ أضاحي الثيران والأكباش اقتصرت على الأثرياء أو في المناسبات الخاصة، لأنَّ القُرْبانوت يمكن أن تشتمل على الحمام والحنطة والبخور، وسواها من المواد.

ومع خراب أورشليم في العام 70م، لم يُخَرَّب الهيكل وحسب بل تلاشى أيضاً مفهوم الأضحية ذاته. ولأنَّ الرومان حالوا دون إعادة بناء الهيكل، فقد انتهت ممارسة الأضحية اليهودية. وهنا راح المجمع يلعب دوراً أشدّ أهمية، وبات مركز الديانة اليهودية. وبذلك حقق الفرّيسيون نصراً على الصدوقيين وشعائر الهيكل.

والكاهن هو الذي كان يؤدي تضحيات الهيكل. وكان الكهنة ذكوراً من نسل هارون، أخي موسى، الذين كانت لهم مواصفات خاصة. ولأنّ هارون من بيت لاوي، فإنّ جميع الكهنة كانوا لاويين. غير أنَّ كون المرء من بيت لاوي لا يعني أن يغدو كاهناً بصورة آلية. وأولئك الذين لم يصبحوا كهنةً كان بمقدورهم أن يقدّموا المساعدة

(1) -Rachel Hachlili, «Jewish Art and Iconography in the Land of Israel», in Near Eastern Archaeology: A Reader, ed. Suzanne Richard, pp. 445-54 (Winona Lark, IN: Eisenbrauns, 2003).

في الهيكل، كحرّاس أو عمّال أو معاونين. واعتاد الكهنة أن يبدأوا واجباتهم في عمر العشرين ويواصلوا الخدمة حتى الستين، عندما يتقاعدون. وكان على الراغب في أن يصير كاهناً أن يمتلك مواصفات معينة إلى جانب كونه لاوياً، وذكراً، وفي العشرين من عمره. فكان ممنوعاً أن يكون فيه عيب جسدي، كأن يكون مصاباً بالعمى أو البرص أو العرج أو في عينه بياض، وسوى ذلك (قائمة كاملة نجدها في سفر اللاويين 21: 16– 20)[1]. والفكرة وراء هذه القيود كانت لئلا يُدَنّس الهيكل. واعتاد الكهنة أن يتلقوا إعالتهم ومكافآتهم من أعطيات الهيكل على هيئة طعام وملابس، بل وأراض.

وقد فرضت قواعد معينة على الكهنة تحول دون تنجيسهم. وعلى سبيل المثال، لم يكن بمقدور الكاهن أن يمسّ الموتى، حتى في أثناء شعائر الحداد المعتادة، ما عدا أقربائهم الأقرب: الأب والأم والأخ، وما إلى ذلك. بل إن ذلك توسّع ليطاول دخول مبنى فيه ميت، أو حتى دخول مقبرة. ولم يكن بمقدور الكاهن أن يتزوج من مطلَّقة أو مُهْتَدِية ولا من زانية بالطبع. فإذا ما تزوج كاهن من مثل هاته النساء يظلّ الزواج سارياً والأولاد شرعيين، لكنهم لا يستطيعون أن يكونوا كهنة. ولا يمكن لرئيس الكهنة أن يتزوج إلا من عذراء.

وواحدٌ من الكهنة يغدو رئيس الكهنة أو كُهين غَدُول. وعمله الرئيس هو أن يشرف على خدمة يوم كيبور (عيد الغفران). وفي عهد هيرودس الأكبر والرومان، غدا رئيس الكهنة أقرب إلى المنصب السياسي لضمان سير الدولة اليهودية والسلطات الدنيوية سيراً سلساً. وصار يدين بموقعه لقوة خارجية. وبات يُختار اختياراً وأصبح ألعوبة بيد الدولة الدنيوية. ولعلَّ بعضهم راح ينظر إلى هذا الموقع على أنّه إفساد للدين. ولعلَّ هذه النظرة قد أمدّت كثيراً من الغيورين (الزيلوت) بالحجّة لمعاقبة رؤساء الكهنة بوصفهم خونة.

ولقد تركَّز كلٌّ من الهيكل ووظائف طبقة الكهنة على الاحتفالات أو الأعياد اليهودية الكبرى، التي يبلغ تعدادها سبعة أعياد. وكانت أعياد دينية وزراعية على السواء، أي أنها تركّزت على إرث التجربة اليهودية الدينيّ لكنها تُعْقَد في مواسم الحياة الزراعية. فالأول،

(1) « 16وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: 17»كَلِّمْ هَارُون قَائِلاً: إِذَا كَانَ رَجُلٌ مِنْ نَسْلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ فِيهِ عَيْبٌ فَلاَ يَتَقَدَّمْ لِيُقَرِّبَ خُبْزَ إِلهِهِ. 18لأَنَّ كُلَّ رَجُل فِيهِ عَيْبٌ لاَ يَتَقَدَّمْ. لاَ رَجُلٌ أَعْمَى وَلاَ أَعْرَجُ، وَلاَ أَفْطَسُ وَلاَ زَوَائِدِيٌّ، 19وَلاَ رَجُلٌ فِيهِ كَسْرُ رِجْل أَوْ كَسْرُ يَدٍ، 20وَلاَ أَحْدَبُ وَلاَ أَكْشَمُ، وَلاَ مَنْ فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ، وَلاَ أَجْرَبُ وَلاَ أَكْلَفُ، وَلاَ مَرْضُوضُ الْخُصَى».

الفصح، يُحْتَفَل به في الربيع في اليوم الرابع عشر من الشهر الأول ويستهلّ التقويم الديني اليهودي. وتتمثّل أهميته الزراعية في أنّه يبدأ موسم الحصاد. ولعلّ الاحتفال القديم بهذا الجزء من العيد أن يكون قد جاء من احتفالٍ سابقٍ متركّزٍ على حياة المجتمع الزراعية. غير أنَّ الإلحاح الأكبر، اللاحق، كان على الاحتفاء بالاستقلال. ذلك أنَّ الفصح يحتفل بخروج اليهود من مصر (الخروج 11—14) وبـ «عبور» ملاك الموت عن اليهود، حين رشّوا دم الحملان على عتبات أبوابهم، لئلا يُقْتَل كلُّ بِكْرٍ لهم. ويرتبط بهذا العيد صيام البِكْر، الذي يُحْتَفَلَ به في اليوم الذي يسبق الفصح، وهو اليوم الذي صام فيه الذكور الأبكار احتفالاً بنجاتهم حين نزلت الضربة الأخيرة بأرض مصر. كما يحتفل الفصح بخروج اليهود بعامتهم من مصر وعبورهم البحر الأحمر. وعلى مدى سبعة أيام بعد الفصح، يكون عيد الفطير، عندما يُستَخْدَم الماتزاه أو الخبز الخالي من الخمير (الخروج 12: 15— 28)[1]. وهذا العيد، المقترن مع الفصح، يريد مرّة أخرى أن يبيّن كيف كان على اليهود أن يعجّلوا في فرارهم من مصر لضمان نجاتهم. وأخيراً، في اليوم الأخير من عيد الفطير يكون الاحتفال بالثمار الأولى: وهنا، يأخذ اليهود إلى الهيكل أبكار بهائمهم، وأول حصادهم من الشعير والحنطة، وأولى ثمارهم. وهذه الاحتفالات الثلاثة تحتفي بمكابدات اليهود لدى تحررهم من أسيادهم المصريين.

(1) «15» سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُونَ فَطِيرًا. الْيَوْمَ الأَوَّلَ تَعْزِلُونَ الْخَمِيرَ مِنْ بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَكَلَ خَمِيرًا مِنَ الْيَوْمِ الأَوَّلِ إِلَى الْيَوْمِ السَّابعِ تُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ إِسْرَائِيلَ. 16وَيَكُونُ لَكُمْ فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مَحْفَلٌ مُقَدَّسٌ، وَفِي الْيَوْمِ السَّابعِ مَحْفَلٌ مُقَدَّسٌ. لاَ يُعْمَلُ فِيهِمَا عَمَلٌ مَا إِلاَّ مَا تَأْكُلُهُ كُلُّ نَفْسٍ، فَذلِكَ وَحْدَهُ يُعْمَلُ مِنْكُمْ. 17وَتَحْفَظُونَ الْفَطِيرَ لأَنِّي فِي هذَا الْيَوْمِ عَيْنِهِ أَخْرَجْتُ أَجْنَادَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَتَحْفَظُونَ هذَا الْيَوْمَ فِي أَجْيَالِكُمْ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً. 18فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ، فِي الْيَوْمِ الرَّابعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، مَسَاءً، تَأْكُلُونَ فَطِيرًا إِلَى الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ مَسَاءً. 19سَبْعَةَ أَيَّامٍ لاَ يُوجَدْ خَمِيرٌ فِي بُيُوتِكُمْ. فَإِنَّ كُلَّ مَنْ أَكَلَ مُخْتَمِرًا تُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ، الْغَرِيبُ مَعَ مَوْلُودِ الأَرْضِ. 20لاَ تَأْكُلُوا شَيْئًا مُخْتَمِرًا. فِي جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ تَأْكُلُونَ فَطِيرًا».
21فَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمُ: «اسْحَبُوا وَخُذُوا لَكُمْ غَنَمًا بِحَسَبِ عَشَائِرِكُمْ وَاذْبَحُوا الْفِصْحَ. 22وَخُذُوا بَاقَةَ زُوفَا وَاغْمِسُوهَا فِي الدَّمِ الَّذِي فِي الطَّسْتِ وَمُسُّوا الْعَتَبَةَ الْعُلْيَا وَالْقَائِمَتَيْنِ بِالدَّمِ الَّذِي فِي الطَّسْتِ. وَأَنْتُمْ لاَ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ بَابِ بَيْتِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ، 23فَإِنَّ الرَّبَّ يَجْتَازُ لِيَضْرِبَ الْمِصْرِيِّينَ. فَحِينَ يَرَى الدَّمَ عَلَى الْعَتَبَةِ الْعُلْيَا وَالْقَائِمَتَيْنِ يَعْبُرُ الرَّبُّ عَنِ الْبَابِ وَلاَ يَدَعُ الْمُهْلِكَ يَدْخُلُ بُيُوتَكُمْ لِيَضْرِبَ. 24فَتَحْفَظُونَ هذَا الأَمْرَ فَرِيضَةً لَكَ وَلأَوْلاَدِكَ إِلَى الأَبَدِ. 25وَيَكُونُ حِينَ تَدْخُلُونَ الأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكُمُ الرَّبُّ كَمَا تَكَلَّمَ، أَنَّكُمْ تَحْفَظُونَ هذِهِ الْخِدْمَةَ. 26وَيَكُونُ حِينَ يَقُولُ لَكُمْ أَوْلاَدُكُمْ: مَا هذِهِ الْخِدْمَةُ لَكُمْ؟ 27أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: هِيَ ذَبِيحَةُ فِصْحٍ لِلرَّبِّ الَّذِي عَبَرَ عَنْ بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ لَمَّا ضَرَبَ الْمِصْرِيِّينَ وَخَلَّصَ بُيُوتَنَا». فَخَرَّ الشَّعْبُ وَسَجَدُوا. 28وَمَضَى بَنُو إِسْرَائِيلَ وَفَعَلُوا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ. هكَذَا فَعَلُوا».

والعيد الكبير الرابع هو عيد الحصاد أو الشاڤوت، الذي يحتفي اليهود فيه بتلقي موسى الوصايا العشر على طور سيناء من الربّ بعد خمسين يوماً من الفصح (الخروج 19—20). ويقع هذا الاحتفال أيضاً في أثناء حصاد الحنطة. ولعلّه يعود في أصله أيضاً إلى عيد زراعي أقدم تمّ تبنّيه لأغراض دينية تخصّ الديانة التوحيدية الجديدة.

والعيد الخامس هو الروش هاشاناه أو عيد الأبواق (سفر اللاويين 23: 23—25)[1]، الذي يستهلّ السنة المدنية الجديدة في اليوم الأول من الشهر السابع، الذي يوافق إمّا سبتمبر أو أكتوبر. وهو بداية عشرة أيام من الكفّارة تنتهي بـ«يوم الغفران»، أو «يوم كيبور»، وهو العيد السادس. ويوم كيبور أو يوم الغفران هو أقدس يوم في التقويم اليهودي. وهو اليوم الوحيد الذي كان يمكن فيه لرئيس الكهنة أن يدخل قدس الأقداس ليستغفر للشعب اليهودي.

والعيد السابع هو عيد المظالّ (سَكّوت). ويعود أصل هذا العيد أيضاً إلى الدورة الزراعية ويذكّر اليهود بتيههم في الصحراء. وهو العيد الأخير ويقع بعد خمسة أيام من «يوم كيبور». وهو وقت احتفال وبهجة ويدوم سبعة أيام.

تحتفي هذه الأعياد بصورة أساسية بخروج اليهود من مصر وتيههم في الصحراء. غير أنها تشتمل أيضاً على إلماعات إلى تاريخهم الأسبق ومعناه، أي إلى الزراعة. ولقد حاولت اليهودية، مثل كثيرٍ من الديانات، أن تجمع معاً احتفالات تقليدية شائعة في الحياة الريفية، كالاحتفال بالزرع والحصاد، وإيديولوجيا دينية. وبفعلها ذلك اختفى المكوّن الزراعي في النهاية، لتحلّ محلّه الإيديولوجيا الدينية.

وفي زمن العهد الجديد كان يُحْتَفَل بهذه الأعياد. وتذكر الأناجيل الفصح وعيد الحصاد. أما في الأعمال اللاحقة من العهد الجديد فلا يُعْلَن عن تلك الأعياد لأنَّ هذه الأعمال كانت تُعنى بجماعات ليس لها باليهود تلك الصلة القوية، أو ليس لها بهم أية صلة، أو تُعنى بخلافات وانشقاقات محلية. غير أنَّ الأناجيل تؤكّد بوضوح على عيد الفصح. لأنّ فترة هذا العيد هي الفترة التي صُلِبَ فيها يسوع وقام من بين الأموات بحسب تلامذته.

(1) «23 وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: 24»كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: فِي الشَّهْرِ السَّابعِ، فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ يَكُونُ لَكُمْ عُطْلَةٌ، تَذْكَارُ هُتَافِ الْبُوقِ، مَحْفَلٌ مُقَدَّسٌ. 25عَمَلاً مَا مِنَ الشُّغْلِ لاَ تَعْمَلُوا، لكِنْ تُقَرِّبُونَ وَقُودًا لِلرَّبِّ».

التنجيم والسحر

على الرغم من اقتران اليهودية بالتوحيد، فإنَّ قوى أخرى تركت أثرها على كلٍّ من المجتمع والتصوّر اليهوديين. فقد نشأت اليهودية في الشرق وكانت ساميّة، وكان لقوى أخرى في المنطقة أن تؤثّر على هذه الديانة وتصوراتها الغربية. وكان السحر ومعه التنجيم واحدة من هذه القوى. وفي زمن العهد الجديد كثيراً ما احتشد اليهود حول الساحرات والسحرة. ففي أعمال الرسل ثمة رجل من السامرة يستعمل السحر، ويُدعى سيمون، يحاول أن يشتري قدرات المسيح من بطرس، وكانت تلك بداية خطيئة السيمونيّة؛ أي شراء قدرات الكنيسة (أعمال الرسل 8: 9–24)[1]. ويشير هذا المقطع إلى أنَّ سيمون كان ساحراً له شعبيته ويُنْظَر إليه على أنّه يمتلك قدرات عظيمة. ولا ينبغي أن يُنْظَر إلى تصوّره إمكانية شراء قدرات المسيح على أنّه تَعَدٍّ شائن من قِبَل غير اليهود لأنَّ سيمون لا يبدو أنه كان يشكّ في صحّة تلك القدرات، بل يرغب في الحصول عليها وحسب.

ولا ينبغي أن نستخفّ بما كان للسحر من قوة ونفوذ. فهناك كثير من أوراق البردى التي تشتمل على عقاقير، ولعنات، ورقىً سحرية باقية من الأزمنة القديمة. ولقد قيل إن بعض هذه العقاقير كانت بيد يهود متعلّمين، مثل ماريا اليهودية، التي يُقال إنّها كانت تحوز معرفة بالكيمياء، أي القدرة على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. وقد طارت شهرتها في أرجاء مصر خلال القرن الثالث الميلادي، وانتشرت النصوص السحرية التي تدّعي قدرتها انتشاراً واسعاً وبعيداً. وكان يُقْصَد ببعض الرقى واللعنات الشعبية أن تؤذي

(1) «9وَكَانَ قَبْلاً فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ اسْمُهُ سِيمُونُ، يَسْتَعْمِلُ السِّحْرَ وَيُدْهِشُ شَعْبَ السَّامِرَةِ، قَائِلاً إِنَّهُ شَيْءٌ عَظِيمٌ!. 10وَكَانَ الْجَمِيعُ يَتْبَعُونَهُ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ قَائِلِينَ: «هذَا هُوَ قُوَّةُ اللهِ الْعَظِيمَةُ». 11وَكَانُوا يَتْبَعُونَهُ لِكَوْنِهِمْ قَدِ انْدَهَشُوا زَمَانًا طَوِيلاً بِسِحْرِهِ. 12وَلكِنْ لَمَّا صَدَّقُوا فِيلُبُّسَ وَهُوَ يُبَشِّرُ بِالأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللهِ وَبِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، اعْتَمَدُوا رِجَالاً وَنِسَاءً. 13وَسِيمُونُ أَيْضًا نَفْسُهُ آمَنَ. وَلَمَّا اعْتَمَدَ كَانَ يُلاَزِمُ فِيلُبُّسَ، وَإِذْ رَأَى آيَاتٍ وَقُوَّاتٍ عَظِيمَةً تُجْرَى انْدَهَشَ.
14وَلَمَّا سَمِعَ الرُّسُلُ الَّذِينَ فِي أُورُشَلِيمَ أَنَّ السَّامِرَةَ قَدْ قَبِلَتْ كَلِمَةَ اللهِ، أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا، 15اللَّذَيْنِ لَمَّا نَزَلاَ صَلَّيَا لأَجْلِهِمْ لِكَيْ يَقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ، 16لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَلَّ بَعْدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُعْتَمِدِينَ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ. 17حِينَئِذٍ وَضَعَا الأَيَادِيَ عَلَيْهِمْ فَقَبِلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ. 18وَلَمَّا رَأَى سِيمُونُ أَنَّهُ بِوَضْعِ أَيْدِي الرُّسُلِ يُعْطَى الرُّوحُ الْقُدُسُ قَدَّمَ لَهُمَا دَرَاهِمَ 19قَائِلاً: «أَعْطِيَانِي أَنَا أَيْضًا هذَا السُّلْطَانَ، حَتَّى أَيُّ مَنْ وَضَعْتُ عَلَيْهِ يَدَيَّ يَقْبَلُ الرُّوحَ الْقُدُسَ». 20فَقَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «لِتَكُنْ فِضَّتُكَ مَعَكَ لِلْهَلاَكِ، لأَنَّكَ ظَنَنْتَ أَنْ تَقْتَنِيَ مَوْهِبَةَ اللهِ بِدَرَاهِمَ! 21لَيْسَ لَكَ نَصِيبٌ وَلاَ قُرْعَةٌ فِي هذَا الأَمْرِ، لأَنَّ قَلْبَكَ لَيْسَ مُسْتَقِيمًا أَمَامَ اللهِ. 22فَتُبْ مِنْ شَرِّكَ هذَا، وَاطْلُبْ إِلَى اللهِ عَسَى أَنْ يُغْفَرَ لَكَ فِكْرُ قَلْبِكَ، 23لأَنِّي أَرَاكَ فِي مَرَارَةِ الْمُرِّ وَرِبَاطِ الظُّلْمِ». 24فَأَجَابَ سِيمُونُ وَقَالَ: «اطْلُبَا أَنْتُمَا إِلَى الرَّبِّ مِنْ أَجْلِي لِكَيْ لاَ يَأْتِيَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْتُمَا».

أحداً ما أو أن تحميه.

ويذكر العهد الجديد أيضاً منجّمين، اشتُهِروا بين العامّة باسم «الحكماء». وهؤلاء الأشخاص، الذين يذكرهم إنجيل متّى، لم يكونوا يهوداً بل مجوساً أو منجّمين من المشرق، دون أن يُحَدَّد موطنهم الأصلي ذلك التحديد الدقيق. وتُعامَل زيارتهم، بلاط هيرودس الأكبر أولاً ثم يسوع ومريم ويوسف، على أنّها واقعة حقيقية. حيث يُقال إنّهم شَهِدوا ظهور نجم وتبعوا مساره واستشاروا خرائطهم. وهذه القصة، التي قد لا تكون حقيقية، إنّما تقدّم مادةً لعلّها لم تُثِر شكوك القارئ. فمثل هؤلاء الحكماء أو المجوس كان يُنْظَر إليهم على أنّهم من الأمور اليومية المعتادة. ومع أنَّ اليهودية لم تتغاضَ عن استخدام السحر أو التنجيم، فإنَّ مجتمعات أخرى في الشرق الأدنى كانت تدافع عنه وتستخدمه (متّى 2: 1– 12)[1]. ولكن لماذا يذكر إنجيل متّى هذه الحادثة؟ يكمن جزءٌ من السبب في جعل مولد يسوع في بيت لحم، غير أنّها يمكن أيضاً أن تكون قد استُخدمت كرسالة إلى غير اليهود في فلسطين. فالمنطقة كانت تعجّ بالثقافات والديانات المختلفة، ومن شأن مثل هذه القصة أن تفسح المجال أمام قبول الرسالة المسيحية بين غير اليهود.

وكان كثير من اليهود يستخدمون السحر والتنجيم سرّاً ويتطلّعون إلى السحر طلباً لحمايتهم. ولقد ظلّت التعاويذ تحظى بالشعبية، إذ رأى كثيرون أنّها ذات قدرات. وليس مهماً ما إذا تأتت هذه القدرات عن نوع من أنواع الإيمان النفسي أم عن الخرافة؛ فما كان يهمّ المرء هو أنَّ التعويذة تتيح له أن يشعر بالحماية. وإضافةً إلى التعاويذ، انتشرت أشكال أخرى من السحر، مثل الرّقى التي تستخدم لكلٍّ من الخير والشرّ، من قبيل حماية شخصٍ

(1) « 1 وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ 2قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». 3فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ. 4فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: «أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟» 5فَقَالُوا لَهُ: «فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ. لأَنَّهُ هكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ: 6وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ، أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا، لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ».

7حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ. 8ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ، وَقَالَ: «اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ. وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ». 9فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. 10فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. 11وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا. 12ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَنْ لاَ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِي طَرِيقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ».

أو إنقاذه. فمن خلال التلفّظ بكلمات معينة بترتيبٍ وتسلسلٍ محدّدين، كان ينبغي أن يَسْلَم هذا الشخص. ومن الرقى الحميدة الأخرى ما كان يُستَخْدَم للإنجاب. وبالمقابل، استخدمت الرقى لأغراض خبيثة. فثمة رُقى يُقصَد بها خراب أحدٍ ما. وعلى سبيل المثال، فإنّ هنالك رقى يراد لها أن تسبب الألم لحبيب سابق، أو الموت لغريم في الحبّ أو في الحياة. وهكذا انتشر السحر والتنجيم في السرّ واستخدما لتهدئة خواطر البشر.

وقد اقترن الطبّ في تلك الأزمنة بكلٍّ من السحر والتنجيم. واشتُهِر اليهود، خاصةً النساء اليهوديات، باستخدام العقاقير والأعشاب. وتمّع الطبّ اليهوديّ، الذي أخذ عن ثقافات أخرى داوم اليهود على الاحتكاك بها، بالتقدير في أرجاء المتوسط. غير أنَّ هذا التقدير لم يَعُد على اليهود بالإعجاب وحده بل بالازدراء أيضاً. فاليهود المتضلعون من الطب، الذي يخلّص المرء من الألم والمعاناة، كانوا محلّ طلب كثيرٍ من الأثرياء والقادرين، وسرعان ما حظوا بالسلطة والهيبة. إلا أنَّ هذه السلطة الحديثة ذاتها جعلتهم عرضةً للهجوم. فهوية اليهود كان يسهل تحديدها، وكان من السهل أن يوصم طبيب يهودي ناجح بأنّه ساحر، الأمر الذي عرّضهم لهجمات قانونية وشعبية. وكان القانون الروماني يقف في صفّ المدّعي أما الرأي العام الروماني فيشجّع الأحكام ضد اليهود.

كان السحر والتنجيم ممنوعين رسمياً لدى الرومان، لكنهما كانا يُستخدمان سرًّاً ويحظيان بالتصديق كما كان عليه الحال في الثقافات الأخرى. ومع أنَّ نظرة الدولة الرومانية تقليدياً إلى ممارسات الشرق الأدنى هذه هي نظرة شكٍّ وارتياب، إلا أنَّ كثيراً من الرومان، الأغنياء والفقراء، الأقوياء والعاديين، دأبوا على استخدام السحر والتنجيم. ومن بين هؤلاء الإمبراطور تيبيريوس، الذي كان لديه منجّمه الخاص، مع أنّه طرد المنجّمين، مع اليهود، من روما وإيطاليا. وأفضل طريقة لِفَهْم هذا الموقف المنافق هي النظر إليه في سياق اختلاف المواقف في المتوسط خلال الحقبة الرومانيّة. فعلى الجانب الرسمي، اعتبر الغرب الروماني المحافظ السحر والتنجيم خطرين عربيدين، منفلتين هدّامين؛ أمّا على الجانب الخصوصي فكان البشر يرغبون في معرفة المستقبل، أو الحصول على الحب أو السعادة أو الثروة، أو إيذاء العدو وتدميره. وهذه الرغبات الفردية تخطّت جميع المجتمعات لأنّها تضرب على وتر الإنسانية جمعاء. وكان يمكن للموظفين الرومان أن يطردوا المنجّمين ثمّ يقوّنهم بعد ذلك إلى جانبهم في السرّ.

ولقد لعب اليهود هذه الأدوار ليس فقط بسبب موقعهم الجغرافي في الشرق الأدنى، بل أيضاً بسبب معرفتهم بالطب. ولأن بعض العلاجات كانت تُصْنَع من الأعشاب والعقاقير، كان هذا في بعض الأحيان يثير الشكّ بالسحر، خاصةً إذا ما اشتمل العلاج على صلوات أو أقوال مأثورة.

سيرة قيافا

شَغل قيافا، رئيس الكهنة في زمن يسوع، هذا المنصب فترةً أطول من أيّ رئيس آخر خلال القرن الميلادي الأول. واسمه الكامل هو يوسف بن قيافا، لكنه عُرف باسم قيافا وحسب، وقد نصَّبه رئيساً للكهنة في العام 18م ڤاليريوس غراتوس، والي اليهودية الذي سبق بيلاطس البنطي (26–36م). وقد احتفظ بسلطته من 18 إلى 37م ويبدو أنه كان على علاقة وثيقة بكلٍّ من غراتوس وبيلاطس. وكان قيافا صهر حنان، رئيس الكهنة من 6–15م. ويبدو أنّ حنّان ظلّ يمارس نفوذه فهو في إنجيل لوقا يُسمَّى رئيساً للكهنة إلى جانب قيافا، مع أنّ هذا الأخير كان رئيس الكهنة الفعلي. وقد عاش قيافا، بوصفه رئيساً للكهنة، في مدينة أورشليم العليا.
ولنا أن نتصوّر أنّه كان يدعم الصدوقيين وأنّه قد شارك في سفارةٍ إلى روما في العام 17م. وحين غدا رئيساً للكهنة كان رئيساً للسنهدرين أو المجلس الكبير، وفي أثناء حكمه أُحْضِر يسوع أمامه وأمام السنهدرين، حيث اتُّهِم بالتجديف والخيانة في آخر الأمر. وفي العام 36 عَزَل ڤيتيليوس، والي سوريا، بيلاطس البنطي، وفي فصح العام 37 عَزَل قيافا أيضاً.
ولعلّ أعمال قيافا والواليين الرومانيين، غراتوس وبيلاطس، قد أدّت إلى شعور عام بالقلق بين العامة. ولعلّ هذا القلق دفع الرومان في النهاية إلى إقالة بيلاطس وصَرْف قيافا آملين أن ينالوا بذلك دعم الشعب.
وفي العام 1990 اكتشف الآثاريون ضريح عائلة قيافا الذي احتوى على 12 مَعْظَمَة، حملت إحداها اسم يوسف بن قيافا مكتوباً بالآرامية. واشتملت البقايا على عظام رجل في الستين من العمر، وامرأة وولدين وطفلين.

الفصل الخامس

ضروبٌ من ترقّب المسيح المُنْتَظَر

«... «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟» ... قَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ!». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ».

(متّى 16: 13–17)

ضروبٌ مختلفةٌ من المسيح المُنْتَظَر

العهد الجديد هو قصة المسيح المُنْتَظَر ومجيئه. وفي حين يعتبر المسيحيون أنَّ يسوع هو المسيح المُنْتَظَر الحقيقي، إلا أنّه لم يكن الوحيد الذي أعلن نفسه مسيحاً مُنْتَظَراً. وأهمية المسيح المُنْتَظَر في اليهودية هي تلك الأهمية التي لا يمكن الاستخفاف بها. وقد اتّخذ شخص المسيح المُنْتَظَر، الموعود منذ بداية اليهودية، وجهاتٍ مختلفةً باختلاف الحال، فكان قائداً دينياً، أو سياسياً أو عسكرياً، أو خليطاً من هؤلاء جميعاً.

ويُقدَّم مسيح العهد الجديد المُنْتَظَر على أنّه مخلِّصٌ دينيّ، شخصٌ سوف يحقق وعد العهد القديم ونبوءته في جَلْب الخلاص لليهود. ومشكلة هذه النبوءة هي أنّه لم يكن واضحاً متى سيأتي المسيح المُنْتَظَر وما الذي سيفعله لكي يجلب هذا الخلاص. ونظراً لاحتلال يهودا على مدى تاريخها الأخير، غالباً ما بَرَزَ نوعٌ من الأمل السياسيّ وكانت له الصدارة على بقيّة الآمال. غير أنَّ العهد الجديد يُبَشِّر بيسوع بوصفه «ابن الله»، أو «المسيح»، أو «أمير السلام». ورسالة يسوع رسالةٌ بسيطة: فهو ابن الله الذي أتى كي يغفر الخطايا ويقود بذلك الشعبَ اليهودي إلى الخلاص. ومن الواضح في العهد الجديد أنه لم يكن لدى يسوع ذلك البرنامج السياسي العنيف، إذ يدعو العهد الجديد بشتّى الطرائق إلى التسوية مع الرومان. وعلى سبيل المثال، فقد سُئِلَ يسوع إنْ كان يجوز أن تُعطى جزية لروما (متّى 22: 15–21)[1]. وكان مكنون السؤال أنّه إذا ما أجاب بلا، فمعنى ذلك أنه يدعو إلى

(1) «15 حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. 16فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ:

التمرد ويمكن إيقافه بتهمة الخيانة؛ وإذا ما أجاب بنعم، يُنْظَر إليه كمتعاون وربّما يعرّض نفسه للهجوم. لكنَّ يسوع دعا إلى إطاعة القوانين المدنية وكذلك إلى إعطاء ما لله لله. وبذلك لم يَدْعُ إلى التمرد. وحتى حين حاكمه بيلاطس البنطي، الوالي الروماني، وأدانه في النهاية بتهمة الخيانة، فإنَّ الصورة في العهد الجديد هي أنَّ بيلاطس قد فعل ذلك على مضض. ونحن إذ نقول هذا، لابدَّ من أن نذكّر بأنَّ العهد الجديد قد كُتِبَ بعد فترة لا بأس بها من وفاة يسوع، وبأقلام تلامذته أو حتى تلامذتهم. وبعبارةٍ أخرى، لعلَّ رسالة يسوع قد تغيّرت بتغيّر الوقائع السياسية بعد التمرد اليهودي. فعلى الرغم من أنَّ رسالته ربما كانت رسالة سلام، لعلّه ضَمَّنَها بعض المشاعر المعادية للرومان لم تلبث أن حُذِفَت ما إنْ حاول المسيحيون أن ينأوا بأنفسهم عن التمرد اليهودي.

غير أنَّ صورة يسوع المرسومة في العهد الجديد لم تكن صورة المسيح المُنْتَظَر الوحيدة. ذلك أنَّ الأمل كان يحدو كثيرين بأن يكون المسيح المُنْتَظَر شخصية سياسية، وخليفةً للمكابيين. وكان بعض هؤلاء يأملون بأن يعيد المسيح المُنْتَظَر إسرائيل إلى سابق مجدها السياسي، لا إلى الدولة المكّابية فحسب بل أيضاً إلى مملكة داود وسليمان حين كانت إسرائيل قوة سياسية وعسكرية مهمة في الشرق الأدنى. وصورة المسيح المُنْتَظَر هذه هي صورة ملك، من نَسْل داود. وقد بلغت هذه الصورة من القوة أنَّ الإمبراطور دوميتيان (80—96م) أمر بعد خراب أورشليم خلال الحرب اليهودية الكبرى بقتل جميع المتحدّرين من بيت داود. بل إنَّ يسوع نفسه كان يُنْظَر إليه من بعض النواحي على أنّه هذا النمط من المسيح المُنْتَظَر. فقد قيل إنّه من بيت داود، وإنه سوف يرث مَلَكيَّة يهودا. ولعلّ هذا الخوف من ملك هو الذي دفع هيرودس الأكبر إلى قتل الصبيان الأبرياء (قد لا يكون ذلك صحيحاً)، وهو الذي اضطر بيلاطس البنطي إلى التعامل مع يسوع في محاكمته كمُغْتَصِبٍ للعرش وإدانته على ذلك.

كانت صورة المُخَلِّص السياسي هي الأبرز في الذهن اليهودي من نواحٍ شتّى. ولعلّ يسوع قد نظر إلى نفسه في هذا الضوء، ولعلّ تلامذته قد غيّروا الصورة بعد موته.

«يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ. 17فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟» 18فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟ 19أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ». فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا. 20فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» 21قَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ». 22فَلَمَّا سَمِعُوا تَعَجَّبُوا وَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا».

فالنعوت التي تُطلَق على يسوع: «ابن الله»، «أمير السلام»، والإحالات إلى «مملكة السماء» إنما تشير إلى مفهوم سياسي كما تشير إلى صورةٍ روحانية. وربما اقتضت هذه الصورة السياسية أن يكون المُخَلِّص ملكاً، الأمر الذي اضطرَّ روما في نهاية المطاف لأن تأخذ أيّ كلام على الملوك والممالك على محمل الجدّ. فالشيء الوحيد الذي كانت تخشاه روما هو انتفاضةٌ عسكرية.

كانت صورة القائد العسكري من صور المسيح المُنتَظَر الشائعة زمن العهد الجديد، وكان الأفراد الذين تمرّدوا على روما وحاولوا إخراجها من يهودا يحظون بالشعبية، وإنْ لم يُدْعَموا علانيةً. ولأنَّ روما كانت ذلك الحاكم الوثني الغريب، فإنَّ أيَّ كلام على استعادة استقلال إسرائيل كان يحظى بالشعبية. ولقد برز كثيرٌ من الأشخاص الذين أعلنوا أنّهم المسيح المُنْتَظَر وقادوا تمرداً مسلحاً. لكن هزيمتهم وقتلهم سرعان ما كانا يضعان حدّاً لاعتبارهم المسيح المُنْتَظَر. ومع أنَّ يسوع لم يَدْعُ إلى هذا الشكل من المسيح المُنْتَظَر، فإنَّ كثيرين كانوا يأملون أن يثير تمرداً. وكان واحدٌ من تلامذته يُدعى سمعان الغيور، حيث كان الغيورون (الزيلوت) جماعةً تدعو إلى مسيحٍ مُنْتَظَرٍ عسكري.

ولقد بلغ الأمل بمسيحٍ مُنْتَظَرٍ عسكريٍّ أقصاه في الحرب اليهودية الكبرى 66—69م. فخلال هذه الحرب تنبّأ بعضهم بأنَّ قائداً عسكرياً سوف يدكّ الرومان ويستعيد مملكة داود اليهودية. وزعم كثيرون أنّه حين تندلع الحرب سوف يصبّ الله جام غضبه على الرومان فيدمّر جيوشهم من دون أن يُمَسّ يهوديّ بسوء. وهذا لم يحصل بالطبع. وعلى الرغم من هزيمة معظم جيوش أورشليم وخرابها فقد صمد بعضهم في قلعة مسادة، ليُهْزَموا في النهاية كما هُزِمَ الآخرون.

الحرب اليهودية الكبرى

سرعان ما اتّخذ التمرد، بصرف النظر عن منشئه، شكل صراعاً هائلاً بين اليهودية والوثنية، بين الوطنية والاستعمار الأجنبي، والنور والظلام، والحرية والعبودية. وكان المتمردون اليهود يأملون على الرغم من كلِّ الفوارق أنّهم سيهزمون روما عسكرياً كما هزم أسلافهم السوريين قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون. ولقد ترك هذا الصراع أثره على اليهودية من جميع النواحي. فالصراع العسكري، والأمل بأنَّ مسيحاً مُنْتَظَراً عسكرياً

سوف يأتي ليخلّص اليهود، غيّرا الحياة اليومية في فلسطين بأسرها ذلك التغيير العنيف الذي دَفَع المجتمع من وجود «سلميّ» إلى مسارٍ حربيّ. وبات المجتمع كلّه، سواء أكان يرغب في مسيحٍ مُنْتَظَرٍ عسكري أم لا، أسير هذا المسار. وكان لهذه الحرب أن تدمّر يهودا. فقد أحاق الخراب بالبلدات والحقول؛ وقُتِلَ البشر، أو استُعْبِدوا، أو باتوا لاجئين، مما حمّل المجتمع ضريبةً باهظةً. ولم تكن روما، في تحطيمها التمرد، مهتمّةً بردّة الفعل السلبية، التي لعلّها لم تذهب بعيداً، بل كانت ترغب في أن تضمن ألا تفلت المنطقة من زمام سيطرتها. وهكذا باتت الحياة بالنسبة إلى السكان المحليين سلسلةً من المحن والمشقّات.

لنتخيّل الوضع الافتراضي التالي: امرأةٌ لديها ثلاثة أبناء في العشرينيات من أعمارهم مع زوجاتهم وأطفالهم، وابنتان، إحداهما متزوجة والأخرى عازبة، لم تبلغا سنّ العشرين. يلتحق زوجها بصفوف المتمردين، مع اثنين من أبنائها. وفي البداية يهزم المتمردون اليهود قوةً رومانية صغيرة مما يشجّعهم ويدفعهم إلى تحصين المناطق الشمالية. ومع وصول القائد الروماني فسباسيان مع الجيش الشرقي، يُدْفَع المتمردون إلى بلدةٍ تجري محاصرتهم فيها. تفرّ المرأة، مع ابنها الباقي، وكنّاتها، وأحفادها، وابنتها العازبة باتجاه الجنوب إلى مزرعة أبويها. وهنا تصلها الأخبار أنَّ البلدة التي لجأ إليها زوجها وولداها قد سقطت في أيدي الرومان، ولا تعلم إنْ كانوا قد قتلوا أو فرّوا أو أُسِروا. ولأنها عاجزةٌ عن أن تعود إلى الشمال بسبب احتلال الرومان المنطقة، فإنه ليس لديها أية فكرة ما إذا كانت ابنتها وأسرتها في أمان. وإذ يتحرك الرومان جنوباً، تهجر المرأة مزرعتها وأبويها وتفرّ إلى أورشليم. وسرعان ما تعجّ المدينة باللاجئين، وحين يصل الرومان في النهاية ويحاصرون المدينة يغدو الأمر ميئوساً منه. وفي آخر الأمر ترى المرأة ابنها الأصغر مقتولاً، وأحفادها يتضورون جوعاً، وابنتها مستعبدة ومقيّدة في طريقها إلى روما، فتبقى وحيدةً مُعْدَمَةً لا تعلم شيئاً عن مستقبل أسرتها. لقد أحدثت الحرب وما ألحقته من صنوف الخراب ضروباً من المحن والمشقّات البالغة كان لها أن تدمّر المجتمع تماماً. وتمثّلت المذلّة القصوى بالنسبة لليهود بأنَّ جزية الهيكل القديم باتت الآن الجزية اليهودية.

لقد أَنْهَت الهزيمة العسكرية في التمرد اليهودي الأول والتمرد اليهودي الثاني، أو حرب بار كوخبا، كلَّ أمل في مسيحٍ مُنْتَظَرٍ عسكري/سياسي. ودفعت هاتان الهزيمتان الطائفة المسيحية إلى مزيد من الانفصال عن اليهودية وإلى النظر إلى المسيح المُنْتَظَر، الذي

طابقتْ بينه وبين يسوع، على أنّه قائدٌ دينيّ بعيد عن أيّة مضامين عسكرية/سياسية. وغدا المسيح المُنْتَظَر أبعد عن صورته الوطنية–المجتمعية وأقرب إلى المخلّص الشخصي. ولم يَعُدْ ذلك الذي يقترح مملكةً سياسيةً–جغرافية بل أمارة روحية، في السماء. وما جعل المسيح المُنْتَظَر شخصيةً دينيةً ليس في نهاية المطاف سوى تلك الهزيمة العسكرية التي لحقت بالتمرد اليهودي.

صور المسيح المُنْتَظَر

ولكن ما أسباب ذلك الاختلاف الكبير الذي تميّزت به ضروب ترقّب المسيح المُنْتَظَر؟ ما الذي جعل القرون القليلة السابقة على الميلاد والقرون الميلادية الأولى تُنْتج هذه الصور المختلفة؟ واحدٌ من الأسباب هو الوضع السياسي. فمع فقدان اليهود استقلالهم، في أثناء حكم هيرودس أولاً ثمّ في ظلّ السيطرة الرومانية، كان ثمّة أمل بأن يخلّص أحدٌ ما إسرائيل من الاحتلال الأجنبي. كما لعب الاستياء من الوثنية الرومانية دوره في ترقّب المسيح المُنْتَظَر، ذلك المخلّص الذي سيجيء ويلقي بالأوثان خارج يهودا.

ولم يكن المناخ السياسي السبب الوحيد وراء صور المسيح المُنْتَظَر المختلفة. فقد كان للهلنستية تأثيراتها المختلفة في اليهودية. ففي حين رحّبت بعض الجماعات بالهلنستية أو احتملتها على الأقل، رأت جماعات أخرى في تدخّل الثقافة اليونانية هجوماً على اليهودية ووضعها الفريد في الشرق الأدنى. وكان لهذا الوضع أن يولّد صراعاً بين الذين يريدون أن يطهّروا الدولة من العناصر الأجنبية، أي اليونانية، والذين يسعون إلى التكيّف ضمن الإمبراطورية الرومانية الواسعة. ولقد عنى المسيح المُنْتَظَر لبعضهم تعزيز شكل نقيٍّ من اليهودية. وكان للنبوءات المتعلّقة بالمسيح المُنْتَظَر أن تفضي إلى قيام وَضْعٍ كان على اليهودية التقليدية أن تُعنى فيه بالمهتدين الجدد. وأبرز مثال على ذلك كان في الجليل. فهذه المنطقة التي كان يُنْظَر إليها نظرة دونية بوصفها «ريفية ساذجة»، غدت معروفةً بصنفها الخاص من اليهودية، ذلك الصنف الذي لا يقتفي أثر الهيكل في جميع الأمور. ومن اللافت أنَّ أعتى الأفكار الوطنية الخاصّة بالمسيح المُنْتَظَر قد جاءت من الجليل.

الصدوقيون

كان ثمّة تطابق بين اليهودية التقليدية، أو الجماعة وثيقة الارتباط بـ«الهيكل»، وفرقة الصدوقيين. وقد اعتبر الصدوقيون أنفسهم حرّاس الهيكل وشعائره وآمنوا بالناموس المكتوب، أي بـ«البنتاتوك» وسواه من المدوّنات المقدّسة. وليس ما يُقال في بعض الأحيان من أنهم حبّذوا التوراة وحدها سوى تحريف للوقائع يجعل حال الصدوقيين كحال السامريين الذين انحصر إيمانهم بـ«البنتاتوك». غير أنَّ الصدوقيين كانوا يعتقدون أنَّ الناموس راسخ ثابت، ما من تغيير يمكن أن يطرأ عليه. وبعبارة أخرى، فإنّهم ما كانوا يؤمنون بالتكيّف مع شروط العصر الاجتماعية والاقتصادية المتغيّرة. ولعلّهم في الأصل من الأرياف، الأمر الذي يتوافق مع آرائهم المحافظة. فالمجتمعات القروية والأفراد القرويين لا يدافعون عن التغيير في العادة، ويحرصون على ما هو قائم، وهذه الصورة تتوافق مع الصدوقيين. ومن الممكن أن يكونوا قد راكموا القوة والثروة من خلال زيادة أملاكهم العقارية ثم ترجموا ذلك إلى قوة سياسية بدعمهم الأسرة الحشمونية. ومع أنَّ الصدوقيين لم يكونوا طائفةً في حقيقة الأمر، إلا أنهم لطالما آمنوا بدوام ما هو قائم، لأنَّ قوتهم كانت مستمدة من الهيكل. وقد جادلوا ضد قيامة الجسد. ونرى في الأناجيل أنهم جماعة محافظةٌ معادية للهلنستية. وبوصفهم محافظين ومعادين للهلنستية، فقد تشكّل قوامهم الأساسي من اليهود الأثرياء المتعلّمين الذين يؤمنون بأنَّ لهم هوية وطنية خاصة ويدافعون عنها.

الفرّيسيون

شكّلَ الفرّيسيون تلك الجماعة أو الفرقة التي اختلفت مع الصدوقيين. وما يعنيه اسم «الفرّيسيين» هو الانعزال من أجل حياة الطهارة والتُّقى. وكانوا يدعون إلى التمسّك بقواعد موسى لكنهم يختلفون عن الصدوقين في مناحٍ مهمة عديدة. أولها، أنّهم كانوا يدافعون عن قيامة الجسد. فبخلاف الصدوقيين، الذين رأوا أنَّ الجسد يتفسّخ وحسب، على نحو ما رأت الإيديولوجيا اليونانية، اعتقد الفرّيسيون أنَّ الجسد يقوم في نهاية المطاف. أمّا المنحى الثاني الذي اختلف فيه الفرّيسيون فهو موقفهم من الهداية. فقد نظروا إلى العالم على أنه ميدان للنشاط التبشيري، في حين نظر الصدوقيون إلى اليهودية نظرةً

إثنية تقليدية. ولقد أدرك الفرّيسيون أنّه كي تبقى اليهودية وتزدهر عليهم أن يندفعوا في العالم المُتَهَلْيِن. وقد غيّر الفرّيسيون النواميس بما يتلاءم مع البيئة الجديدة. ولعلّهم انحدروا في الأصل من المناطق المدينية مما جعلهم يحتكمون إلى الشعب ويرون الحاجة إلى التغيير. ولقد غدوا فرقة الشعب وكانوا الجماعة المسيطرة.

ولم يقتصر التنافس بين الجماعتين على الجانب الديني وحده، بل تعدّاه إلى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. بيد أن الصدوقيين، وبسبب من كونهم محافظين، استندوا إلى الناموس المكتوب كمرجع لهم وعارضوا التغيير، في حين مثّل الفرّيسيون سائر الأمّة ورأوا إلى الناموس الشفهيّ على أنّه صحيحٌ بالمثل. وكان بمقدور الفرّيسيين أن يغيّروا، أمّا الصدوقيون فلم يكن ذلك بمقدورهم.

وتراث المَجْمَع هو المكان الذي نما فيه الفرّيسيون وترعرعوا، في حين تطور الصدوقيون في الهيكل في أورشليم. ولأنَّ الفرّيسيين طوروا المجامع ودأبوا على الدفاع عنها فقد غدوا نصراء البشر العاديين الذين لا يسعهم الذهاب إلى الهيكل كلّ يوم؛ أمّا الصدوقيون فقد دافعوا عن سياسات الهيكل وسلطته وراحوا يتآلفون أكثر فأكثر مع المؤسسة السياسية.

وبخلاف السامريين، الذين تطوروا بعيداً عن بقية الشعب اليهودي، فقد برزت جماعات طائفية أخرى ضمن اليهودية، تأمل لنظرتها أن تغدو الاتجاه السائد. وقد قام كثيرٌ من هذه النظرات المختلفة على أسسٍ اجتماعية واقتصادية أكثر منها دينية. وعلى الرغم من صراع الفرّيسيين والصدوقيين على السيطرة السياسية في ظلّ المكابيين وهيرودس، إلا أنَّ اختلافاتهم لم تقف عند حدّ السياسة. فالصدوقيون كانوا يمثّلون الأرستقراطية وطبقة الكهنة ولذلك كانوا محافظين. أمّا الفرّيسيون، كما يوحي اسمهم، فكانوا انعزاليين نأوا بأنفسهم عن سلطة الهيكل والصدوقيين. وقد نظّم الفريسيون أنفسهم في أخويات وفرضوا التزاماً صارماً بالناموس أو الشريعة. ومع أنَّ أعدادهم ليست معروفةً، يبدو أنَّ الفرّيسيين كانوا يتمتعون بشعبية عظيمة ويمثّلون آراء أغلبية كبيرة من السكّان.

ولقد دافع الفرّيسيون، بخلاف الصدوقيين، عن التوسّع بين اليهود خارج فلسطين وحظوا بمثل هذا التوسّع. فقد مارسوا التبشير بنجاحٍ في بابل، واجتذبت الجاليات اليهودية المتهلينة دَفْقاً كبيراً من المهتدين، كان من بينهم بعض الأشخاص ذوي الشهرة مثل فيلو في الإسكندرية، ووالد بولس في طرسوس، وبولس نفسه، وسيلسوس الروماني

الذي لم يعرف من اليهود سوى أولئك الذين يؤمنون بالقيامة، أي الفرّيسيين.

وكان هذا الاختلاف بين الطائفتين في الدِّين أيضاً، لأنَّ الصدوقيين لم يكن بمقدورهم أن يؤمنوا بالتغيير في حقيقة الأمر، وبذلك لم يكن بمقدورهم أن يتقبّلوا أفكاراً كفكرة القيامة. أمّا الفرّيسيون، من جهة أخرى، فكانوا منفتحين على المؤثّرات الجديدة، مما مكنهم من الدفاع عن خلود النفس وعَيْشِ الأطهارِ حياةً أخرى. ولقد حاول يوسفوس أن يشرح لجمهوره اليوناني فكرتي خلود النفس وقيامة الجسد وأشار إلى أنَّ هذه القيامة تخصّ الأطهار وحدهم.

ولقد رفض الصدوقيون، المتمسكون بالراهن، هذه الفكرة، ولم يجدوا أيّ ذِكْرٍ للقيامة في شريعة موسى. غير أنَّهم لم يستطيعوا إيقاف هذه الحركة لسببٍ وجيه، هو أنّها كانت حركة شعبية. فحين تكون حياةُ شخصٍ بائسةً حقّاً على الأرض، لابدّ من وجود شيء آخر يوفّر نفحةً من الأمل. ولقد وفّر الفرّيسيون هذه النفحة باعتقادهم بخلود النفس وقيامة الجسد.

ومن الاختلافات اللاهوتية الأخرى بين الصدوقيين والفرّيسيين ذاك الذي يتعلق بمفهوم الإرادة الحرّة وعكسها، أي القضاء والقدر. فالهلنستية كانت قد تركت أثرها على الصدوقيين في إيمانهم بالفردانية وبأنَّ أفعال المرء هي أفعاله وحده. وبحسب يوسفوس، فإنَّ الصدوقيين نأوا بالأفعال عن القدر وبذلك عن الإله، مما يعني أنَّ للبشر خيارهم الحرّ أو إرادتهم الحرّة في فعل الخير أو الشرّ (حروب اليهود 8. 14. 164—165). وقد تعارض هذا مع الفرّيسيين، الذين تبنوا تقليداً قديماً يقول بمسؤولية الأمّة أو المسؤولية الكونية. ومع أنَّ الفرّيسين لم يصلوا الحدّ الذي وصله الإسينيون، الذين آمنوا بالقضاء والقدر أو بالجبرية إيماناً مطلقاً، إلا أنَّ المطاف انتهى بهم في الوسط. فعلى الرغم من إلحاحهم على المسؤولية الفردية، فقد اعتقدوا أيضاً بوجود مؤثّرات أخرى، مثل الشياطين والملائكة. فقد أفاد الفرّيسيون من عناصر السخط الشعبي التي اختلط فيها السحر والتنجيم والخرافة. فالملائكة، التي رأى الصدوقيون أنّهم مجرّد رُسُل، هم مثالٌ على قوةٍ رأى الفرّيسيون إنّها تؤثّر على البشرية؛ حيث يمكن لهم ولأضدادهم، الشياطين، أن يغووا الشخص. بل إنَّ الفرّيسيين استخدموا شعائر تذكّر بالصوفية الوثنية، الأمر الذي دفع الصدوقيين إلى التهكّم عليهم. ويمكن لنا أن نرى الأفكار الشعبية عن الشياطين وقوتهم في مقاطع كثيرة

من العهد الجديد يُخْرِجُ فيها يسوع ثمَّ تلامذته هذه الشياطين من أشخاص فيشفونهم بذلك. وعلى سبيل المثال، فإنَّ يسوع يخرج كثيراً من الشياطين، تُدعى لَجِئون، من إنسانٍ إلى قطيعٍ من الخنازير، التي تندفع لتنتحر بإلقاء نفسها عن جُرْفٍ إلى البحر.

ولعلَّ واحداً من الفروق بين الصدوقيين والفرّيسيين هو ذاك المتعلّق بمؤسسة العبادة الخاصة بكلٍّ منهم. فنظراً للتحالف الوثيق بين طبقة الكهنة التقليدية والدولة السياسية الدنيوية، كان الصدوقيون على علاقة وثيقة بـ«الهيكل» وشعائره، واستمدّوا قوتهم وثروتهم من مؤسسة الهيكل والعبادة المقترنة به. وبالنسبة إلى الإنسان الذي يعيش في أورشليم كان الصدوقيون تجسيداً لـ«الهيكل». وكان الهيكل حاسماً حتى بالنسبة للبقية من يهود يهودا الذين كانوا يسافرون إلى أورشليم في الأعياد السنوية. وعلى سبيل المثال، فإنَّ لوقا يذكر أنَّ يسوع ذهب إلى أورشليم مع أبويه وحين طلباه بين الأقرباء والمعارف ولم يجداه راحا يبحثان عنه، فوجداه في الهيكل جالساً في وسط الشيوخ يعلّمهم (لوقا 2: 41–51)[1] وتبيّن هذه القصة أهمية الذهاب إلى أورشليم والهيكل. غير أنَّ الفرّيسيين، الذين لم ينكروا قطّ أهمية الهيكل وأولويته، كانوا يلحّون على المَجْمَع. فهذا الأخير حاسم في فلسفة الفرّيسيين التي تقول بدولةٍ كونية، دولةٍ غير مقتصرة على يهودا، وتمثّل إذاً عناصر الشتات الهائلة. ومن خلال المجمع، تلك البنية والمؤسسة التي انتشرت في أرجاء المتوسط، سوف يحافظ الفرّيسيون وخلفائهم، الحاخامات، على اليهودية بعد خراب الهيكل والهزائم اليهودية في العام 70م والعام 136م.

ولقد اختلف الصدوقيون والفرّيسيون دينياً واجتماعياً على حدٍّ سواء. فلم يؤمن الفرّيسيون بتراث البنتاتوك المكتوب وحسب بل أيضاً بالتراث الشفوي المتناقل بعد موسى. أمّا الصدوقيون فرأوا أنَّ الناموس المكتوب هو المرجع الوحيد. ونظراً للاختلاف

(1) «41وَكَانَ أَبَوَاهُ يَذْهَبَانِ كُلَّ سَنَةٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ. 42وَلَمَّا كَانَتْ لَهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ كَعَادَةِ الْعِيدِ. 43وَبَعْدَمَا أَكْمَلُوا الأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا الصَّبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا. 44وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفْقَةِ، ذَهَبَا مَسِيرَةَ يَوْمٍ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الأَقْرِبَاءِ وَالْمَعَارِفِ. 45وَلَمَّا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ. 46وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ. 47وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوهُ بُهِتُوا مِنْ فَهْمِهِ وَأَجْوِبَتِهِ. 48فَلَمَّا أَبْصَرَاهُ انْدَهَشَا. وَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!» 49فَقَالَ لَهُمَا: «لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟». 50فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا. 51ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذِهِ الأُمُورِ فِي قَلْبِهَا».

في هذا الأمر، راح الفرّيسيون يدافعون عن تأويلٍ للناموس متواصلٍ. وكثيراً ما كان الرأي، خاصةً في ضوء النقد الذي وجّهه العهد الجديد، أنَّ الفرّيسيين لم يكونوا مهتمين سوى بتطبيق توافه الناموس على ذلك النحو الذي يجعل من الحياة الدينية نوعاً من العقبة أو العائق. وعلى سبيل المثال، فإنَّ الناموس يحرّم حَمْلَ الطعام خارج البيت في السبت. وهذا ضَرْبٌ من ضروب الهراء بالنسبة للقارئ الحديث. فهل ينبغي أن نصدّق أنَّ الفرّيسيين ما كانوا يؤمنون بالمخالطة الاجتماعية في السبت؟ بالطبع لا. لأنَّ التأويل كان يسمح بهذا الفعل تبعاً لموقع البيت. ذلك أنَّ البيت اليهودي في فلسطين، خاصةً في المدن، كان يقع ضمن فناء مع بيوتٍ أخرى. وما قصده تأويل التحريم هو ألاّ يمضي المرء خارج مجموعة البيوت هذه؛ في حين يمكن له أن يخرج إلى الفناء ويلتقي أفراد الأسر الأخرى.

ولقد برزت الفروق اللاهوتية في العهد الجديد مع دفاع يسوع المتواصل عن تأويلٍ جديد للناموس يمضي أبعد من تأويلات الفرّيسيين ذاتها. وعلى سبيل المثال، فإنّه حين انتقد الفرّيسيون تلامذته لأنّهم يعملون في السبت، أشار يسوع إلى أنَّ الناموس جُعِلَ لأجل الإنسان وليس العكس. وكان يسوع، بالطبع، بمثابة المثال على قيامة الجسد. وهذه القصة هي الفكرة المركزية لدى يسوع وفي رسالته. وإلى هذا، فإنَّ العهد الجديد يلحّ على أهمية الملائكة، أولاً حين يأتي رئيس الملائكة جبريل ويعلن لمريم أنها ستحبل وتلد ابناً تسميه يسوع (لوقا1: 26–36)[1]، ثم حين يظهر ملاكٌ ليوسف في حلم ويقول له أن يأخذ مريم امرأةً له (متّى 1: 20)[2]، وحين يعلن ملاكٌ ولادةَ يسوع (لوقا 2: 13–15)[3]، وأخيراً

---

(1) «26 وَفي الشَّهْرِ السَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ الْمَلاَكُ مِنَ اللهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةُ، 27إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ. وَاسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ. 28فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلاَكُ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ». 29فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ، وَفَكَّرَتْ: «مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هذِهِ التَّحِيَّةُ!» 30فَقَالَ لَهَا الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ. 31وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. 32هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، 33وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ».
34فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟».
35فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لَهَا: «اَلرُّوحُ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ. 36وَهُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ هِيَ أَيْضًا حُبْلَى بِابْنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهذَا هُوَ الشَّهْرُ السَّادِسُ لِتِلْكَ الْمَدْعُوَّةِ عَاقِرًا»».

(2) «20 وَلكِنْ فِيمَا هُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي هذِهِ الأُمُورِ، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: «يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ».

(3) «13ظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللهَ وَقَائِلِينَ: 14»الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ

حين يقول ملاكٌ ليوسف أن يأخذ الصبي وأمّه ويهرب إلى مصر لفترة (متّى 2: 13)[1]. وما تبديه هذه الأمثلة على نحوٍ واضح هو التقارب الذي يقيمه تلامذة يسوع بين آرائه وآراء الفرّيسيين، وما كان لدى يسوع وتلامذته من تشبّعٍ بتراث الفرّيسيين.

الغيورون (الزيلوت)

كان ثمّة جماعات أخرى لها في اليهودية آراؤها السياسية والدينية المختلفة عما هو سائدٌ في المجتمع. وكان الغيورون (الزيلوت) إحدى هذه الجماعات، وكانوا يدعون إلى العنف. وعلى الرغم من كونهم جماعة طائفية على الأرجح، إلا أنَّ ما كان يهمّهم أكثر من سواه هو الوطنية. فكانوا يؤمنون باستخدام العنف لتخليص فلسطين من الاحتلال الأجنبي الروماني. ويستمدّون من تاريخٍ عريقٍ في الدين والسياسة والقوة العسكرية يعود إلى المكابيين وانتصارهم على السوريين. ولأنَّ هذا الانتصار لم يتحقق إلا من خلال العنف، فقد آمن الغيورون أنَّ لا سبيل لإخراج الرومان إلا بالعنف. وإذا ما كانت الهزيمة قد أحاقت بهم في نهاية المطاف، إلا أنّ ذلك لم يمنعهم من أن يتركوا أثراً على الحياة اليومية.

وخلال القرن الميلادي الأول كان ثمّة جماعة متطرفة من الغيورين تُدعى السيخاري، لم تكتفِ بقتل الموظفين والجنود الرومان بل تعدّت ذلك إلى اليهود الذين تعاونوا معهم. وكان هؤلاء السيخاري، الذين استمدّوا اسمهم من الخنجر الروماني القصير (سيخا)، يقطنون الجبال ويهاجمون على حين غرّة. وكانت أعدادهم كبيرة في الجليل على نحوٍ خاص بسبب المنطقة. وكانت هدايتهم حديثة العهد تثير ضروباً من التشدّد في العقائد، أمّا ظروف المنطقة الاقتصادية البائسة فقد عزّزت سلوكهم ووقفت وراء ما أحرزوه من نجاح. وقد صنّف يوسفوس الغيورين كطائفة مستقلة، وهو تصنيفٌ تبرّره الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لكنهم لم يكونوا أصحاب لاهوت مميّز على الصعيد

السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ».

15وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرجال الرُّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرْ هذَا الأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمَنَا بِهِ الرَّبُّ».

(1) «13 وَبَعْدَمَا انْصَرَفُوا، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَه».

الديني. وقد تحالفوا خلال الحرب الكبرى مع الإدوميين، الذين تحولوا إلى اليهودية مؤخّراً مثلهم. وكان الأفراد العاديون يعرفون الغيورين ويخشونهم. فإذا ما اعترض فلاّح عليهم كانوا يصمونه بالخائن ويعرّضونه لانتقامهم. أما إذا تعاطف معهم وقدّم لهم العون، فكان يحظى بعقاب السلطات الرومانية. وغالباً ما كان الغيورون وأعمالهم مدعاةً لردٍّ قاسٍ من طرف روما. وكثيراً ما كان هذا الردّ مصدر أذى للبشر العاديين.

غير أنّ هؤلاء البشر العاديين أنفسهم اعتبروا الغيورين أبطالاً. فهم يقارعون الاضطهاد الروماني، الأمر الذي شكّل مصدر أمل وفَخَار للجميع. ولقد تمثّلت قوتهم الأساسية في قدرتهم على أن يثيروا الخوف، ليس في المعسكرات الرومانية وحدها، بل في صفوف اليهود أيضاً.

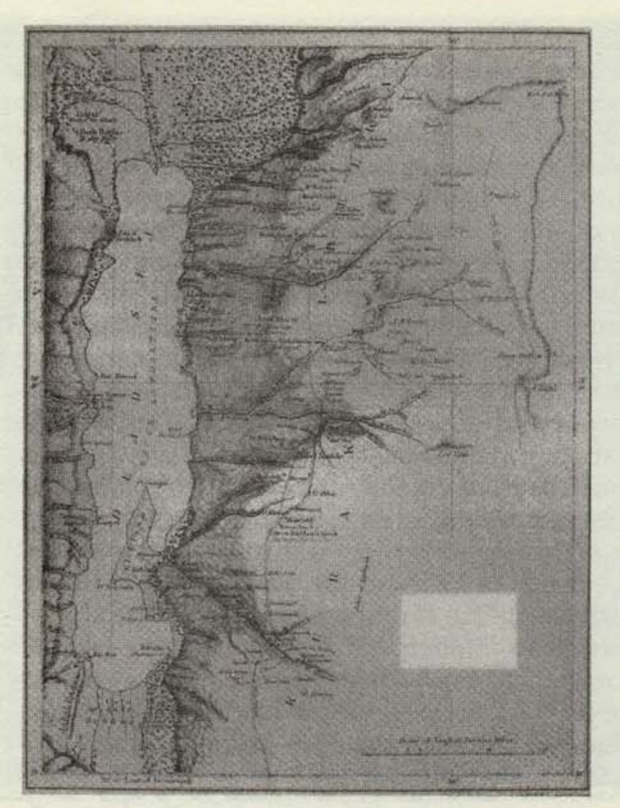
ويُقال في العهد الجديد إنَّ واحداً من تلامذة يسوع كان من الغيورين، ولعلّه كان يحسب أنَّ المسيح المُنْتَظَر المأمول سوف يقارع روما (لوقا 6: 13–16)(1). وهذا ما لم يحصل بالطبع، ولعلّ ذلك هو السبب في عدم تقاطر الغيورين إلى رسالته. فالحرب ضد روما كانت تغذّي فكرة مسيحٍ مُنْتَظَرٍ عسكري يقود اليهود إلى النصر. وأعلن الغيورون أنّ الحرب سوف تفضي إلى انتصارهم على روما. ومع الهزيمة في حرب بار كوخبا وتفكّك يهودا النهائي، راح الغيورون يغوصون في بحر النسيان.

ولعلّ الغيورين اتبعوا أفكار الفرّيسيين اللاهوتية. فبخلاف الصدوقيين الذين نزعوا إلى الحفاظ على السلام مع روما، آمن الغيورون بمقارعة روما بالسلاح.

الإسينيون

وكان ثمّة جماعة أخرى هي الإسينيون. ويذكر يوسفوس أنّهم كانوا في جميع المدن. غير أنَّ معظم آرائنا فيهم ومعلوماتنا عنهم مصدرها لفائف البحر الميت وآثارهم في قمران. فهنا قامت جماعة في القرن الثاني ق.م كانت ترى في الصدوقيين وتراتبية الهيكل ضرباً من الفساد، وصوّرت رئيس الكهنة يوحنا هرقانوس في كتاباتها على أنّه آفةٌ وشرّ. وكان الإسينيون جبريين يعتقدون أنَّ الله قد قدَّر كلّ شيء مسبقاً. وكانوا يرغبون

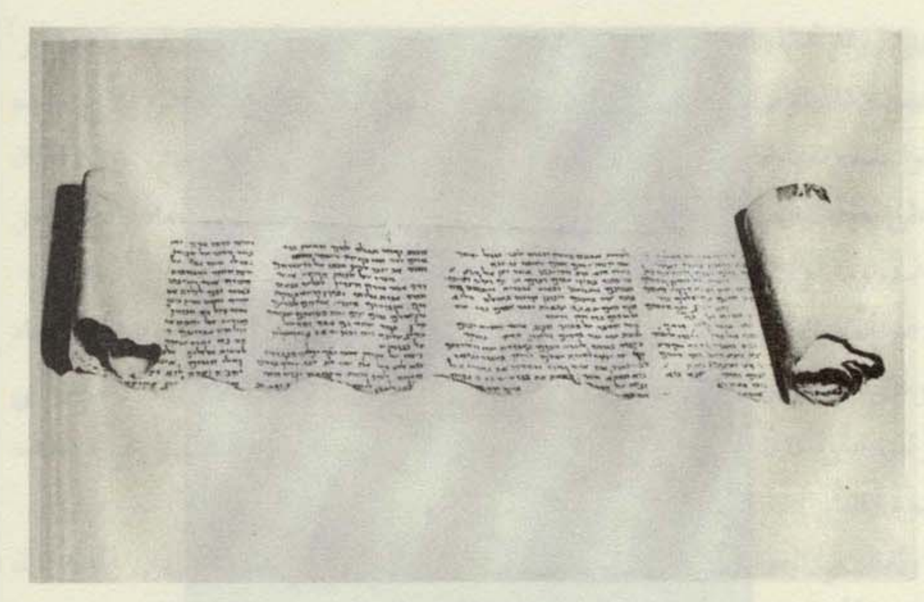
(1) –13وَلَمَّا كَانَ النَّهَارُ دَعَا تَلاَمِيذَهُ، وَاخْتَارَ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِينَ سَمَّاهُمْ أَيْضًا «رُسُلاً»: 14سِمْعَانَ الَّذِي سَمَّاهُ أَيْضًا بُطْرُسَ وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ. يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا. فِيلُبُّسَ وَبَرْثُولَمَاوُسَ. 15مَتَّى وَتُومَا. يَعْقُوبَ بْنَ حَلْفَى وَسِمْعَانَ الَّذِي يُدْعَى الْغَيُورَ. 16يَهُوذَا أَخَا يَعْقُوبَ، وَيَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ الَّذِي صَارَ مُسَلِّمًا أَيْضًا».



خريطة منطقة البحر الميت. بموافقة مكتبة الكونغرس

في أن يعيدوا الساعة إلى الوراء، إلى زمنٍ كانت فيه الحياة أبسط. وقد نبذوا اللذّة ولم يكونوا يؤمنون بالتكيّف مثل الصدوقيين. ويبدو أنّهم كانوا يكرهون النساء، وانشقوا إلى جماعتين اثنتين، أولاهما معادية لكلّ ضروب الزواج، في حين مضّت الثانية بعض النساء، من أجل الإنجاب وحده، مع أنّها تألّفت من الذكور بصورة أساسية.

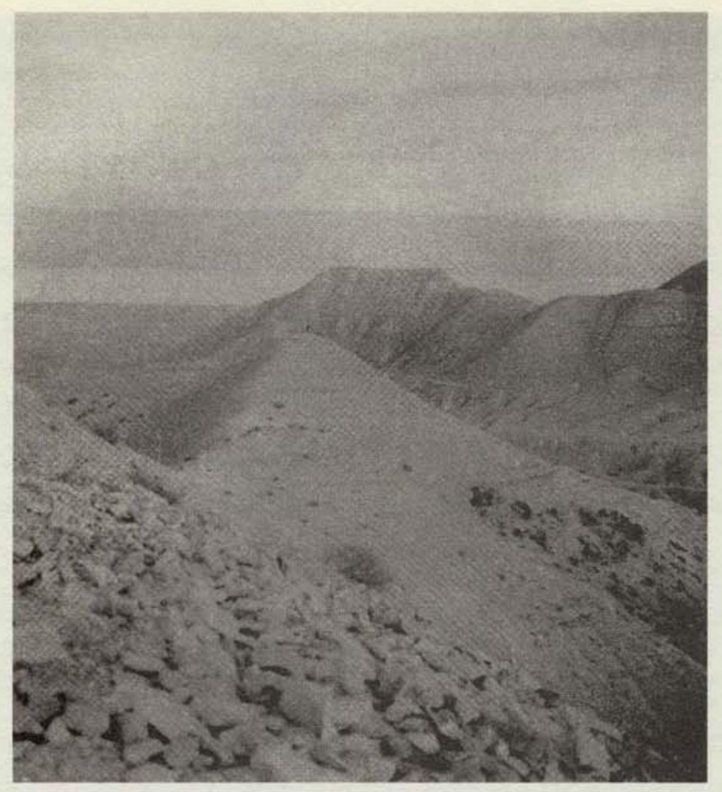
ويبدو أنَّ هذه الطائفة كانت مشاعيّة، بمعنى أنَّ جميع الأشياء ملك الجماعة ومحلّ استخدامها. غير أنَّ بعض النصوص تشير إلى غرامة تُدْفَع إِنْ كان ثمّة خَرْق. ولعلَّ هذه الغرامة كانت تخصّ الوافدين الجدد وليس كاملي العضوية. فقد كانت ثمّة فترة زمنية يقضيها المرء قبل أن يغدو عضواً كاملاً في هذه الجماعة. وكان بمقدور الوافد الجديد في هذه الفترة، التي لعلّها تمتدّ إلى سنتين، أن يستكشف أفكار الإسينين من دون أن يحظى بالعضوية الكاملة، فإذا ما قُبِل في الطائفة آخر الأمر نُقِلَت أشياؤه إلى الجماعة وصار بمقدوره أن يدلي بصوته. غير أنّ حقوق المرء لم تكن كثيرة خلال فترة الاستكشاف وأوائل



لفائف البحر الميت وكهوفه وحفريات الدير الإسيني في قمران.
لفافة، شَرْحُ حبقوق..بموافقة مكتبة الكونغرس

القبول، وكان يُنتَظَر منه أن يُذعن للأعضاء الكبار. ولعلّه كانت هناك جماعة من الشيوخ هي التي تتولّى المسؤولية، مثل السنهدرين في أورشليم. وكان الإسينيون يقسمون على الكتمان والسريّة، لدرجة أنَّ معظم معلوماتنا عنهم ليست سوى لمحات مستمدّة من تأويل نصوصهم وآثارهم.

وحين بدأ التمرد اليهودي في 66م، أخفى الإسينيون نصوصهم في الكهوف في قمران وحولها. وهذا ما يشير إلى أنّه توفّر لهم الوقت لكي يرتّبوا أمورهم قبل الفرار أو القتال، وإلى رغبتهم في مواصلة رسالتهم. وقد بيّنوا بإخفائهم هذه النصوص أنّهم يعدّونها مهمة وذات شأن، مما يدلّ على رغبةٍ في رؤية طائفتهم تنجو وتستمر. ومن المستحيل أن نعلم ما الذي انتهت إليه الأمور، غير أننا يمكن أن نخمّن بعض التخمين. فما دام الإسينيون لم يستعيدوا هذه النصوص، لعلّ الجماعة لم تَعُدْ إلى قمران أو لم تستطع أن تعود إليها. ولعلّهم أُبيدوا، أو منعوا من العودة، أو اختاروا ألاّ يعودوا. وربما جرى التخلّص منهم، لأنه ما من أدلّة تشير إلى أنَّ روما قد منعت في هذا الوقت أيّة حركة للسكان، وليس واضحاً ما الذي دفعهم لأن يتخلّوا عن أفكارهم ونصوصهم الدينية. أمّا فكرةُ أنَّ يكونوا قد تحولوا



منطقة البحر الميت. بموافقة مكتبة الكونغرس.

إلى المسيحية وهربوا فليست بالفكرة التي تدعمها الأدلّة، والأرجح أن يكونوا قد فرّوا إلى أورشليم، حيث طاولهم الحصار وربما قُتلوا أو أُخِذوا عبيداً، أو إلى مدن أخرى أو إلى البرّية. ومن الممكن أن تكون أعدادهم قد استُنْزِفَت في الحرب فلم يقدروا أن يبلغوا الحدّ الضروري للاستمرار.

وثمّة شيء من الفتنة والسحر في هذه الجماعة التي نأت بنفسها عن المجتمع وكانت لها نظرتها إلى اليهودية السائدة. ومن الممكن أن يكون يوحنا المعمدان ويسوع قد عرفا هذه الجماعة، مع انّه ما من دليل على ذلك سوى ضروب التشابه بين الأفكار.

لفائف البحر الميت

على شاطئ البحر الميت الشماليّ الغربيّ، أَسْفَرَت كهوف قمران والمنطقة المحيطة بها عن اكتشافات مهمة في أواخر أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته. كانت أولى هذه الاكتشافات في العام 1947 حين أُعْلِنَ عن اكتشاف بعض النصوص القديمة في أحد الكهوف. وخلال السنوات العشر التالية

جرى اكتشاف ما مجموعه 900 من النصوص وأجزاء النصوص في 11 كهفاً. وكان معظم هذه النصوص، ما يزيد على 80٪، مكتوباً بالعبرية. وقد اشتملت أهمّ الاكتشافات على لفائف سفر أشعيا؛ وشَرْح حبقوق؛ واللفافة النحاسية، التي تفصّل في نفائس الهيكل؛ والوثيقة الدمشقية؛ وكتاب النظام. وعلاوةً على ذلك، تبيّن لفائف وجذاذات أخرى أنّه ما عدا سفر أستير، فإنّ كلّ أسفار العهد القديم كانت قد دُوِّنَت، فضلاً عن أعمال أخرى من خارج الكتاب المقدّس، مثل كتاب النظام، ودستور الجَمْع، ودستور البركة، وحرب أبناء النور ضد أبناء الظلام.

وتتيح نصوص الكتاب المقدّس الآن إعادة أقدم مواد الكتاب المقدّس العبري إلى ما قبل 200 ق.م. ويشير عدد مواد الكتاب المقدّس وحجمها إشارةً واضحةً إلى أنّ هذه الجماعة كانت منخرطة بعض الشيء في الحياة والديانة اليهوديتين. إلا أنّ هوية هذه الجماعة لا تزال محلّ نقاش. ففي حين يعتقد معظم الباحثين أنّ جماعة قمران كانت مقترنة بالإسينيين، إلا أنّ هذا الرأي لم يَحْظَ بدعم شامل. ويبدو أنّ هذه الجماعة، بغضّ النظر عن فلسفتها الدينية، كانت قد نأت بنفسها عن اليهودية السائدة.

وتقدّم اللفائف المختلفة من خارج الكتاب المقدس وجهات نظر متضاربة في ما يتعلّق بأصول هذه الجماعة. وعلى سبيل المثال، فقد أُخِذَت اللفافة النحاسية، التي تقدّم جرداً بكنوز الهيكل، على أنّها تشير إلى صلة بالهيكل وحصار أورشليم في العام 66م. وهذا ممكن، غير أنّ هذه اللفافة يمكن أيضاً أن تكون نتاج مرحلة أبكر وانتهى بها الأمر في قمران بعد أن لم يعد لها أيّ نفع. وبالمثل، فإنّ اللفافة الدمشقية يمكن أن تشير إلى صلة بطائفة أخرى، أو لعلّها مجرد نسخة من دستورٍ بات ملكاً لجماعة قمران. وهذه الاحتمالات المتعددة هي ما يؤجج النقاش المتواصل بين الباحثين حول أصول هذه الجماعة، وتاريخها، وأغراضها، وفلسفتها.

ولم يقتصر النقاش حول النصوص على تاريخها القديم. فمنذ اكتشافها وهي محلّ خلاف بشأن نشرها. فقد رفض فريق الاكتشاف الأصلي على مدى أكثر من ثلاثين عاماً أن يُظْهِر صور المواد التي لم تُنْشَر لاعتقاده أنّ اللفائف ملكه الخاص. وأخيراً، في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، زاد تسارع النشر بسبب الضغط الدولي. وتكاد جميع النصوص أن تكون قد نُشِرَت الآن ورقياً ورقمياً.

أمّا البقايا الأثرية في قمران فتضاهي هذه النصوص في الأهمية. وهي تشير إلى جماعة مؤلّفة من حوالي 150 عضواً. وقد كانت هنالك عدّة مبانٍ كبيرة، اعتُبِرت إحداها مكاناً للاجتماع. وتضمّ البقايا الأثرية المكتشفة أقمشة، وفخاراً، وجراراً حجرية، ومواد من الجلد، ونقوداً. ويعتقد الباحثون، استناداً إلى هذه المواد، أنّ بداية جماعة قمران كانت خلال عهد المكابيين في القرن الثاني ق.م، وأنّ زلزالاً قد دمّر أجزاء واسعة من المنطقة ودفع إلى مغادرة المكان، الذي عاد آهلاً بالسكّان في القرن الأول الميلادي حتى العام 68.

وكان الإسينيون على قناعةٍ بأنَّ النساء أدنى من الرجال وأقلّ طهارةً. ولذلك كانوا ينظرون إلى الزواج كشرٍّ لا بدّ منه، ويرون أنَّ من الأفضل أن يُفْصَلَ بين الجنسين. وكانوا يمارسون ضروباً من الاغتسال طقسيةً. فأهمية التطهّر تكمن بالنسبة لهم في أنّه ينظّف النفس والجسد. وكانوا يعتقدون أنَّ الجسد ليس نجساً وحسب بل فاسد أيضاً. وأنّه مُقدَّر له أن يتبدّد في حين تبقى النفس. وكانت غاية الاغتسال الطقسي تطهير النفس لجعلها خالدة. ونظراً لاعتقاد الإسينيين بأنّ الجسد ينبغي أن يُطَهَّر لعلّهم لم يكونوا يؤمنون بقيامة الجسد، شأنهم في ذلك شأن الصدوقيين الذين كانوا يعتبرونهم أشراراً على الرغم من اشتراكهم معهم في هذا الرأي. ولأنَّ القيامة تنطوي على بلوغ الجسد غاية الكمال، فإنَّ ذلك كان يتعارض مع إيديولوجيا الإسينيين، الذين كانت النفس وحدها تحظى بالأهمية لديهم.

وقد اعتمد الإسينيون نظاماً يشتمل على مرحلة بدئية، ربما كانت سنتين، يتفقّه المبتدئ خلالها بأمور الجماعة، من دون أن تكون له حقوق العضو الكامل، ليغدو بعد هذه المرحلة التمهيدية عضواً كاملاً له الحقّ في التصويت واتخاذ القرارات.

وكانت ثمّة جماعة فرعية من الإسينيين أو ذات قرابة بها هي الطائفة الدمشقية أو أبناء الميثاق الجديد. ومثل الإسينيين، تخطّت هذه الطائفة الفرّيسيين؛ فكان تفسيرها الصارم للشرائع، على سبيل المثال، يجعلها أقرب إلى الصدوقيين. ومثل الإسينيين وربما الفرّيسيين، كانت تفرض القسم على المبتدئين وتجحد الهيكل والأضاحي السنوية، ربما بسبب فساد الصدوقيين في أورشليم. كما تمتعت بفلسفة خاصة في الحرب، تجلّت في الصورة التي رسمتها لأبناء النور في مجابهتهم أبناء الظلام، الذين جرت المساواة بينهم وبين الهيكل وأورشليم. وكانت هاتان الجماعتان كلتاهما قد اعتزلتا المجتمع وعبّرتا عن رغبتهما في العودة إلى ضَرْب من عصر ذهبي سبق أن عرفته اليهودية عندما كانت الحياة أبسط. وبخلاف الصدوقيين، الذين حاولوا ألا يُعْنَوا بالتغيير في المجتمع، والفرّيسيين، الذين حاولوا أن يتغيروا بتغيّر المجتمع، حاول الإسينيون والجماعات المشابهة أن يقاوموا ضروب التغيير تلك المقاومة النشطة بالانعزال عن المجتمع. وانعزالهم هذا هو الذي جعل تأثيرهم على تطور اليهودية ذلك التأثير الواهي. ونظراً لسريتهم وكتمانهم، فإنّه لم يكن أمام الغرباء مثل يوسفوس سوى أن يخمنوا بشأن معتقداتهم. أمّا نصوصهم، التي تكثر

فيها الأمثولات والمجازات، فتتطلّب كثيراً من التأويل، كما أنَّ بقاياهم الأثرية ليست باتّة أو قاطعة. ومع أنَّ هذه الجماعات لم تؤثّر على حياة الكثيرين اليومية في فترة العهد الجديد، إلا أنّها كانت موجودة وشكّلت عاملاً من عوامل المجتمع. وهي تشبه من نواحٍ كثيرة أولئك الانعزاليين المتدينين الذين يشكّلون جماعات تعيش على أطراف المجتمع الحديث؛ فلا تؤثّر عليه كثيراً، لكنها تبقى موجودة.

ولقد شهدت اليهودية في الفترة بين القرن الأول ق.م والقرن الأول الميلادي فلسفاتٍ عديدةً، كلٌّ منها تنافس الأخرى. وفي نهاية القرن الميلادي الأول لم يبق من هذه الفلسفات فعلياً سوى فلسفتين: الفرّيسيون من خلال المجامع، وفَرْع آخر، هو المسيحية. وهاتان الفلسفتان سيطرتا على الحياة اليومية في العهد الجديد.

الكتبة

الكتبةُ جماعةٌ غالباً ما قُرِنَت بالفرّيسيين. فهل كانت جماعة مستقلة أم جزءاً من الفرّيسيين؟ ليس الأمر واضحاً في الحقيقة، فقد بدأت هذه الجماعة زمن عزرا، على هيئة علماءٍ يفسّرون الناموس. وقد دعتهم الأناجيل «الناموسيين» و«معلمي الناموس»؛ وكانوا في الحقيقة علماء اليهودية (لوقا 5: 17، 7: 30)[1]. الذين يقومون على تفسير غوامض الناموس ويفتون في كيف ينبغي للمرء أن يعيش الناموس. وقد أعطى هؤلاء الكتبةُ الفرّيسيين وتأويلَهم الناموس قوّةَ التعليم من نواحٍ كثيرةٍ. وكان الكتبة يرون في يهودا أكثر من الجليل أيام يسوع، نظراً لتأخّر الجليل في تلك الفترة، وخلوّه من أيّ معلّمين للدّين ذوي ثقافة ودربة، وتعصّب شعبه وابتعاده عن الفهم والتفقّه. ولعلّ الكتبة لم يكونوا فرعاً من الفرّيسيين، بل كانوا يشتركون معهم بأكثر مما يشتركون مع الصدوقيين، إذ كان يُنْظَر إلى الكتبة والفرّيسيين على أنهم ملتزمون بالناموس أشدّ الالتزام.

ولأنّ معظم الأناجيل كُتِبت بعد خراب أورشليم، فإنّنا لا نرى في العهد الجديد الصدوقيين، والغيورين، والإسينيين، وبعض الجماعات الأخرى. وإذا ما ذُكِرَ الصدوقيون، فإنّه لا يُمَيَّزُ جيداً أو يُفْصَل بينهم وبين الفرّيسيين، باستثناء ما تعلّق بالاختلاف بين الجماعتين

(1) «17 وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ كَانَ يُعَلِّمُ، وَكَانَ فَرِّيسِيُّونَ وَمُعَلِّمُونَ لِلنَّامُوسِ جَالِسِينَ وَهُمْ قَدْ أَتَوْا مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَأُورُشَلِيمَ. وَكَانَتْ قُوَّةُ الرَّبِّ لِشِفَائِهِمْ».
« 30وَأَمَّا الْفَرِّيسِيُّونَ وَالنَّامُوسِيُّونَ فَرَفَضُوا مَشُورَةَ اللهِ مِنْ جِهَةِ أَنْفُسِهِمْ، غَيْرَ مُعْتَمِدِينَ مِنْهُ».

حول القيامة. ومع زوال الهيكل ودمار يهودا ذلك الدمار التام، كان الفرّيسيون المكوِّن الوحيد الذي بقي من مكوِّنات اليهودية. فقد غدت اليهودية الموجودة خارج فلسطين الشكل المسيطر آنئذ. ولأنَّ هذه الجماعة كانت من الفرّيسيين بصورة أساسية، فإنَّ هؤلاء هم الذين بقوا. وببقائهم بقيت أيضاً رؤيتهم لما ينبغي أن يكون عليه المسيح المُنْتَظَر. وكانوا يرون الآن أنَّ المسيح المُنْتَظَر موعودٌ لكنه مجيئه ليس قريباً بالضرورة. فمع خراب الهيكل، غابت صورة المسيح المُنْتَظَر السياسي/العسكري. وهذا هو السياق الذي أخذت تنفصل فيه المسيحية عن اليهودية.

حينئذ، راح الرأي الذي مفاده أنَّ يسوع هو المسيح المُنْتَظَر يغذّي الانقسام بين الطوائف في فلسطين. وهو انقسام لم يُنتج فلسفات مختلفة وحسب بل ممارسات مختلفة أيضاً. فعلاوة على فكرة أن يسوع هو المسيح المُنْتَظَر الذي يقوم من بين الأموات، طوَّر المسيحيون أيضاً تلك الأفكار عن الجنة والجحيم التي سبق أن أطلقتها اليهودية لكنها لم تُطَوِّرها بما يكفي. غير أنَّ الاختلافات الكبرى تركّزت في هذه المرحلة الباكرة على الممارسات.

وكان تغيير مكان العبادة واحداً من أوائل هذه الاختلافات الكبرى. فبخلاف اليهود الذين كانوا يتعبّدون في المجامع، أخذ المسيحيون يتعبّدون في الكنائس. وكانت الكنائس في الأصل منازل خاصة، لكنها تحولت آخر الأمر إلى أماكن عامة للعبادة. وبخلاف المَجْمَع، بمُخَطَّطه المعروف واتّخاذه من أورشليم قبلةً يتّجه إليها، لم يكن للكنيسة مخطط محدّد بل هي مجرّد حجرة اجتماع واسعة، مثل حجرة العشاء الأخير، وذلك قبل أن يطوَّر المسيحيون في فترةٍ لاحقةٍ نمطهم المعماريّ الخاص، الباسليكا، المُستعار من البناء المدني الروماني.

وبخلاف أيام الاحتفال اليهودية، يوما الأحد والخميس، أَفْرَد المسيحيون الأوائل يومي الأربعاء والجمعة، فكانا يومي صيام واجتماع، واحتفال بـ«القربان المقدَّس». فيوما الأربعاء والجمعة هما يومان للاحتفال بآلام المسيح، لأنَّ الأربعاء هو اليوم الذي خان فيه يهوذا يسوع، والجمعة هو اليوم الذي مات فيه يسوع. وهما يُذكران كيومين خاصين في الذيذاخة، كتيّب العبادة في أواخر القرن الأول، وفي أعمال كتّاب القرن الثاني مثل هِرماس وترتليان. أما يوم الأحد، الذي قام فيه المسيح من بين الأموات، فقد غدا اليوم

الأهمّ بين أيام الأسبوع، وحلّ محلّ يوم السبت اليهودي. واعتبار هذا اليوم الاحتفال الديني الأسبوعي الأساسي جَعَل الانقسام بين اليهودية والمسيحية كاملاً. وقد ظلّ يوم السبت محتفظاً ببعض الأهمية في روما كيوم صيام وكفّارة تمهيداً ليوم الأحد الأهمّ.

وإذا ما كانت هذه المحافل الباكرة قد تركّزت على الشعائر اليهودية التقليدية إلاّ أنّها راحت تُصاغ بعدئذٍ وفقاً للعقائد المسيحية. وكان لدى المسيحيين الأوائل طقسان مهمان، هما العماد/التثبيت والقربان المقدّس، فصلا المسيحية عن اليهودية السائدة. وغاية العماد، الذي يمثّل عبور الموت وعدم الايمان باتجاه الحياة والايمان، هي غسل المبتدئين وتطهيرهم من خطاياهم وطرد الشياطين من نفوسهم. ويبدو أنَّ هذه الفكرة قد استعيرت من الإسينيين، الذين اعتقدوا بالعماد وأَحْكَموا طقوسه. وكان العماد الذي يُغْطَس فيه المرء في الماء ويُخْتَم بالزيت على جبهته مقتصراً على الراشدين. وقد خصّص المسيحيون الفترة السابقة على الفصح، فترة الصوم الكبير، لتحضير المبتدئين، إذ كان يجري العماد في السبت المقدّس. أمّا اليهود فلم تكن لديهم مثل هذه الفترة قبل الفصح. وما إن يُعمَّد المبتدئون، فإنهم يتلقّون التثبيت، تغطيس اليدين ووضع الزيت على جباههم، مع أنَّ بعضهم كانوا يفركون بالزيت الجسد بأكمله. ولقد غدا المَيْرون، وهو زيت ممزوج بالبلسم، رمزاً للتثبيت، شانه شأن الماء بالنسبة للعماد. وفي الكنيسة الباكرة، كان التثبيت يُدعى «غَطْسُ اليدين» أو «غَطْسُ اليد». وكان هذا الطقس يجري في السبت المقدّس بعد العماد. وباكتمال هذين المَنْسَكين، كان يجري الطقس الأخير، القربان المقدّس، الذي يحتفي بالاختلاف الأخير بين المسيحيين واليهود، لأن المسيح كان يُمثَّل هنا في شكلٍ دنيويٍّ، هو الخبز والنبيذ.

اليهوديّ ضدّ غير اليهوديّ

لم يكن الفارق بين المسيحية الباكرة واليهودية واضحاً أو دقيقاً، لأنَّ الكنيسة الباكرة تشكّلت من اليهود وغير اليهود على حدٍّ سواء، وادّعى كلٌّ طرف التفوق والصدارة. وأول خلاف باعد بين الجماعتين هو ذاك الذي نشب حول الختان. ففي السابق، كان غير اليهودي الذكر الذي يهتدي إلى اليهودية يخضع للختان، وهو أمر مؤلم بالنسبة إلى البالغين، ويدلّ على قبول المرء العهد بين الله وشعبه المختار، أي اليهود. غير أنَّ كثيراً من

غير اليهود أصغوا للمبشّرين المسيحيين الأوائل، خاصةً بطرس وبولس، ورغبوا في أن يغدو أعضاء في هذه الكنيسة. وكان لهذه الرغبة في اتّباع المسيح أن تؤدّي إلى نقاشٍ حول وجوب أن يغدو المرء يهودياً أولاً ثم مسيحياً، مما يجعل الختان ضرورة. وفي مَجْمَع إنطاكية وقف بطرس ضدّ هذه الضرورة وكانت له الغلبة، فلم يعد على غير اليهود أن يهتدوا إلى اليهودية قبل أن يغدوا مسيحيين. وهذا القرار، الذي لم يقبله جميع التلامذة الأوائل، أوجد انقساماً في المسيحية الباكرة بين المسيحيين اليهود والمسيحيين غير اليهود. فقد التمس المسيحيون اليهود، الذين مثّلهم يعقوب، أحد الحواريين الاثني عشر ورأس المسيحيين اليهود في أورشليم، أن تحقق لهم المسيحية أفكار العهد القديم ومفهوم المسيح المُنْتَظَر. فالمسيحية لليهود في رأيه، وهي تحقق ذلك الوعد القديم، وعد المسيح المُنْتَظَر. ولذلك كان على الذين يؤمنون بأنّ يسوع هو المسيح المُنْتَظَر أن يغدوا يهوداً.

ويتجلّى هذا الانقسام بين المسيحيين اليهود وغير اليهود على أفضل وجه في الكتيّب المسيحي الباكر، الذيذاخة، الذي يناقش، بين أشياء أخرى، قواعد الطعام والصيام وأيام العبادة. ومع أنَّ مسيحياً يهودياً قد يكون هو الذي كتب الذيذاخة، فإنَّ غاية هذا الكتيّب الواضحة كانت المهتدين من غير اليهود. وهؤلاء الأخيرون لا يتّبعون قواعد الطعام اليهودية الصارمة؛ وفي حين كان اليهود، والمسيحيون اليهود على الأرجح، يصومون يومي الأحد والخميس، فإنَّ المسيحيين من غير اليهود يُشَجَّعون على الصيام أيام الأربعاء والجمعة. وأخيراً فقد أبقى اليهود والمسيحيون اليهود يوم السبت مقدّساً، في حين قدّس المسيحيون من غير اليهود يوم الأحد، احتفالاً بقيامة المسيح. ولقد أحدثت هذه الاختلافات تغيّرات في حياة المسيحيين اليومية. ففي حين تَوَاصَلَ النظرُ إلى المسيحيين اليهود على أنّهم طائفة من الطوائف اليهودية، عملت هذه التغيرات في قواعد الطعام والصيام وأيام العبادة على وَضْع المسيحيين من غير اليهود خارج الحياة اليهودية السائدة وراحت تقرّبهم أكثر فأكثر من الحياة اليونانية–الرومانية، حيث أمكنهم الاندماج في المجتمع الروماني. لكنَّ هذا الاندماج لم يكن كاملاً، لأنّ المسيحيين، بخلاف السكان الوثنيين، كانوا يرفضون الاحتفال بالأعياد الوثنية، الأمر الذي كثيراً ما لفت الانتباه إليهم وربما أدّى إلى اضطهادهم.

كان للتغيّر الذي شهدته فلسطين بانفصال أتباع يسوع اليهود أثره العميق على الحياة

اليومية. فأتباع المسيح لم يعودوا مقيّدين إلى العادات اليهودية القديمة، خاصةً ما تعلّق بالختان وقواعد الطعام. وعلاوةً على ذلك، فقد زالت حاجة الأتباع لأن يقيموا تلك الأبنية اليهودية الخاصة ما إن جرى التحول من المجامع إلى الكنائس. وأخيراً، فإنَّ الهيكل لم يعد يستأثر بالأهمية كلّها، ما إنْ جرى الانقسام. ولقد تركت جميع هذه التغيرات أثرها على حياة المؤمنين بيسوع اليومية ليس في فلسطين وحسب، بل أيضاً في بقية العالم الروماني.

الفصل السادس

الصنائع والحِرَف

«وَأَنْتُم مِثْلُ أُنَاسٍ يَنْتَظِرُونَ سَيِّدَهُمْ مَتى يَرْجِعُ مِنَ الْعُرْسِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ وَقَرَعَ يَفْتَحُونَ لَهُ لِلْوَقْتِ. طُوبَى لأُولَئِكَ الْعَبِيدِ الَّذِينَ إِذَا جَاءَ سَيِّدُهُمْ يَجِدُهُمْ سَاهِرِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَتَمَنْطَقُ وَيُتْكِئُهُمْ وَيَتَقَدَّمُ وَيَخْدُمُهُمْ. وَإِنْ أَتَى فِي الْهَزِيعِ الثَّانِي أَوْ أَتَى فِي الْهَزِيعِ الثَّالِثِ وَوَجَدَهُمْ هكَذَا، فَطُوبَى لأُولَئِكَ الْعَبِيدِ. وَإِنَّمَا اعْلَمُوا هذَا: أَنَّهُ لَوْ عَرَفَ رَبُّ الْبَيْتِ فِي أَيَّةِ سَاعَةٍ يَأْتِي السَّارِقُ لَسَهِرَ، وَلَمْ يَدَعْ بَيْتَهُ يُنْقَبُ».

(لوقا 12: 36–39)

يذكر العهد الجديد عدداً من المهن التي لعلّها كانت معهودة في ذلك الحين. وسوف يستكشف هذا الفصل مختلف المهن وما كان لها من أثر على المجتمع. فمهنة المرء كانت تحدد موقعه في المجتمع. وبمرور الوقت راح يُنظَر إلى المهن المختلفة على أنّها تخصّ الطبقات الاجتماعية المختلفة، العليا أو الوسطى أو الدنيا، الأمر الذي كان يمكن أن يتبدّل من حين إلى آخر.

البنّاؤون

بدايةً، كان يوسف والد يسوع نجّاراً. وكانت النِّجارة صَنْعَةٌ حِرْفيّة ولعلّها من حِرَف الطبقة الوسطى. وكان النجار يصنع أثاث البيت، من مناضد وكراسٍ وصناديق وسواها. ولأنَّ هذا يتطلّب مهارةً، فقد نظر إلى النجار على أنّه صانعٌ ماهر تلقّى التدريب، وليس مجرّد شغّيل. وعادةً ما كان هذا التدريب يستغرق سنوات عدّة يُدْعى خلالها المرء متمرّناً. ولدى انتهاء هذه الفترة، يستطيع الانجار أن يمارس حرفته ويغدو شخصاً محترماً في جماعته. ومثل هذا الوضع يفتح أمامه منفذاً إلى السلطة، ويجعل عائلته تحظى بالتعليم، والاحترام، والسلطة السياسية المحلية. ومن الواضح، مثلاً، أنَّ يسوع، ابن النجّار، كان قد تعلّم القراءة، إذ تذكر الأناجيل أنّه كان يقرأ في المَجْمَع المحلي ثم يعلّم. ووضع والده الاجتماعي هو ما جعله مقبولاً لدى الجماعة المحلية إذا ما قرأ وعلّم في مجمعها. وقد

اقتضت العادة أن يتعلّم المرء حرفته من قريب له، هو الوالد في الأغلب. ومع أنّه ما من دليل على أنَّ يسوع قد مارس النجارة، إلا أنّه يُشار إليه بوصفه ابن النجار، ومن المعقول أن نفترض أنه قد تعلّم حرفة والده.

ومن الصنائع الأخرى الشبيهة بالنجارة، صَنْعَة الحجّار أو البنّاء. ومع أنّ هذه الصنعة لا تُذكَر مباشرةً في الأناجيل، فإنَّ ثمّة إشارة إليها في كلام تلاميذ يسوع على جمال زينة الهيكل (مرقس13: 1–2؛ لوقا21: 5–6)[1]. وكان ثمّة طلب عظيم على الحجّارين، خاصّةً في عهد هيرودس الأكبر، لإتمام الهيكل وبناء مدينة قيصرية، خاصّةً الميناء. وكانت الحاجة إلى الحجّارين لضمان البناء على النحوِ الصحيح وجَعْلِ الواجهات، التي غالباً ما كانت تُزَيَّن بالرخام، متعةً للناظرين. وعلاوةً على الحجّارين بوجهٍ عام، كان أولئك الذين يعملون بالرخام، أو الحجّارون المتخصصون، يحظون بأهمية أكبر. وكان عليهم أن يتقنوا التقاء سطوح الأحجار وصقلها. وقد اكتشف الآثاريون مؤخّراً مقلع أحجار في أورشليم تُظْهِر الأدلّة أنّه استُخْدم في عهد هيرودس. وتشير الحفريات إلى أنه مقلع ضخم كانت تُقْطَع منه أحجار تَزِنُ حوالي 20 طناً لتُستخدم في مشروع كبير. ومع أنّه يصعب التأكيد أنَّ ذلك المشروع هو الهيكل، فإنَّ الأدلة تشير إلى استخدام هذا المقلع في عهد هيرودس وفي مشروع كبير، كمثل مشروع الهيكل.

عمال الجلود والملابس

يذكر العهد الجديد أولئك الذين يعملون في الجلد والصنائع المرتبطة به، صانعي الخيام والدبّاغين. وكان بولس الطرسوسي قد تمرّس في هذه الصنائع. وقد حظي عمّال الجلود بأهمية هائلة لأنّهم يصنعون الثياب والحقائب وعدّة الجياد، وسوى ذلك من الكسوة. وكانت هذه الصنعة، أيضاً، تحتاج تدريباً وخبرة. أمّا الطلب على عمّال الجلود فمصدره التجّار وعامة الناس والجيش، الأمر الذي جعل كمية الجلد المطلوبة هائلةً. وعلى سبيل المثال، فإنَّ الفرد العادي كان يحتاج حينئذٍ إلى حذاء، وحقيبة صغيرة أو جزدان، وقربة

(1) « 1 وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْهَيْكَلِ، قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: «يَامُعَلِّمُ، انْظُرْ! مَا هذِهِ الْحِجَارَةُ! وَهذِهِ الأَبْنِيَةُ!» 2فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَنْظُرُ هذِهِ الأَبْنِيَةَ الْعَظِيمَةَ؟ لاَ يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ» (مرقس).
«5وَإِذْ كَانَ قَوْمٌ يَقُولُونَ عَنِ الْهَيْكَلِ إِنَّهُ مُزَيَّنٌ بِحِجَارَةٍ حَسَنَةٍ وَتُحَفٍ، قَالَ: 6»هذِهِ الَّتِي تَرَوْنَهَا، سَتَأْتِي أَيَّامٌ لاَ يُتْرَكُ فِيهَا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ» (لوقا).

للشراب أو الماء، وحقيبة أكبر لحمل البضائع، وإذا ما كان يعمل في صنعةٍ فقد يحتاج إلى أغطية يضعها فوق عربة أو أكياس يضع فيها منتجاته. وكان الجيش يحتاج إلى الخيام في مناوراته وحملاته. وفي الشرق كانت هذه الحاجة جوهرية، لأنَّ الجيش في سوريا كان مؤلّفاً من ثلاث فرق على الأقل. ولمّا كان الجيش في حالةٍ من التجدد المتواصل في عناصره فقد دعت الحاجة إلى دَفْقٍ متواصل من الأحذية والدروع الجلدية والتروس التي تحتاج سيوراً جلدية، وعُدَد الجياد وكسوتها، وسوى ذلك من الأشياء. وكان التجار والباعة يحتاجون الخيام في سفرهم من بلدة إلى أخرى، في مناطق غير مأهولة غالباً، مما يقتضي مبيتاً مؤقتاً. وذلك فضلاً عن حاجتهم إلى مصنوعات جلدية أخرى عدّةً لجمالهم وجيادهم، ومواد لحمل أغراضهم وتخزينها، ولوازم لعرباتهم مثل السيور والأغطية. ولأنَّ الحاجة إلى هذه البضائع عمّت شرق المتوسط، فإنَّ الطلب على المواد الجلدية كان متواصلاً.

وكان ثمّة طلب زائد أيضاً على أولئك الذين يعملون في الألبسة. وفي حين كان معظم الألبسة يُصْنَع في البيت، كانت بعض المتاجر تنتج ملابس الطبقات العليا. وكانت هذه المتاجر تُنْتج أيضاً ملابس أخشن للشعب العادي. وكان في الواحد من هذه المتاجر حائك معلَّم يملكه أو يديره. فإذا ما كان هذا الحائك المعلّم مديراً للمتجر وحسب فإنَّ المالك قد يكون شخصاً ثرياً لديه أراضٍ أو متاجر أو يعمل في صنائع أخرى تدرّ المال. ولعلّ الحائك المعلّم لا يقوم بالعمل بنفسه، بل يكون لديه عمال كثيرون من شتى المراتب هم الذين يقومون بالحياكة وينجزون العمل الفعلي. فبعد الحائك المعلّم كان ثمّة أولئك الذين أثبتوا أنهم ينتجون بضاعة من نوعية رفيعة تبيع جيداً. أمّا أدنى منهم فكان أولئك القادرون على إنتاج مادة تلقى القبول لدى الجمهور.

وأخيراً، في القعر، ثمّة المتدرّبون. وعادةً ما كان عقد التدريب يشتمل عدداً من العناصر. فهناك أولاً الفترة الزمنية التي يقبل المتدرّب أن يقضيها. وهي سنة واحدة في العادة، على الرغم من وجود فترات تقلّ عن ذلك أو تزيد، من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات. وعادةً ما تشير هذه الفترة الزمنية إلى عدد الأيام التي سيعمل بها المتدرّب في الشهر الواحد، وعدد الساعات في اليوم. وكان العقد يشير إلى ما سيقدّمه المعلّم من حيث الطعام والأجور. وكان هنالك في العادة مطالبة بدفع الضرائب التي يؤدّيها المعلم

عادةً. وأخيراً، كانت بعض العقود تطالب المتدرّب بأن يعمل لدى المعلّم بعد أن تنتهي فترة التدريب.

وكان هنالك عدد من الأقمشة المختلفة التي يمكن للمرء أن يستخدمها، بحسب موارده الاقتصادية. ففي الطرف الأعلى ثمّة الحرير، الذي يُستورَد من الصين، وتُصنع منه الملابس الداخلية الرقيقة والملابس الخارجية الملوَّنة. وكان يُدْفَع لعمال الحرير جيداً ويُستَخْدَمون بصورة أساسية لدى الأثرياء وأصحاب السلطان. وبعد الحرير يأتي الكتّان المرتفع الثمن. أمّا القماش الأكثر شيوعاً فهو الصوف. وكانت الحرفة المرتبطة بالحياكة، لكنها أكثر ربحاً، حرفة أولئك الذين يصبغون غَزْل الصوف والحرير ليستخدمه الحائكون بعد ذلك. وثمة ذِكْر لبيّاعة أرجوان في أعمال الرسل 16: 14[1]، وإنْ يكن ذِكْراً عابراً، مما يشير إلى أنّه كان هنالك صبّاغون. وهذا ما تثبته المصادر من خارج الكتاب المقدّس إذ تشير إلى ما كان في مدينة صور من ازدهار في صنعة صَبْغ الأقمشة.

صيد الأسماك

من الصنائع الأخرى التي تُذْكَر مباشرةً في العهد الجديد صيد الأسماك. وعلى سبيل المثال، فإنَّ عدداً من تلامذة يسوع كانوا صيادين (مرقس 1: 16–20)[2]. وهذه الصنعة أيضاً كانت احترافية لأنّه كان على الصيادين أن يصنعوا الشباك ويصلحوها، وأن يُبْحِروا ويقودوا المراكب، وأن يعملوا كما التجار. ولذلك كان على الصيادين أن يتلقوا تدريباً محترفاً على أمور تتعلّق بقيادة المراكب وأن يكونوا في الوقت ذاته تجّاراً يبيعون صيدهم. ويذكر العهد الجديد منطقة الجليل حول بحيرة طبرية (بحر الجليل)، وكيف دعا يسوع عدداً من الصيادين أن يتبعوه. وتذكر الأناجيل أيضاً أنَّ يسوع وتلامذته عبروا بحر الجليل بالقارب إلى مناطق العَبْر أو أنهم كانوا في البحر وحدث فيه اضطراب عظيم وكان يسوع

(1) «14 فَكَانَتْ تَسْمَعُ امْرَأَةٌ اسْمُهَا لِيدِيَّةُ، بَيَّاعَةُ أُرْجُوَانٍ مِنْ مَدِينَةِ ثَيَاتِيرَا، مُتَعَبِّدَةٌ للهِ، فَفَتَحَ الرَّبُّ قَلْبَهَا لِتُصْغِيَ إِلَى مَا كَانَ يَقُولُهُ بُولُسُ».

(2) «16 وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي عِنْدَ بَحْرِ الْجَلِيلِ أَبْصَرَ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. 17فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ:«هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا تَصِيرَانِ صَيَّادَيِ النَّاسِ». 18فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا شِبَاكَهُمَا وَتَبِعَاهُ. 19ثُمَّ اجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ قَلِيلاً فَرَأَى يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، وَهُمَا فِي السَّفِينَةِ يُصْلِحَانِ الشِّبَاكَ. 20فَدَعَاهُمَا لِلْوَقْتِ. فَتَرَكَا أَبَاهُمَا زَبْدِي فِي السَّفِينَةِ مَعَ الأَجْرَى وَذَهَبَا وَرَاءَهُ».

نائماً وقام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم (متى 8: 23–27)[1]. وتكمن أهمية هذه القصص في أنَّ حرفة الملاّح كانت حرفة مهمة وأساسية في تلك المنطقة.

جُبَاة الجزية (العشّارون)

ثمّة حِرف كان يُنْظَر إليها نظرة دونية لكنها كانت مهمة وذُكِرَت في العهد الجديد، كالمحاسبين، والعشّارين، وموظّفي ديوان الجباية (لوقا 5: 27–32)[2]. فالعشّار، الذي كان يُرى إليه على أنّه مستعدّ لأن يستولي على بيت جاره أو أرضه باسم روما، لم يكن مُحْتَقَراً وحسب بل كان يُنْظَر إليه أيضاً كخائن أو عميل. وكان العشّارون بحاجة إلى معرفة الكتابة والقراءة والحساب فضلاً عن القدرة على التعامل مع الناس، سواء كانوا من موظّفي الحكومة أو من الشعب العادي. ولأنّهم كانوا في العادة من السكّان المحليين، كان عليهم أن يسيروا على خطٍّ دقيق بين الإساءة إلى شعبهم وإرضاء الحكومة. وكان يُطْلَق على هؤلاء الأشخاص اسم الـ publicani (جُبَاة الرومان) وينظر إليهم شعبهم على أنّهم خونة. وكان عليهم أن يعرفوا كيف يحولون من دون أن يسيء إليهم (أو دون أن يُفْرِطَ في الإساءة إليهم) موظفو الحكومة الذين يريدون أن يغتنوا، وأن يتقنوا أيضاً فنّ التفاهم والتفاوض مع أُناسٍ لا يريدون دفع الجزية ويأتون بأعذار وقصص لا تنتهي.

وكانت الصنائع المصرفية رديفة هذه الصنائع. وغالباً ما اقترنت المصارف في العالم القديم بالمعابد الوثنية، التي كانت أشبه بصناديق إيداع آمنة تتيح للمودعين حفظ ممتلكاتهم. وكانت هنالك أيضاً مصارف، تمنح القروض بفائدة للتجار، وملاّك الأرض، وسواهم. ومن المصرفيين الجنرال والسياسي الروماني ماركوس ليسينيوس كراسوس، زميل يوليوس قيصر الذي جنى بعض ثروته من إقراض ملاّك الأرض الرومان الأثرياء الذين كانوا يقعون

(1) «23 وَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةَ تَبِعَهُ تَلاَمِيذُهُ. 24وَإِذَا اضْطِرَابٌ عَظِيمٌ قَدْ حَدَثَ فِي الْبَحْرِ حَتَّى غَطَّتِ الأَمْوَاجُ السَّفِينَةَ، وَكَانَ هُوَ نَائِمًا. 25فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَأَيْقَظُوهُ قَائِلِينَ: »يَا سَيِّدُ، نَجِّنَا فَإِنَّنَا نَهْلِكُ!» 26فَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟» ثُمَّ قَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ، فَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. 27فَتَعَجَّبَ النَّاسُ قَائِلِينَ: «أَيُّ إِنْسَانٍ هذَا؟ فَإِنَّ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ جَمِيعًا تُطِيعُهُ!»».

(2) «27 وَبَعْدَ هذَا خَرَجَ فَنَظَرَ عَشَّارًا اسْمُهُ لاَوِي جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ، فَقَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». 28فَتَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَامَ وَتَبِعَهُ. 29وَصَنَعَ لَهُ لاَوِي ضِيَافَةً كَبِيرَةً فِي بَيْتِهِ. وَالَّذِينَ كَانُوا مُتَّكِئِينَ مَعَهُمْ كَانُوا جَمْعًا كَثِيرًا مِنْ عَشَّارِينَ وَآخَرِينَ. 30فَتَذَمَّرَ كَتَبَتُهُمْ وَالْفَرِّيسِيُّونَ عَلَى تَلاَمِيذِهِ قَائِلِينَ: «لِمَاذَا تَأْكُلُونَ وَتَشْرَبُونَ مَعَ عَشَّارِينَ وَخُطَاةٍ؟» 31فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ، بَلِ الْمَرْضَى. 32لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ».

في ضيقةٍ ماليّة. ولقد اغتنى كراسوس بفرضه فائدةً ثقيلة، غالباً ما تجاوزت نسبة 10٪ المعهودة لدى الرومان. وكان هؤلاء المصرفيون منتشرون في أرجاء العالم المتوسطي ولا ينفكّون يمنحون القروض ويجنون الفوائد من جميع الطبقات. وعادةً ما كان يجري تخطّي القوانين ضد الربا إنْ لم يكن الشخص المُقْرِض رومانياً. وبالطبع كان ثمّة مخاطر يمكن أن تحيق بالدائن. فإذا ما كان المدين رومانياً صَعُبَ في بعض الأحيان استرداد الدَّيْن ما لم يكن ثمّة عقد مُحْكَم، إذ كان بمقدور الرومان أن يحتجّوا بأنّهم مُستَثنون من مثل هذه العقود. وقد اعتمدت في اليهودية أنظمة شرعية صارمة تخصّ الاستدانة والإقراض. وكانت وثائق الدفعات التي يسددها المدين تُسَجَّل أمام شهود وتُوَقَّع، لضمان ألاّ يُجادَل في صحّتها. ولم يكن يشار إلى المبلغ المستدان أعلى الوثيقة وحسب بل في المتن أيضاً. ويبدو أنَّ الفائدة كانت أقلّ من النسبة الرومانية البالغة 1٪ في الشهر أو 12٪ في السنة. وكان بمقدور المرء أن يأخذ رهناً إنما بشروط معينة وحسب؛ فلم يكن بمقدوره أن يأخذ رهناً من أرملة، على سبيل المثال. وفي حين استندت الممارسة الرومانية إلى القانون، فقد دأبت الممارسة اليهودية على التأكيد على اتّباع الممارسة الدينية.

ولقد اقترن بالمصارف أولئك الصيارفة الذين يبدّلون العملة. ففي أرجاء المتوسط في هذه الفترة انتشرت عملات محلية، تُستَخْدَم في الأسواق المحليّة. وفي حين استخدمت العملة الرومانية في أرجاء الإمبراطورية، كان يمكن استخدام العملات المحلية البرونزية أيضاً. وكانت المدن تُصدِر عملاتها الخاصة وعادةً ما تطلب أن تبدّل بالعملات الأجنبية. وكان هذا التبديل يعود على مبدّلي العملة بالربح، إذ كانوا يأخذون نسبةً مئويةً أو يعطون أقلّ من سعر السوق، على نحوٍ يشبه ما يجري اليوم حين يسافر السيّاح ويستبدلون بعملتهم عملةً محليةً. ولقد لعب الصيارفة في فلسطين دوراً مهماً لأنَّ جزية الهيكل كانت تُدْفَع بالعملة اليهودية، فضلاً عن استخدام هذه العملة الأخيرة في شراء الأضاحي التي تُقدَّم في الهيكل. ويشير العهد الجديد، علاوةً على ذلك، إلى من كانوا في الهيكل من باعة المواشي والحمام، التي كانت تُقدَّم كأضاحٍ هناك (متّى 21: 12—17؛ مرقس 11: 15—19)[1].

(1) «12 وَدَخَلَ يَسُوعُ إِلَى هَيْكَلِ اللهِ وَأَخْرَجَ جَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي الْهَيْكَلِ، وَقَلَبَ مَوَائِدَ الصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ 13وَقَالَ لَهُمْ: «مَكْتُوبٌ: بَيْتِي بَيْتَ الصَّلاَةِ يُدْعَى. وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ!» 14وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ عُمْيٌ وَعُرْجٌ فِي الْهَيْكَلِ فَشَفَاهُمْ. 15فَلَمَّا رَأَى رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ الْعَجَائِبَ الَّتِي صَنَعَ، وَالأَوْلاَدَ يَصْرَخُونَ

وإضافةً إلى العشّارين، الذين كان يُنظَر إليهم بازدراء، كانت النظرة ذاتها تلقى إلى البغايا، اللواتي غالباً ما يُدْعَين بالخطاة. ولقد عرفت معظم المجتمعات نساءً ورجالاً انخرطوا في هذه الممارسة، بسبب الظروف الاقتصادية في الغالب. ولطالما حاول المجتمع القديم أن ينظّم هذه الممارسة ويثبّطها، لكنّنا نجد في العهد الجديد أنَّ الموظّفين الرومان واليهود لم يحظّروا البغاء. وتشير بُردى من مصر إلى أخذ الجزية من بغي. ويرى بعض الباحثين أنَّ تعبير الخطاة الوارد في الأناجيل، خاصّة حين يتعلق بمريم المجدلية، ربما لم يكن يشير إلى البغاء، بل كان بمثابة هجوم على مريم المجدلية، التي لعلّها لم تكن في الحقيقة سوى تلميذة من تلامذة يسوع، بغية خَفْض مكانتها في الكنيسة الباكرة. غير أنَّ البغاء كان حرفةً متفشيةً في المجتمع. وكانت له في هذا المجتمع مستويات عدّة. ففي المستوى الأدنى ثمّة البغي المستقلة، التي تنعم بأقلّ قَدْر من الحماية وتتعرض لأكبر قَدْر من الخطر. وثمّة البغايا اللواتي لديهن قوّادين يدبّرون الزبائن ويحمون العاملات. وهؤلاء البغايا كن ينعمن بقدر من الأمن أكبر قليلاً، لكنه كان متوقفاً على قدرتهن على تحديد طبقات زبائنهن الاجتماعية. وفي المستوى الثاني كان ثمّة المباغي، وفيها عاملون كُثُر، من النساء والرجال على حدّ سواء، وكانوا ينعمون بمزيد من الحماية. فهذه البيوت لم تكن تستخدم حراساً خاصّين وحسب بل ربما تمتّعت بقدر من الحماية الرسمية من لدن الشرطة المحلية والحكومة، مقابل أثمان بالطبع. أمّا على المستوى الأرفع فثمّة البغايا اللواتي يخدمن الأرستقراطية. وكان لدى هؤلاء في العادة ما يكفي من الصلات التي تضمن لهن المكانة والحماية. ويبدو أنَّ البغايا اللواتي تذكرهنّ الأناجيل كنَّ من مستويات المجتمع الدنيا.

وتشير الأناجيل إلى الباعة أو التجّار بعبارات عامة، قاصدةً ربما أولئك التجار العاديون الذين كانوا يتنقلون في أرجاء عالم المتوسط. ولعلَّ هؤلاء كانوا منخرطين في

فِي الْهَيْكَلِ وَيَقُولُونَ: «أُوصَنَّا لابْنِ دَاوُدَ!»، غَضِبُوا 16وَقَالُوا لَهُ: «أَتَسْمَعُ مَا يَقُولُ هؤُلاَءِ؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «نَعَمْ! أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ: مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ هَيَّأْتَ تَسْبِيحًا؟». 17ثُمَّ تَرَكَهُمْ وَخَرَجَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا وَبَاتَ هُنَاكَ» (متّى).

«15وَجَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ الْهَيْكَلَ ابْتَدَأَ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي الْهَيْكَلِ، وَقَلَّبَ مَوَائِدَ الصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ. 16وَلَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَجْتَازُ الْهَيْكَلَ بِمَتَاعٍ. 17وَكَانَ يُعَلِّمُ قَائِلاً لَهُمْ: «أَلَيْسَ مَكْتُوبًا: بَيْتِي بَيْتَ صَلاَةٍ يُدْعَى لِجَمِيعِ الأُمَمِ؟ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ». 18وَسَمِعَ الْكَتَبَةُ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ فَطَلَبُوا كَيْفَ يُهْلِكُونَهُ، لأَنَّهُمْ خَافُوهُ، إِذْ بُهِتَ الْجَمْعُ كُلُّهُ مِنْ تَعْلِيمِهِ. 19وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ، خَرَجَ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ» (مرقس).

تجارة المسافات البعيدة، عبر ذلك الميناء الممتاز الذي بناه هيرودس الأكبر في قيصرية؛ أو في التجارة الإقليمية بين مصر وشبه الجزيرة العربية وسوريا، بواسطة الجِمال؛ أو في التجارة المحلية ضمن المقاطعات والمنطقة المحيطة، بواسطة البغال والعربات. وكان هؤلاء التجار هم المنفذ إلى تشكيلة واسعة من السلع وأتاحوا للسلع الفلسطينية أن تصل إلى أصقاع نائية. وكان لكثير منهم روابط في فلسطين، خاصةً مع ملاّك الأرض اليهود الأقوياء والأغنياء. وكان لهؤلاء التجّار، خاصّةً تجّار المسافات البعيدة، مكاتب في مدن أخرى مثل الإسكندرية وأوستيا، وفي ميناء روما. ونظراً لوجود جالية كبيرة من اليهود في الإسكندرية وروما، من المعقول أن نفترض أنَّ بعضهم كانوا وكلاء للتجّار الفلسطينيين.

الزراعة

تذكر الأناجيل الزراعة، المهنة الكبرى في ذلك الوقت، والتي اشتملت على تشكيلة من المهن. ويشير إنجيل لوقا إلى رعاةٍ لهم صلة بميلاد يسوع (لوقا 2: 8–20)[1]. وكان بمقدور الريف أن يوفّر الكلأ لأعداد ضخمة من الأغنام، التي تُعَدُّ سلعةً مهمة. فإضافةً إلى الصوف، نتاجها الأكبر، كانت الأغنام تُستخدم أيضاً كطعامٍ وأضاحٍ دينية. لكنَّ الصوف ظلّ السلعة الأهمّ لأنّه أساسيّ في صنع الملابس. وثمة عمّال، لم يذكرهم العهد الجديد، بل أشارت إليهم نصوص أخرى، كانوا يغزلون الصوف، ويديرون الأنوال، ويصنعون الثياب. ولأن الصوف مادة ممتازة لكلٍّ من ملابس الصيف والشتاء، فقد كان ثمّة طلب عظيم عليه. وعلاوةً على جزّ صوف الأغنام، كان ثمة حاجة إلى عمّال يغزلون الصوف، ثم إلى حياكة الغَزْل وتحويله إلى ملابس. وفي كلّ مرحلة كان ثمة حاجة إلى مستوى

(1) «8وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، 9وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ
الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. 10فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ: »لاَ تَخَافُوا! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ
لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: 11أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. 12وَهذِهِ لَكُمُ الْعَلاَمَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً
مُقَمَّطًا مُضْجَعًا فِي مِذْوَدٍ». 13وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللهَ وَقَائِلِينَ: 14»الْمَجْدُ
للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ».
15وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرجال الرُّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: »لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرْ
هذَا الأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمَنَا بِهِ الرَّبُّ». 16فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجَعًا فِي الْمِذْوَدِ.
17فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلاَمِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هذَا الصَّبِيِّ. 18وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوا تَعَجَّبُوا مِمَّا قِيلَ لَهُمْ مِنَ الرُّعَاةِ.
19وَأَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِي قَلْبِهَا. 20ثُمَّ رَجَعَ الرُّعَاةُ وَهُمْ يُمَجِّدُونَ اللهَ وَيُسَبِّحُونَهُ
عَلَى كُلِّ مَا سَمِعُوهُ وَرَأَوْهُ كَمَا قِيلَ لَهُمْ».

مختلف من التعقيد. وعلى سبيل المثال، كان الحائكون يُعْتَبَرون من الصنائعية، أما أولئك الذين يجزّون الأغنام فليسوا كذلك.

ومن المهن الزراعية الكِرامَة. وفي العهد الجديد إشارات عديدة إلى العمل في الكروم (متّى 20: 1—16؛ مرقس 12: 1—12)[1]. وكان الخمر سلعة مهمة في العالم القديم. فعلى الرغم من أنَّ الماء هو الشراب الأساسي، إلا أنَّ الخمر يأتي بعده مباشرةً. وقصة العرس في قانا تبيّن بوضوح استخدام الخمر في الولائم. وثمة إشارات في العشاء الأخير إلى أنَّ الخمر كان شائع الاستخدام في الطقوس الدينية، مثل السيدر[2]. وكانت منطقة المتوسط بشتاءاتها

(1) « 1 فَإِنَّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلاً رَبَّ بَيْتٍ خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأْجِرَ فَعَلَةً لِكَرْمِهِ، 2فَاتَّفَقَ مَعَ الْفَعَلَةِ عَلَى دِينَارٍ فِي الْيَوْمِ، وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى كَرْمِهِ. 3ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ وَرَأَى آخَرِينَ قِيَامًا فِي السُّوقِ بَطَّالِينَ، 4فَقَالَ لَهُمُ: اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَأُعْطِيَكُمْ مَا يَحِقُّ لَكُمْ. فَمَضَوْا. 5وَخَرَجَ أَيْضًا نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ وَالتَّاسِعَةِ وَفَعَلَ كَذلِكَ. 6ثُمَّ نَحْوَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ خَرَجَ وَوَجَدَ آخَرِينَ قِيَامًا بَطَّالِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا وَقَفْتُمْ ههُنَا كُلَّ النَّهَارِ بَطَّالِينَ؟ 7قَالُوا لَهُ: لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْجِرْنَا أَحَدٌ. قَالَ لَهُمُ:اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَتَأْخُذُوا مَا يَحِقُّ لَكُمْ. 8فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ قَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ لِوَكِيلِهِ: ادْعُ الْفَعَلَةَ وَأَعْطِهِمُ الأُجْرَةَ مُبْتَدِئًا مِنَ الآخِرِينَ إِلَى الأَوَّلِينَ. 9فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِينَارًا دِينَارًا. 10فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضًا دِينَارًا دِينَارًا. 11وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ 12قَائِلِينَ: هؤُلاَءِ الآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ النَّهَارِ وَالْحَرَّ! 13فَأَجَابَ وَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: يَا صَاحِبُ، مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟ 14فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ. 15أَوَ مَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَا لِي؟ أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟ 16هكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ، لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ» (متّى).

«1وَابْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ بِأَمْثَال:»إِنْسَانٌ غَرَسَ كَرْمًا وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ حَوْضَ مَعْصَرَةٍ، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. 2ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الْكَرَّامِينَ فِي الْوَقْتِ عَبْدًا لِيَأْخُذَ مِنَ الْكَرَّامِينَ مِنْ ثَمَرِ الْكَرْمِ، 3فَأَخَذُوهُ وَجَلَدُوهُ وَأَرْسَلُوهُ فَارِغًا. 4ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا عَبْدًا آخَرَ، فَرَجَمُوهُ وَشَجُّوهُ وَأَرْسَلُوهُ مُهَانًا. 5ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا آخَرَ، فَقَتَلُوهُ. ثُمَّ آخَرِينَ كَثِيرِينَ، فَجَلَدُوا مِنْهُمْ بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا. 6فَإِذْ كَانَ لَهُ أَيْضًا ابْنٌ وَاحِدٌ حَبِيبٌ إِلَيْهِ،أَرْسَلَهُ أَيْضًا إِلَيْهِمْ أَخِيرًا، قَائِلاً: إِنَّهُمْ يَهَابُونَ ابْنِي! 7وَلكِنَّ أُولئِكَ الْكَرَّامِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ فَيَكُونَ لَنَا الْمِيرَاثُ! 8فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ. 9فَمَاذَا يَفْعَلُ صَاحِبُ الْكَرْمِ؟ يَأْتِي وَيُهْلِكُ الْكَرَّامِينَ، وَيُعْطِي الْكَرْمَ إِلَى آخَرِينَ. 10أَمَا قَرَأْتُمْ هذَا الْمَكْتُوبَ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ، هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ 11مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا!» 12فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ، وَلكِنَّهُمْ خَافُوا مِنَ الْجَمْعِ، لأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ قَالَ الْمَثَلَ عَلَيْهِمْ. فَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا» (مرقس).

(2) —عشية عيد الفصح، ويسمى «ليل هسيدر»، يجتمع أفراد العائلة حول مائدة الفصح، لاستقبال العيد، وسرد حكاية عيد الفصح للناشئة، ويتميز هذا الحفل بطقوس وأطعمة خاصة بالعيد، وتشمل خضار ذات طعم مرّ حيث ترمز الى مرارة العبودية، إضافة إلى ضلع خروف مشوي يرمز إلى أضحية الفصح التي كانت تذبح في أورشليم بعد ظهر يوم الرابع عشر من نيسان العبري عشية عيد الفصح، وبيضة ترمز الى «أضحية العيد» التي كانت تذبح للتعبير عن الفرحة والبهجة الى جانب «أضحية الفصح»، وفطائر العيد (متسوت)، وغيرها من الأطعمة التي يتميز كلّ منها بدلالة رمزية معينة.



الكروم وبساتين الزيتون قرب بيت لحم. بموافقة مكتبة الكونغرس

المعتدلة مناسبةً لزراعة الكرمة. وغدا العنب في مناطق كثيرة المحصول التجاري الأكثر أهمية، لأنه كان يُحوَّل إلى خمر ويُنْقَل في أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وإلى جانب الكرّامين ثمة أولئك المنخرطون في زراعة الزيتون وإنتاج الزيت، الذي كان يستخدم في حاجات شتى، كوقود للسراج، وفي الطبخ، وكصابون للاستحمام، وفي حفظ بعض المنتجات الزراعية الأخرى. وكانت زراعة الزيتون تقتضي رساميل كبيرة وزمناً طويلاً، لأنَّ وصول شجرة الزيتون إلى مرحلة النضج وحَمْل الثمار كان يتطلّب سنوات.

وكانت زراعة الحنطة هي الزراعة الأهمّ، إذ تُستَخْدَم في صنع الخبز، قوت المجتمع الأساسي. ويذكر العهد الجديد مثل الزّارع الذي ينثر حبّه في أراضٍ شتى (لوقا 8: 4–8)[1].

(1) «4 فَلَمَّا اجْتَمَعَ جَمْعٌ كَثِيرٌ أَيْضًا مِنَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ، قَالَ بِمَثَل: 5»خَرَجَ الزَّارِعُ لِيَزْرَعَ زَرْعَهُ. وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ، فَانْدَاسَ وَأَكَلَتْهُ طُيُورُ السَّمَاءِ. 6وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الصَّخْرِ، فَلَمَّا نَبَتَ جَفَّ لأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ رُطُوبَةٌ. 7وَسَقَطَ آخَرُ فِي وَسْطِ الشَّوْكِ، فَنَبَتَ مَعَهُ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. 8وَسَقَطَ آخَرُ فِي الأَرْضِ الصَّالِحَةِ، فَلَمَّا نَبَتَ صَنَعَ ثَمَرًا مِئَةَ ضِعْفٍ». قَالَ هذَا وَنَادَى: »مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ!».

ولابدَّ من أنَّ هذه القصة لم تكن بالغريبة على السامع والقارئ. وأهمية الزَّارع، إلى جانب الطحّان والخبّاز، هي أهمية لا شكّ فيها. ومع أنَّ العهد الجديد لا يقدّم أمثلة صريحة عن هذه الصنائع جميعها، إلا أنه لا شكّ في أهميتها نظراً لذلك العدد الكبير من السكّان، في أورشليم وسواها من المدن، الذين لم يكونوا يعملون في الزراعة ويحتاجون إلى الخبز. ولابدَّ من أنَّ السكّان المحليين كانوا اعتمدوا على عدد كبير من العمال الزراعيين، في المزارع وفي المدن على حدٍّ سواء، ممن يمدّونهم بالقوت. فالجماعة المحلية كانت تُمَدّ بالحبوب من المزارع المحيطة، ومن ثمَّ ينقلها النَّقَلَةُ المحليون إلى المدن أو القرى.

ومع أنَّ العهد الجديد لا يقدّم أمثلة صريحةً على الكيفية التي كان يجري بها ذلك، فإنَّ بعض أوراق البردى المصرية تلقي شيئاً من الضوء على هذا الأمر، إذ تشير إلى أنَّ الجماعات المختلفة كانت تُزَوَّد بالحبوب المحليّة، التي تُعَبَّأ في أكياس تُحْمَل من المزرعة إلى أماكن استقبالها المحليّة، التي غالباً ما تكون طواحين. وهناك يجري تحويل هذه الحبوب إلى دقيق ثمّ تُباع إلى الخبّازين المحليين. وتشير المصادر إلى أنَّ بعض المزارعين، خاصةً الأثرياء أو الأقوياء، امتلكوا طواحينهم الخاصة، مما جعل العاملين لديهم أشدّ اتّكالاً على هؤلاء الملاّك. وتُظْهِر الأدلّة أنَّ معظم الأسواق المحلية كانت تُزوّد بالبضائع المحلية. غير أنَّ هذا الأمر كانت له مساوئه. فقد ازدادت سلطة بعضهم تلك الزيادة اللافتة عبر سيطرتهم على معيشة أبناء جماعتهم. وازدهرت الضِّيع الكبيرة وغالباً ما أساء ملاّك تلك الضِّيع استخدام موقعهم. فثمة في التلمود شكاوى من أنَّ بعض الأثرياء اشتروا حقوق المياه كي يجبروا ملاّك المزارع الأصغر على بيع مزارعهم. وعلاوةً على الزَّارعين، ثمّة إشارات إلى العمال الزراعيين، أي إلى أولئك الذين لا يملكون مزرعة بل يعملون في واحدة. وكان هؤلاء أصنافاً شتّى: العبيد، المستأجِرين، والعمال العرضيين أو المياومين. وكان وضع الزراعة زمن العهد الجديد غايةً في التعقيد، حيث التنقّل بين الأعمال والمهن. وعلى سبيل المثال، فإنّه كان يمكن لمزارعٍ أن يعمل في النقل أيضاً بعض الوقت ثم يغدو تاجراً. وكان لحجم المزرعة تأثيره أيضاً. فعمّال المزارع الصغيرة غالباً ما كانوا أفراد العائلة، الذين يقومون بأعمال متعددة، أما الضِّيع الكبيرة فغالباً ما كانت تتّسم بالتخصص. وكان الاقتصاد بحاجةٍ إلى كلٍّ من المزارع الكبيرة والصغيرة نظراً لما تقدّمه من خدمات لمختلف جماعات المجتمع.

اقتصاد الهيكل

كان ثمّة مهنة أخرى تُعنى بأضاحي الهيكل. فهذه الأضاحي تحتاج إلى أفراد يؤمّنون البهائم، ويعرفون ما تفرضه الشريعة من تعقيدات تخصّ طهارة هذه البهائم ونظافتها. كما دعت الحاجة أيضاً إلى عمّال يضمنون بقاء هذه الحيوانات حيّة وموضع عناية إلى حين التضحية بها، فضلاً عن عمّال آخرين لتنظيف الهيكل وإزالة البقايا، وسواهم لتوفير حطب النار. وكان هنالك أيضاً باعةٌ يوفّرون البخور وسواه من المواد التي تحتاج إليها أضاحي الهيكل. وكان لـ الهيكل أمنه الخاص، وحرّاسه، الذين لا يضمنون حمايته وحسب، بل يحدّدون أيضاً من يمكنه أن يدخل حرماته المختلفة (متّى 26: 51–52؛ لوقا 22: 52، يوحنا 18: 12)[1].

وقد شكّل الباعة جزءاً لا يتجزّأ من الهيكل، يوفّرون له حيوانات التضحية، مثل الحمام والحملان، ويقومون على خدمة الحجّاج. وعلى سبيل المثال، كان على الزوار من خارج فلسطين أن يبدّلوا عملاتهم، الرومانية أو اليونانية أو سواها، إلى عملة يهودية يسددون بها جزية الهيكل. وهذه الخدمات التي كان يقدّمها هؤلاء الصيارفة هي سبب الهجوم الذي يشنّه العهد الجديد عليهم. فصورة يسوع وهو يقلب موائد الصيارفة هي تلك الصورة الحيّة التي تُظْهِر الفوارق بين الهيكل المديني وزوّاره القرويين (لوقا 19: 45–46)[2].

مهنٌ لم يذكرها الكتاب المقدّس

لا تقتصر المهن التي كانت موجودة على المهن المذكورة في الكتاب المقدّس. فهناك كثير من الصنائع والحرف الأخرى. وعلى سبيل المثال، كان العمل في المناجم واحداً من أدنى الأعمال، وعادةً ما يُحْتَفَظ به للمجرمين. وثمّة ذِكْرٌ في وثائق أخرى لمناجم في فلسطين حيث كان المحكومون يجبرون على تنفيذ أحكامهم، حتى الموت في الغالب.

(1) «51وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ. 52فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ!» (متّى).
«52ثُمَّ قَالَ يَسُوعُ لِرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَقُوَّادِ جُنْدِ الْهَيْكَلِ وَالشُّيُوخِ الْمُقْبِلِينَ عَلَيْهِ:»كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ!» (لوقا).
«12ثُمَّ إِنَّ الْجُنْدَ وَالْقَائِدَ وَخُدَّامَ الْيَهُودِ قَبَضُوا عَلَى يَسُوعَ وَأَوْثَقُوهُ» (يوحنا).
(2) «45وَلَمَّا دَخَلَ الْهَيْكَلَ ابْتَدَأَ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِيهِ 46قَائِلاً لَهُمْ:»مَكْتُوبٌ: إِنَّ بَيْتِي بَيْتُ الصَّلاَةِ. وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ!».

ومن الصنائع الأخرى كان العمل في المقالع، قطع الأحجار ونقلها إلى المدن، والموانئ، والمناطق العسكرية.

وكان رعاة الماعز في المرتبة ذاتها التي لرعاة الأغنام. ولم يكن هؤلاء الرعاة أصحاب صنعة بقدر ما هم أفراد معزولون يرعون القطعان التي توفّر للمنطقة الصوف وسواه من المواد. وكانت الجمال والبغال تُستخدم لنقل البضائع في أرجاء المنطقة. وكانت الجِمال مفيدة على نحوٍ خاص بسبب المناخ الصحراوي بالغ القسوة على الجياد والبغال. أمّا في المناطق الساحلية فكانت تُستخدم البغال للنقل. وثمة حاخام في المشناه يقول إنَّ المرء لا ينبغي أن يعلّم والده أن يكون حمّاراً، أو جمّالاً، أو حلاّقاً، أو نوتياً، أو راعياً، أو بائعاً متجولاً، لأنَّ الذين يعملون في هذه المهن أشبه باللصوص. لكن حاخاماً آخر يرى أنّه على الرغم من كون الحمّارين أشراراً، فإنَّ الجمّالين أمناء والنوتيين أتقياء.

وكان ثمّة صنائعية متخصصون لهم المنزلة التي للنجّارين، ومنهم الحدّادون. أما في القمة فيأتي الصاغة. فهذه الصنعة الأخيرة تقتضي الثروة، لتأمين الذهب، والمهارة العظيمة، لمعالجته تلك المعالجة الصعبة. ولم يكن هناك كثير من الصاغة، سواء بسبب غلاء الذهب أم بسبب القلّة القليلة التي تستطيع شراء هذه البضاعة. أمّا الفضّة، الأرخص من الذهب والأَصْلَب، فتأتي بعد الذهب وتفوقه من حيث الشيوع نظراً لقدرة الطبقة الوسطى على شرائها (تذكر أعمال الرسل 19: 23–24 صائغاً صانعَ هياكلِ فضة كانت له منزلته)[1]. وهاتان المهنتان، صياغة الذهب وصياغة الفضة، كانتا مكرّستين للطبقة العليا ومقتصرتين عليها. وكان للنحّاسين أيضاً أهميتهم نظراً لاستخدام النحاس في أدوات الطبخ التي زاد الطلب عليها واتّسع استخدامها لأنَّ معظم أُسَر الطبقة الوسطى كانت قادرة على توفيرها. وكان للحدادة أيضاً طابعها التخصصي نظراً لاستخدام هذا المعدن في المعدّات العسكرية والزراعية.

وكان يلحق بهؤلاء عمّال آخرون مثل الخزّافين، الذين كانوا يتفاوتون في المرتبة والخبرة. ففي الأسفل الخزّافون العاديون الذين يصنعون الأباريق والقدور العادية التي تكاد تُستخدم في كلّ بيت، وتتّسم بأنّها رخيصة مصنوعة من الصلصال المحلي الذي

(1) «23 وَحَدَثَ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ شَغَبٌ لَيْسَ بِقَلِيل بِسَبَبِ هذَا الطَّرِيقِ، 24لأَنَّ إِنْسَانًا اسْمُهُ دِيمِتْرِيُوسُ، صَائِغٌ صَانِعُ هَيَاكِلِ فِضَّةٍ لأَرْطَامِيسَ، كَانَ يُكَسِّبُ الصُّنَّاعَ مَكْسَبًا لَيْسَ بِقَلِيل».

يُشوى في الفرن. وفي المستوى الأعلى الخزّافون الذين ينتجون بضائع للطبقة الوسطى والخانات والنُّزل العامة. وكانت هذه البضائع، من أباريق وقدور وأطباق، أمتن وأرقى في نوعيتها، تحتمل الاستخدام المتكرر. أمّا في القمّة فتأتي أرقى أنواع الأطباق وأشدّها زخرفة وزينة. وقد تخصّص بعض الخزّافين في صناعة الجرار (الأمفورات) بأحجامها وأشكالها المختلفة، وكانت تُنقَل على الجِمال والبغال والسفن إلى مسافات بعيدة مملوءةً بالخمر والزيت والحبوب وسواها من المواد. وغالباً ما كانت تُملأ في الوجهة المقصودة بمواد العودة، وفي بعض الأحيان كانت تُملأ بالرمل لتثقيل السفينة.

وكانت صناعة القلوع واحدة من الصنائع المهمة في فلسطين وفي أرجاء الشرق الأدنى خلال القرن الأول. ولو عدنا إلى أسفار بولس لرأينا مدى الحاجة إلى صانعي القلوع هؤلاء. وقد أبحر بولس إلى إيطاليا على متن سفينة ضخمة وتحطّمت تلك السفينة. وكان للسفن البحرية أهميتها في تجارة المسافات البعيدة، إذ كانت تجعل هذه التجارة أرخص وتتيح نقل كميات كبيرة من منطقة إلى أخرى. ولقد ارتبط مع صُنّاع القلوع صنائعية وعمّال آخرون يقومون على بناء السفن، كالنجّارين، والحَبّالين، والسّفانين الذين لديهم معرفة متخصصة في صناعة السفن.

ومن الذين غالباً ما كان يجري إغفالهم ثمة الطبّاخون. وهنا أيضاً، ثمة مراتب مختلفة، من طبّاخي العائلة إلى طبّاخي القصر. ولطالما كان الطبّاخ الماهر ضرورة أساسية للعائلة الأرستقراطية. وإلى جانب الطبّاخ ثمّة القهرمان القيّم على مؤونة الخمر وعلى البيت عموماً. وكان هؤلاء الخدم، إلى جانب رئيس الخدم، يقومون على سير شؤون البيت سيراً سلساً. أمّا البوّاب، الذي يُذْكَر في العهد الجديد، فلم يكن يعلن عن قدوم الضيوف وحسب بل يقوم على حراسة البيت. وثمة بوابة تُذْكَر في إنجيل لوقا تتفرّس في بطرس وتقول إنّه كان مع يسوع (لوقا 22: 54—56)[1].

وكان هنالك أيضاً حشد من الحانوتية الذين يحتاج إليهم سير الأمور في أيّة مدينة. وعلى سبيل المثال، فقد كان ثمة كثير من دكاكين الطعام، التي توفّر فرص الحصول على الطعام والشراب للسكان المحليين والزوّار على حدٍّ سواء. وكان ذلك مهماً في المدن

(1) «54فَأَخَذُوهُ وَسَاقُوهُ وَأَدْخَلُوهُ إِلَى بَيْتِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ. وَأَمَّا بُطْرُسُ فَتَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ. 55وَلَمَّا أَضْرَمُوا نَارًا فِي وَسْطِ الدَّارِ وَجَلَسُوا مَعًا، جَلَسَ بُطْرُسُ بَيْنَهُمْ. 56فَرَأَتْهُ جَارِيَةٌ جَالِسًا عِنْدَ النَّارِ فَتَفَرَّسَتْ فِيهِ وَقَالَتْ: »وَهذَا كَانَ مَعَهُ!»».

القديمة، لأنَّه لم يكن بمقدور كثيرٍ من البيوت توفير النار للطعام، نظراً لمخاطر النار. ولم يكن أصحاب الخانات والنُّزل يقدّمون الطعام وحده بل الشراب أيضاً، إذ تعدّ هذه الخانات والنُّزل أماكن للترفيه فضلاً عن كونها فنادق للنوم. أما مستوى الراحة والمتعة فيتوقّف على نوع الضيف. فكانت تُتاح للضيوف تشكيلة من الخيارات. وعلى سبيل المثال، كان بمقدور مولى ثري أن يأخذ عدداً من الغرف أو الشقق، وأن يحظى بوجبات جيدة وحمامات. وبحسب الخان، كان الترفيه: الرقص، الشراب، القمار، والجنس. وكانت هذه الخانات منتشرة في أرجاء جميع المدن وعلى الطرقات. وثمة مكان من هذا النوع في العهد الجديد في مثل السامريّ الصالح، الذي يجد مسافراً مجروحاً في الطريق فيأخذه إلى فندق ويعتني به (لوقا10: 25—37)[1].

ونجد في أعمال الرسل أنَّ بولس قد عمل في صناعة الخيام ولعلّه كان دبّاغاً. ومن الواضح أنّه كان قادراً على ممارسة هذه الصنعة ليس في مدينة أنطاكية موطنه فحسب بل في المدن اليونانية الأخرى أيضاً (أعمال الرسل10: 32)[2]. والفكرة اللافتة هنا هي مقدرة البشر على ممارسة صنائعهم في أرجاء العالم الروماني، لمجرد أن يتاح لهم من هو مستعدّ لقبول عملهم. ولعل الأمر يعود في حالة بولس إلى نصير مسيحي قَبِلَ معونته أو أتاح له فرصة العمل كي يمكّنه من القيام بنشاطه التبشيري.

وفي زمن يسوع كان الحاخامات أنفسهم منكبّين على عدد من الصنائع التي يعتبرونها شريفة. فبعضهم عمل في المصنوعات الخشبية والنجارة والبناء، في حين عمل آخرون خيّاطين أو حدّادين أو حذّائين أو خزّافين. وبعبارة أخرى، اعتبر هؤلاء الحاخامات أنَّ

(1) «25 وَإِذَا نَامُوسِيٌّ قَامَ يُجَرِّبُهُ قَائِلاً: »يَا مُعَلِّمُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟» 26فَقَالَ لَهُ: »مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ. كَيْفَ تَقْرَأُ؟» 27فَأَجَابَ وَقَالَ: »تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ». 28فَقَالَ لَهُ: »بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. اِفْعَلْ هذَا فَتَحْيَا». 29وَأَمَّا هُوَ فَإِذْ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّرَ نَفْسَهُ، قَالَ لِيَسُوعَ: «وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟» 30فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: «إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا، فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ. 31فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِنًا نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. 32وَكَذلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضًا، إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. 33وَلكِنَّ سَامِرِيًّا مُسَافِرًا جَاءَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ، 34فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا وَخَمْرًا، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُق وَاعْتَنَى بِهِ. 35وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ، وَقَالَ لَهُ: اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ. 36فَأَيَّ هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيبًا لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللُّصُوصِ؟» 37فَقَالَ: «الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ أَنْتَ أَيْضًا وَاصْنَعْ هكَذَا».

(2) «إِنَّهُ نَازِلٌ فِي بَيْتِ سِمْعَانَ رَجُل دَبَّاغٍ عِنْدَ الْبَحْرِ».

العمل اليدوي شريف ولا حياء فيه، وثمّنوا العمل انطلاقاً من أنّ على البشر أن يعيلوا عوائلهم.

وتشير المصادر اليهودية إلى أنّ بعض الحرف كانت تُعَدّ خطيرة إذا ما كانت تنطوي على كثير من الاحتكاك بين الجنسين. ومن بين هذه الحرف صناعة الجواهر والعطور والملابس. وبالطبع، الغاية هنا هي الحفاظ على كرامة المرأة وسمعتها والحيلولة دون تهديد موقع الرجل.

وكان يُنْظَر إلى أولئك المستخدمين في الهيكل على أنّهم أهمّ العمال، بسبب ضرورتهم في أشغال الهيكل وأضحياته. وحين أقيم الهيكل اقتصرت العمالة فيه على الكهنة الذين تلقوا تدريباً خاصاً، إذ نجد في المشناه أنّه لم تُستخدم أيّة أدوات حديدية في قطع حجارة المذبح من مقالعها وأنَّ ما من حديد استخدم في الهيكل ذاته. وأولئك الذين شادوا هذا البناء العظيم فعلوا ذلك تبعاً لأوامر عقيدتهم وعلى النحو الذي يضمن إنفاذ الناموس ذلك الإنفاذ الواجب.

العبودية

كان العبيد جزءاً حيوياً من الاقتصاد مع أنَّ العبودية لم تكن صنعة أو مهنة. وكان يمكن للعبيد أن يعملوا في المنزل أو في الحقل، فلا يقتصر عبيد المنزل على خدمة المنزل. بل يمكن لعبد المنزل أن يعمل في حانوت أو مرفق إنتاجي صغير. وقد يوجد لدى الحائكين عبيد يعملون جنباً إلى جنب مع المتدرّبين. ومثل هؤلاء العبيد كانوا متعلمين في العادة أو يبدون ميلاً ورغبة في العمل في هذه الحرف. وقد يعمل عبد المنزل بوّاباً أو طبّاخاً أو خادم مائدة أو مربّياً أو سائق عربة أو معلماً (مرقس 14: 47)[1]. أما عبد الحقل، من جهة أخرى، فلم يكن يقوم بالأعمال العسيرة وحسب، بل يمكن أيضاً أن يؤخذ كعبد للتجديف في السفن. ولم تكن لدى عبد الحقل فرصة البقاء ونيل الحرية أو الإعتاق التي تتوافر لدى عبد المنزل.

(1) «47فَاسْتَلَّ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ السَّيْفَ، وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ».

الجنود

لم يُكثِر العهد الجديد من ذِكْرِ الجنديّة. ومن المعروف أنَّ الجيش الروماني المنتشر في أرجاء الإمبراطورية كان يضمّ وحدات مؤلَّفة من جنود يهود. وما نخمّنه في تفسير هذا الأمر هو أنَّ الرومان في المراحل الأولى من إمبراطوريتهم احتاجوا إلى مزيد من الوحدات على جبهات القتال، وكانت الوحدات المحلية تدعم الفرق الرومانية وتعمل كوحدات مساعدة ونصرة. فالفلاح اليهودي، ابن الملاّك الصغير، الذي لم يكن بمقدوره أن يرث مزرعة أبيه لأنّه أصغر أخوته الأربعة، كان يتطلّع إلى إمكانيات الترقّي. وبتحوله إلى متطوع محلي في السادسة عشرة من عمره ونيله علاوات على تجنيده شباباً آخرين كان يفتح أمامه مستقبلاً ممكناً في الجيش الروماني. وإحدى الفرص التي كانت تُقدَّم للمتطوع هي إمكانية السفر في أرجاء الإمبراطورية ورؤية العالم. وعادةً ما كان هذا الأمر مصدر رغبة هؤلاء الشبّان في الجندية.

ومما كان يثير رغبة المتطوع أيضاً ذلك الدّخل الأكيد الذي سيناله. فالمتطوع الذي يكسب ما يزيد على دخله في الوطن، وتتوفّر له الضروريات، كان يعيش حياةً أَيْسَر من حياة أسرته، خاصةً في أيام المجاعات. بل إنَّه يحظى بفرصٍ أخرى، إذ كثيراً ما كان عمد الجنود إلى ابتزاز السكان المحليين. ولقد قال يوحنا المعمدان للجنود الذين سألوه ماذا نفعل ألا يظلموا أحداً ولا يشوا بأحد، وأن يكتفوا بعلائفهم (لوقا 3: 10–14)[1]. والفحوى هنا هي أنَّ الجنود في العادة يبتزّون الآخرين كي يزيدوا دخلهم. ولدى دخول الجيش، كان الجندي الجديد يحظى بفرصة الترقّي في المراتب. وبعد 25 سنة يصبح بمقدور النصير أن يتقاعد. وإحدى منافع ذلك الحصول على المواطنة الرومانية، ليس له وحده، بل لأطفاله أيضاً. ومن المفترض ببولس أن يكون مثالاً على ذلك، حيث حظي بالمواطنة الرومانية، من خلال والده على الأرجح. وكان بمقدور المتقاعد عندئذٍ أن يعود إلى البيت إذا ما رغب ومعه منحة تقاعده ومنزلته الجديدة. ومع هذه المكافآت كان بمقدوره في الحقيقة أن يرفع مرتبته الاجتماعية ويوفّر لأسرته حياةً أفضل مما لو بقي في الوطن.

وفي زمن العهد الجديد كان البشر منكبّين على أعمالهم كعهدهم منذ مئات السنين.

(1) «14 وَسَأَلَهُ جُنْدِيُّونَ أَيْضًا قَائِلِينَ: «وَمَاذَا نَفْعَلُ نَحْنُ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «لاَ تَظْلِمُوا أَحَدًا، وَلاَ تَشُوا بِأَحَدٍ، وَاكْتَفُوا بِعَلاَئِفِكُمْ».

وقد وفّر الرومان للمنطقة الأمن السياسي والعسكري وبذلك الاستقرار الاقتصادي. وهذا الاستقرار الأخير أتاح للبشر العاديين أن يعنوا مزيداً من العناية بمعيشتهم الاقتصادية وحَدَّ من قلقهم حيال أمنهم الشخصي، ووفّر لهم ولأبنائهم فرص الازدهار والارتقاء في المجتمع.

الفصل السابع

حياة الريف وحياة المدينة

«خَرَجَ الزَّارِعُ لِيَزْرَعَ زَرْعَهُ. وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ، فَانْدَاسَ وَأَكَلَتْهُ طُيورُ السَّمَاءِ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الصَّخْرِ، فَلَمَّا نَبَتَ جَفَّ لأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ رُطُوبَةٌ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي وَسْطِ الشَّوْكِ، فَنَبَتَ مَعَهُ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي الأَرْضِ الصَّالِحَةِ، فَلَمَّا نَبَتَ صَنَعَ ثَمَرًا مِئَةَ ضِعْفٍ».

(لوقا 8: 5-8)

حياة الريف والزراعة

لم يأتِ القرن الأول إلا وكانت معظم الأراضي الصالحة للفلاحة في فلسطين قد استُصلِحَت. ولعلَّ جميع الأراضي التي استُصْلِحَت بعد ذلك هي من مناطق القَفْر أو البريّة. ومع حلول السلام بعد انتصار أوكتافيان (أغسطس) على أنطوني وكليوباترا دفع ازديادُ السكّان العالمَ القديم إلى زراعة المزيد من الأراضي. وكان المصدر الأساسي لهذه الأراضي الجديدة إمّا القفار، خاصةً في مناطق لها تاريخها في الزراعة الكثيفة، مثل فلسطين، أو بقاع جديدة (كانت غابات أو أجمات) مثل بريطانيا أو الغال (فرنسا). وكان لابدَّ من أن تُزال الأشجار، والقِرامي، والصخور من كلِّ أرضٍ جديدة في فلسطين كي تغدو صالحةً للحَرْث.

المواسم

كانت الفصول تملي على الزّارعين حياتهم اليومية. وفي منطقة تتميّز بأصيافها الجافة وشتاءاتها الرطبة يملي هذا المناخ الدورة الزراعية. فتحرث الأرض في آخر الخريف قبل موسم الأمطار، حيث تُقْلَب التربة وتُجَهَّز للزرع باستخدام محراث خشبي ذي سكّةٍ معدنية، تجرّه الثيران، أو الحمير، أو البشر عند الضرورة. ولم تكن التربة هنا ثقيلة كما في أوروبا الشمالية، بل يمكن حرثها بالمعزقة. وكان الزّارع يشقّ الأرض بالمعزقة أو الفأس ويزيل منها الشجر الملتفّ قبل أن يفلحها بالمحراث، أو يكتفي بـ «فلاحتها» بالمعزقة

والفأس إذا ما كانت ضيقة أو شديدة الانحدار.

وبين نوفمبر ويناير تنتثر البذور ثمَّ تُغطّى بالتربة بالمعزقة أو المحراث. ولأنَّ الطيور تأكل البذور، كما روى يسوع في المثل أعلاه، فإنَّ الأرض تُحْرَس وتُوضع فيها خيالات المآتة. أما التربة فتُرَشُّ بسمادٍ مُسْتَمَدٍّ من رماد الحطب أو الزُبالة، أو فضلات البهائم لزيادة المحصول. ويضاف هذا السماد قبل الحراثة أو بعدها، ويُطَبَّق على الأشجار والحقول. ولعلَّ الرماد المُستَخْدَم كان يأتي من حَرْقِ باقي الحصاد في الحقل وليس من حرق النباتات في مكان آخر ثم جَلْب الرماد ورشّه. ومثل هذه الممارسة لا تزال تستخدم في أحيان كثيرة. أمّا تبوير الأرض في السنة السبت أو في السنة السابعة فكان يُبقي على خصوبة التربة. وكان تناوب المحاصيل مُستخدَماً أيضاً، عبر نظام الحقلين، حيث يُزرَع حقلٌ في الخريف بينما يُبَوَّر الآخر. لكنَّ هذا النظام لم يكن قائماً في فلسطين، التي لم يكن فيها سوى موسم نمو واحد للحبوب، بخلاف ما كانت عليه الحال في أوروبا الشمالية حيث أتاحت المحاصيل الشتوية وجود حقل ثالث. وباستخدام تناوب الحقول، لم يكن يُستخْدَم في كلّ عام سوى 50٪ من الأرض.

وفي تلك الفترة كانت أمطار الشتاء هي التي توفّر المياه. وكان الشعير والقمح المحصولين الأساسيين اللذين يزرعان. والشعير ينضج قبل القمح ويُحْصَد في أبريل، في حين يُحصَد القمح في مايو، مع الشوفان. ولأنَّ هذا الأخير يتطلّب مزيداً من الماء، فغالباً ما كان يُزرَع في الأراضي المنخفضة حيث تتراكم المياه. ولم يكن الشوفان من محاصيل الحبوب الأساسية. ونظراً لكثرة الجداول والسواقي في فلسطين، فإنَّ الريّ الواسع الضخم، كالذي كانت تحتاجه مصر، كان في حدّه الأدنى. وكان الماء يُرْفَع من الينابيع ويمكن توجيهه إلى الحقول حسب الحاجة.

المحاصيل والطبخ وقواعد الطعام

غالباً ما كانت المحاصيل تُحْصَد باقتلاع النبات بالمعزقة، الأمر الذي من شأنه تهيئة الحقلَ للزرع التالي. أمّا في الحقول الواسعة فكانت الحبوب تُحْصَد بالمناجل. وكان الحصاد يبدأ عند الفصح وينتهي عند عيد الحصاد. إذ يتزامن حصاد الشعير مع عيد الفطير

أو الفصح (لاويين 23: 9–14)[1]، في حين كان حصاد القمح يجري بعد ما يقارب الشهر ونصف الشهر من عيد الحصاد (خروج 23: 16)[2]. ومن المحتمل أن يكون هذان العيدان، مع أنهما دينيان في الجوهر، قد بدأا كعيدين ريفيين يحتفلان بحصاد هذين المحصولين اللذين لا يفوقهما أيّ محصول آخر في أهميتهما الغذائية. وكان حصاد الحبوب والشعير والقمح يستغرق ما يقارب الشهرين، وتجمع سنابل الحنطة في أغمار ثم تُنقَل إلى المتابن أو النوارج في سلال أو تُربَط في أكوام وتوضَع على الحمير، أو في العربات، إذا كان المرء غنياً.

وكانت الغمار تُنْشَر على أرضٍ صلبة، ثم تطأها حيوانات مشدودة إلى نوارج أو غير مشدودة إليها، مما يفصل الحبَّ عن التبن. بعد ذلك يذرّي الزّارع الحبّ بقذفه في الهواء مما يطرح العُصافة الخفيفة بعيداً، في حين يسقط الحبّ الأثقل إلى الأرض. بعدئذٍ يُجْمَع الحبّ ويُخْزَن. وكان بمقدور الزارعين أن يستخدموا الجرار لخزن الحبَّ في المنازل، فيُحمى بذلك من الماء والهوام، وما شابه. وكان الحبّ يُخزَن أيضاً في صوامع تحت الأرض، أو في المتابن، أو حتى في الكهوف. وكان بمقدور الزّارع أن ينقل الحبّ في أكياس أو جرار تُحمَل على الحمير. واعتاد الناس على استعمال الأكياس والجرار لشحن الحبّ في السفن، لكن الجرار كانت مُفضّلة على الأكياس لتوفيرها الأمن والحماية من العناصر والهوام. وكانت هذه الجرار تُخْتَم بسدادة من الصلصال القاسي، مما يضمن عدم التلاعب بالحبّ. أمّا الأكياس فغالباً ما تُستخدم عند خَزْن الحب في الصوامع أو المتابن، لأنَّ حملها أسهل من حمل الجرار. ومشكلة الأكياس هي، بالطبع، أنها يمكن أن تتمزّق أو تُفتح بسهولة. وكان الكيس العادي يزن حوالي 150 باونداً، فيمكن لحمار واحد أن يحمل ثلاثة منها.

وحين يشحن الحبّ بالسفن، يقوم المراقب الإمبراطوري أو التجاري، بأخذ عيّنة،

(1) «9وكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: 10 «كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: مَتَى جِئْتُمْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنَا أُعْطِيكُمْ وَحَصَدْتُمْ حَصِيدَهَا، تَأْتُونَ بِحُزْمَةِ أَوَّلِ حَصِيدِكُمْ إِلَى الْكَاهِنِ. 11فَيُرَدِّدُ الْحُزْمَةَ أَمَامَ الرَّبِّ لِلرِّضَا عَنْكُمْ. فِي غَدِ السَّبْتِ يُرَدِّدُهَا الْكَاهِنُ. 12وَتَعْمَلُونَ يَوْمَ تَرْدِيدِكُمُ الْحُزْمَةَ خَرُوفًا صَحِيحًا حَوْلِيًّا مُحْرَقَةً لِلرَّبِّ. 13وَتَقْدِمَتَهُ عُشْرَيْنِ مِنْ دَقِيقٍ مَلْتُوتٍ بِزَيْتٍ، وَقُودًا لِلرَّبِّ رَائِحَةَ سَرُورٍ، وَسَكِيبَهُ رُبْعَ الْهِينِ مِنْ خَمْرٍ. 14وَخُبْزًا وَفَرِيكًا وَسَوِيقًا لاَ تَأْكُلُوا إِلَى هذَا الْيَوْمِ عَيْنِهِ، إِلَى أَنْ تَأْتُوا بِقُرْبَانِ إِلهِكُمْ، فَرِيضَةً دَهْرِيَّةً فِي أَجْيَالِكُمْ فِي جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ».

(2) «16 وَعِيدَ الْحَصَادِ أَبْكَارِ غَلاَّتِكَ الَّتِي تَزْرَعُ فِي الْحَقْلِ. وَعِيدَ الْجَمْعِ فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ عِنْدَمَا تَجْمَعُ غَلاَّتِكَ مِنَ الْحَقْلِ».

يُفتَرَض أن تكون عشوائية، ويفحص فيها نسبة التراب وسواه من الشوائب. فإذا ما كانت هذه النسبة مرتفعة كثيراً، أكثر من 10٪ مثلاً، كان على الزَّارع أن يقدّم مزيداً من الحبّ أو يدفع غرامة. وبعد أن يختبر المشرف هذه النسبة يعطي إيصالاً لكلٍّ من الزَّراع والشَّاحن. وفي مكان وصول الشحنة، تؤخذ عيّنة ثانية وتُقارن بالأصل. فإذا ما اختلفت النسبة كثيراً وقع المراقب في ورطة. وعلى هذا النحو كانت الرقابة تطاول الأطراف جميعها.

وكان الحبّ المادة الزراعية الأساسية، التي تُستَخْدَم في الحياة اليومية. فالخبز كان يؤكل في كلِّ وجبة وربما شكّل ما يزيد على 70٪ من القيمة الحرورية. وكان الدقيق يُصنع بطحن الحنطة أو الشعير بواسطة حجر الرحى، وهو حجر ضخم يوضع على الأرض، ويوضع فوقه حجر أصغر. وهذا الدقيق يُخلَط بالماء فيغدو عجيناً. وبعدها يجعل العجين أقراصاً توضع على جدران التنّور من الداخل. وفي هذا التنّور، الذي يُقام في الفناء ويوقد بالحطب أو فحم الحطب، كان الخبز يُخْبَز. وحين ينفصل عن جدار التنّور ويسقط في الرماد في الأسفل، كان يُخْرج ويُنْفَض ويستخدم في الوجبات. وهكذا كان صنع الخبز نوعاً من العمل المتواصل.

ومع أنَّ البقول نادراً ما تُذكر في الكتاب المقدّس، ويُستَخَفّ بها في سفر الأمثال 15: 17[1] ، فإنها لابدّ من أن تكون قد شكّلت جزءاً من مواد الغذاء اليومية. وكان العدس والبازلاء يُحصدان في أبريل ومايو مثل الحبوب. ولعلّ عدم الاهتمام الذي تبديه المراجع حيالهما يعود إلى حصادهما في الوقت ذاته مع الحبوب، التي شكلت المصدر الأكبر للقوت، وإلى أنَّ معظم هذين النوعين من البقول كان يُزرَع في أحياز صغيرة من الأرض قرب البيت. أمّا الحمّص فكان يُحْصَد في يونيو مع بداية قطاف الكرمة.

وكانت الكرمة أهمّ محصول يُقطَف في الصيف. ولم تكن أهمية الكرمة في الطعام وحسب بل في الخمر أيضاً. وكان عيد الخمر الجديد يقوم بعد 50 يوماً من عيد الحصاد. فتعصر العناقيد في الجَفْنات أو الكروم بدوسها بالأقدام ثم يُخزن العصير في جرار ويُترَك ليختمر. وما إن يختمر حتى يُختَم على الخمرة وتُخزَن. ولم يكن شرب الخمرة مقتصراً على الأعياد وحدها بل كاد يتعدّاها إلى كلِّ وجبة ومناسبة اجتماعية. ونظراً لكثرة المرتفعات في فلسطين، كانت الكرمة تُزرَع على السفوح، مما يتيح للمنطقة أن تنتج فائضاً من هذا

(1) «17 أَكْلَةٌ مِنَ الْبُقُولِ حَيْثُ تَكُونُ الْمَحَبَّةُ، خَيْرٌ مِنْ ثَوْرٍ مَعْلُوفٍ وَمَعَهُ بُغْضَةٌ».



جرّة حجرية قديمة. بموافقة مكتبة الكونغرس

المحصول. وغالباً ما كان هذا الفائض يُشحن بالسفن إلى أنحاء الشرق الأخرى، خاصة مصر.

أمّا الكتّان والسمسم والذرة فكانت تُزرَع في الصيف أيضاً. وكان التين والرمّان من المحاصيل الأساسية التي تُقطَف في أغسطس وسبتمبر. ومع عيد المظال كان ينبغي لقطف الكرمة أن يكون قد اكتمل.

أمّا آخر محصول أساسي كان يُقطَف فهو الزيتون، الذي يبدأ قطافه في سبتمبر ويدوم حتى نوفمبر. ومثل أشجار الكرمة، انتشرت أشجار الزيتون في مرتفعات الريف وشكّلت تكملةً للحبوب، التي كانت تنمو في السهول. وكان الزيتون يُقْطَف ويُنقَل إلى المعاصر حيث يوضع على مصطبة ويُسْحَق بأسطوانة ثقيلة، فيجري الزيت في أقنية إلى حوض. وهذه العَصْرَة الأولى، رفيعة النوعية، تُدْعى الزيت البِكْر، الذي يُستخدَم في الغَمْس والطبخ. ثم توضع العجينة بعد ذلك في سلالٍ وتُعْصَر ثانيةً. وهذه المرّة كان الزيت من

نوعية أدنى ويُستَخْدَم وقوداً للأسرجة وفي صناعة الصابون والمراهم. ومع نهاية موسم الزيتون يكون موعد زراعة الحبوب قد حلَّ من جديد.

كان موسم الحصاد يدوم إذاً من أبريل إلى نوفمبر. وكان الربيع موسم الحبوب، والصيف موسم الكرمة، والخريف موسم الزيتون. أمّا الشتاء، فصل الأمطار، فهو وقت الزَّرْع والنماء. وكانت مياه الأمطار تُجْمَع وتُخْزَن في أحواض أو صهاريج وتُستَخْدَم في الصيف الحار. وكان حصاد الخريف هو الأهمّ لأنّه يشير عموماً إلى اكتمال حصاد السنة. وما يلي ذلك هو أوقات احتفالات الحصاد التي تصل بالأنشطة الزراعية إلى نهايتها. وكانت هذه الاحتفالات، شأنها شأن عيد أكتوبر الأوروبي وعيد الميلاد المسيحي، أوقاتاً يبلغ فيها تقديم الطعام أقصاه. وهذه الاحتفالات، التي تبدأ مع عيد الحصاد وتتواصل حتى نوفمبر مع حصاد المحاصيل المختلفة، توفّر للفلاح الفرصة لتحسين زاده من الطعام ووارده الحروري، كما كانت وقتاً سعيداً لعموم البشر. فهي فترة استمتاع المجتمع بوفرة المواد قبل أشهر الشتاء، حيث ينبغي استهلاك الطعام المخزون. وهذه الأعياد أو الاحتفالات، مع أنها دينية، بدأت في الأصل كأعياد زراعية تتوافق مع هذه الوفرة.

كان الزَّارع الفقير يعيش على الخبز بصورة أساسية، أمّا أولئك الذين يسعهم توفير الثمار، خاصة التين والخضار، فيضيفون هذه المواد إلى طعامهم. وكانت هذه الإضافات المغذّية والمثقلة بالحريرات، من التين والتمور واللوز والبصل والبازلاء والرمّان، تحسّن الصحّة العامة لأفراد الأسرة. ومن الجدير بالذّكر أنَّ منطقة الجليل كانت أكثر خصوبة وكان الحصاد يتأخّر فيها.

لم تكن الكرمة تُزرَع في أفنية البيوت وحدها، بل أيضاً على هيئة مشاريع تجارية كبيرة. ولأنّها كانت تُزْرَع على التلال، فإنَّه كان ينبغي تهيئة الأرض أولاً على شكل مصاطب. وإذا ما تطلبت مثل هذه المشاريع مقادير كبيرة من العمل والمال، فإنَّ عائداتها كانت ضخمة أيضاً، حيث تفوق أرباحها بـ 15 مرّة أرباح المساحة ذاتها حين تُزرَع بالحبوب. إذن، كان التلّ يُجْعَل مصاطب أولاً، بإزالة الحجارة واستخدامها كجدران للحماية والحدّ من انجراف التربة. وبعد تهيئة التلّ، تغرس الكرمة ثم تُزَوَّد بما تحتاج إليه من عناية كثيفة، كالسَّقي والتَّقليم والعَزْق والتعشيب وربط الفروع. ولكي لا تخرّب الحيوانات أو اللصوص المشروع أو تضرّ به، غالباً ما يعمد المالك إلى وضع حرّاس يطلب منهم الحرص

واليقظة.

وكانت العناقيد توضع في حوض مرتفع حيث تُعْصَر، فيجري العصير إلى صهريج أدنى حيث يرقد طيلة الليل فيهبط الثُّفل ويستقرّ. وبعدئذٍ يوضع في جرّة ويترك ليتخمّر. وكان يُخْزَن في كهوف أو تحت الأرض، حيث يتواصل التخمّر، في درجة حرارةٍ ثابتة. وبعد بضعة أشهر تختم فوهة الجرّة وتُعلَّم، بما يشير إلى المالك أو الصنف أو كليهما. أما البقايا المهروسة فتُعْصَر عصرةً ثانية بغية الحصول على خمر من نوعية أدنى.

القطعان

غالباً ما كان الزَّارع يربّي الأغنام والماعز من أجل الحليب أو اللحم أو الصوف أو الشعر. وبخلاف بقية الماشية التي تحتاج مراعي واسعة، فإنَّ الأغنام والماعز يمكن أن تحصل على الطعام في ظروف الكفاف وأن تُربّى من دون حظائر. ولعلَّ معظم الأُسَر كانت تملك بضع أغنام وماعز. ولعلّ الرعاة كفّوا خلال القرن الأول عن العيش متنقلين حيث المراعي وباتوا أشدّ استقراراً، في قراهم أو بقربها، فتطور لديهم حسّ الثبات، وصار بمقدورهم أن يزربوا أغنامهم وماعزهم في المراعي القريبة، وأن يعملوا عند الحاجة لدى الملاّك الأغنياء كعمال مياومين، خاصةً في مواسم الحصاد. وبعد الحصاد يسوق الرعاة قطعانهم إلى الجبال في الصيف الحار. ولم تكن حياتهم تلك الحياة السهلة، حتى حين قلّت بداوتهم. فكان عليهم ألا يكفّوا عن حراسة قطعانهم من هجمات اللصوص وحيوانات البريّة، مستخدمين لحمايتها العصا والمقلاع. وفي الليل يجمعون الماشية في زريبة محاطة بسور حجري أو في كهف، أو حتى في وادٍ. وربما يكون لديهم كلب يساعدهم. أمّا النوم مع قطعانهم في الظروف الجويّة المختلفة فيزيد حياتهم صعوبة وخشونة. وكانت النظرة السائدة إلى الراعي تراه وضيعاً، جلفاً، لا يتميّز عن اللصوص في شيء.

وغالباً ما كان لدى العائلة، خاصةً البدوية، قطيع مختلط من الأغنام والماعز. وكانت معيشة هؤلاء البدو مقيّدة إلى قطعانهم، تجرّهم من مورد ماء إلى آخر، بحسب الهَطْل المطري السنوي ودرجة الحرارة، فينزلون من المرتفعات إلى الصحراء بعد هطول المطر على هذه الأخيرة.

وعلى الرغم من حاجة الماشية والثيران إلى مزيد من الأرض والماء، يبدو أنَّ أعدادها

كانت أكبر مما هي اليوم، إذا ما حكمنا من خلال الإشارات في الكتاب المقدّس وفي غير مكان. فالتغيرات في النظام البيئي جعلته أقلّ قدرة على إعالة الماشية مما كان عليه الحال في العصور القديمة. غير أنَّ معظم القرى لم تكن قادرة على إعالة القطعان عبر الأردن والجليل، حيث كانت الأرض ممرعة وخضراء. ولعلَّ أهمية الأضاحي أن تكون قد دفعت بعض الأثرياء إلى امتلاك بعض الماشية وإتاحتها أمام القرية. لكن مثل هذه الماشية كانت من الأمور الكمالية التي لا تُتاح إلا في المناسبات.

وفي المناطق والجماعات غير اليهودية كان يُحتَفَظ بالخنازير أيضاً. ومثل الأغنام والماعز، كانت قطعان الخنازير معروفة في أرجاء العالم القديم. وفي حين كان اليهود يعتبرون لحم الخنزير نجساً، اعتاد غير اليهود أكل هذا اللحم الذي يسهل شراؤه وحفظه. وبخلاف الماشية، التي تُسْفِرُ حين تُذْبَح عن كمية كبيرة من اللحم تحتاج عدداً كبيراً من المستهلكين، كانت الخنازير التي تُذبَح توفّر كمية من اللحم أصغر، يسهل تدبّرها. ولذلك كان بمقدور الزَّارع أن يحصل على بعض اللحم من دون أن يبقى لديه ذلك الفائض الذي يُتْرَك ليفسد.

المنتجات الحيوانية

لا شكَّ أنَّ الصوف كان أكبر المنافع التي تقدّمها الأغنام. وكان جَزُّ الأغنام يتيح لهذه السلعة أن تكون مورداً متجدداً على الدوام. وكانت الحياكة تجري في البيوت بأيدي النساء في العادة، على الرغم مما توضحه أوراق بردى مصرية من حضور الحياكة كعمل تجاري. وكان الصوف الخام يُحَوَّل إلى غَزْلٍ أولاً باستخدام المغزل اليدوي. وهذا الغَزْل الذي لا يتطلّب أيّة آلة معقدة أو فضاء واسع، كان يمكن أن يجري في أيّ وقت؛ وفي أيّ مكان، ويقوم به أيٌّ كان.

بعد ذلك، غالباً ما يفتل الغزل أو يُلَفّ معاً، مما يزيده قوة، باستخدام مغزل أيضاً، له ثقل يُدْعَى فَلْكة المَغْزِل. وبغية ألا تتشابك الخيوط، تُدْخَل في عرى موجودة في كرة الغَزْل. وعند هذا الحدّ يمكن للغَزْل أن يُصْبَغَ بشتّى الألوان.

وما إنْ يُصْبَغ الغَزْل حتى يغدو جاهزاً للحياكة. وفي النَّوْل صفوف عمودية من الغَزْل تُدْعى السداة تَشدّها أثقال في الأسفل، حيث يشدُّ كلُّ ثقل 10 خيوط في العادة. وعندئذ

يُدْخِل الحائك اللحمة، أو الصفوف الأفقية، في أعلى غَزْل السداة وأسفله، مما يشكّل النسيج. وما إن تُصنَع قطعة الثوب حتى يمكن أن تُقَصّ وتُخاط مع غيرها من القطع من شتى الألوان والأشكال.

ومن الأقمشة الأخرى كان الكتّان، المصنوع من نبات الكتّان وليس من شعر الحيوانات. وهذا النبات، الذي يُزْرَع في المناطق الرطبة مثل المستنقعات والأراضي الواطئة المرويّة، كان مُكْلِفاً. ونظراً لصعوبة الحصول على الكتّان، لم يكن الفلاحون يرتدونه بل الأغنياء والكهنة. وكانت ألياف الكتّان أيضاً تُصْبَغ بشتى الألوان.

وكانت الأصبغة تأتي من مصادر شتى. فالأحمر يُسْتَخْرَج من قشر الرمان، والأصفر من الزعفران والعُصْفُر. كما استخدم فلز النحاس على نطاق واسع، بسبب خضرته المميّزة. أمّا الأسود فكان يأتي من حجر الدَّم، فلزّ الحديد الأساسي. وكانت رخويات الأرجوان، على طول الساحل الفينيقي، تُنْتِجُ أصبغةً مكلفة تتراوح من الأرجوان الأحمر إلى الأرجوان الأزرق. ولم تكن الملابس المصبوغة بهذه الأصبغة تُستَخْدَم سوى في الهيكل ولدى صفوة الصفوة، فثمة حاجة إلى حوالي 10000 من رخويات الأرجوان لصباغة عباءة واحدة، ومن هنا تلك التكلفة الباهظة. وكان الفينيقيون، في مدينة صور خاصة، يحتكرون إنتاج هذا الصباغ.

ومن الطبيعي أنَّ العائلة العادية لم تكن تنتج ملابس الكتّان أو الملابس الغنية بألوانها، بل تحوك عباءات عملية يُنْتَفَع بها. ومن المُفتَرَض أنَّ رداء يسوع كان غالياً لأنّه تكوّن من قطعة واحدة، كما تروي القصص، الأمر الذي يشير إلى أنّه كان يفوق في دقّة صنعه وجودته الأردية العادية التي يرتديها معظم الناس. وكان شعر الماعز يُقوَّم عالياً بسبب متانته ويُستَخْدَم في صناعة الخيام والأكياس والحبال؛ ولم تكن العادة أن يُسْتَخْدَمَ في الملابس.

ومن المنتجات الأخرى الناجمة عن تربية المواشي، كان الجلد. وكان يستخدم في صناعة الخيام والأكياس. وكانت الجلود تُرْسَل إلى مدبغة حيث تُنَظَّف بالماء أولاً ثمَّ يُزال منها الشعر، بمواد كيماوية قوية أو بحفّ الجلد بالسكين. وبعد ذلك تُعالج بالدِّهْن الحيواني، أو بصفار البيض أو بزيوت أخرى، أو حتى بالبول. فهذه المواد تبقي الجلد طريّاً وتحول دون تفسّخه. وبعد هذه العملية تغدو الجلود جاهزة للدباغة. فيفرك الجلد أولاً بالرَّوث بغية

السماح بتغلغل حمض العَفْص: كان استخدام روث الكلاب يسمح للأنزيمات الطبيعية الموجودة فيه بحلّ الكولاجين، الأمر الذي يجعل الجلد يتمدّد ويرتخي. بعد ذلك يغسل الجلد لإزالة الرّوث ورائحته الكريهة، ثمّ يُنْقَع لفترةٍ في الماء وحمض العفص المستخرج من لحاء النخيل قبل أن يُتْرَك ليجفَّ ويغدو ذلك الجلد الذي يمكن قصّه بالحجم المطلوب. وكانت أدمغة الحيوانات تُستخدم أيضاً في دباغة الجلود، مع أن ذلك كان يقتضي مزيداً من الجهد والوقت. وبعد صناعة الجلود، كان من الممكن استخدامها في أمور شتّى. ويشير العهد الجديد إلى أنَّ بولس كان صانع خيام، حيث كانت الخيام تُصْنَع من الناتج النهائي في عملية صناعة الجلود.

الفَعَلَة (العمال المياومون)

كان الفلاحون المحليون يردفون عملهم بعملٍ خارج مزارعهم. وثمّة أمثلة في العهد الجديد لفَعَلةٍ، لعلّهم كانوا خليطاً من عمّالٍ لا يملكون أرضاً، موسميين في الغالب، وأصحاب أراضٍ يعملون بالأجرة لدى الملاّك المحليين (متّى 20: 1–16)[1]. فالضِّيَع الكبيرة كانت تستخدم، علاوةً على عبيدها ومُستَأجريها، عمالاً موسميين لأنَّ ذلك كان أَوْفَر (متّى 21: 33–41)[2]. ولم يكن مالك الضيعة يحتاج في أشهر الراحة عدداً كبيراً

(1) « 1 فَإِنَّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلاً رَبَّ بَيْتٍ خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأْجِرَ فَعَلَةً لِكَرْمِهِ، 2فَاتَّفَقَ مَعَ الْفَعَلَةِ عَلَى
دِينَارٍ فِي الْيَوْمِ، وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى كَرْمِهِ. 3ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ وَرَأَى آخَرِينَ قِيَامًا فِي السُّوقِ بَطَّالِينَ، 4فَقَالَ
لَهُمُ: اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَأُعْطِيَكُمْ مَا يَحِقُّ لَكُمْ. فَمَضَوْا. 5وَخَرَجَ أَيْضًا نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ وَالتَّاسِعَةِ
وَفَعَلَ كَذلِكَ. 6ثُمَّ نَحْوَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ خَرَجَ وَوَجَدَ آخَرِينَ قِيَامًا بَطَّالِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا وَقَفْتُمْ ههُنَا كُلَّ
النَّهَارِ بَطَّالِينَ؟ 7قَالُوا لَهُ: لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْجِرْنَا أَحَدٌ. قَالَ لَهُمُ:اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضًا إِلَى الْكَرْمِ فَتَأْخُذُوا مَا يَحِقُّ لَكُمْ.
8فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ قَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ لِوَكِيلِهِ: ادْعُ الْفَعَلَةَ وَأَعْطِهِمُ الأُجْرَةَ مُبْتَدِئًا مِنَ الآخِرِينَ إِلَى الأَوَّلِينَ. 9فَجَاءَ
أَصْحَابُ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِينَارًا دِينَارًا. 10فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ
أَيْضًا دِينَارًا دِينَارًا. 11وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ 12قَائِلِينَ: هؤُلاَءِ الآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً،
وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ النَّهَارِ وَالْحَرَّ! 13فَأَجَابَ وَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: يَا صَاحِبُ، مَا ظَلَمْتُكَ!
أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟ 14فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ. 15أَوَ مَا يَحِلُّ لِي أَنْ
أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَا لِي؟ أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟ 16هكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ، لأَنَّ كَثِيرِينَ
يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ».

(2) –«(33)»اسْمَعُوا مَثَلاً آخَرَ: كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْمًا، وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً، وَبَنَى بُرْجًا،
وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. 34وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الأَثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ. 35فَأَخَذَ الْكَرَّامُونَ
عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا وَرَجَمُوا بَعْضًا. 36ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِينَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ
كَذلِكَ. 37فَأَخِيرًا أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَهُ قَائِلاً: يَهَابُونَ ابْنِي! 38وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوْا الابْنَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هذَا هُوَ

من العمال المستخدمين أو المُطْعَمين؛ وكان أَرْخَص له أن يستأجر العمال ويدفع لهم لقاء فترة عمل قصيرة. ولعلّ الفلاح المحلي وجد في هذا النمط من العمل مكوّناً مهماً من مكوّنات معيشته. ومن الأمثلة على الضِّيع الكبيرة ما تذكره الأناجيل في المثل الذي يقصّ حكاية الفعلة الذين يُستأجرون للعمل في الكروم (متّى 20: 1—16)، والذي يبيّن أنَّ الفَعَلة المياومين كانوا متوفّرين بكثرة وأنَّ المالك كان يستأجر عمالاً موسميين.

السبت

كان أول الحصيد، الذي يُقَدّم للرب، واحداً من المقوّمات المهمة في المجتمع اليهودي القديم. وكان هذا الحصيد عُشْرَاً، أي عشر المحصول، ويقتصر على الحنطة والشعير والعنب (الخمر) والتين والرمان والزيتون (زيت الزيتون) والتمور. أمّا الثمار الأخرى فقد أُدْخِلَت في العُشر لاحقاً. والأدب الحاخامي اللاحق يستثني من العشر المحصول الذي يُجمَع من زوايا الحقول، ومن البريّة، والمحاصيل التي ليست ملكاً، ويأمر بدلاً من ذلك بأن تعطى للفقراء. وبالطبع كان أيّ محصول من شخص غير يهودي مستثنىً أيضاً. وكان من الواجب تعشير كلّ محصول بمفرده بمعزل عن المحاصيل الأخرى. وعملية استخراج العشر كانت تتطلب شخصاً متطهراً بحسب طقوس معينة لأنَّ العملية برمّتها كانت تجري وفقاً للناموس.

ومع أنَّ سَنَةَ السبت لم تكن مرتبطةً بأول الحصيد ذلك الارتباط المباشر، إلا أنّها كانت مرتبطة بالزراعة ذلك الارتباط الواضح. وبحسب هذا الناموس، يجدر بالزّارع أن يزرع أرضه ستّ سنين وأمّا السنة السابعة فيكون فيها سَبْتُ عطلةٍ للأرض. ويتبع هذا الأمر مفهوم السبت الأسبوعيّ. وكانت الحقول تفيد من هذه الراحة حيث لم تكن تُستَغلّ موادها المغذية أو تُستَهْلَك. غير أنَّ هذه الممارسة كانت تتطلب أن يكون لدى الزّارع ما يكفي من المؤونة المدّخرة لسنة السبت. وهذا ما كان يقتضي عناءً ومشقّة، لأنَّ الحصاد القليل غالباً ما كان يلحق الضرر بالزّارع مرتين، مرّة لدى الحصاد البائس والأخرى في سنة السبت حين تقلّ الغلّة.

الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيرَاثَهُ! 39فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ. 40فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟» 41قَالُوا لَهُ: «أُولَئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاَكًا رَدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا».

وفي المناطق اليونانية من فلسطين وسوريا، تشابهت الأنشطة اليومية مع أنشطة السّكان اليهود، باستثناء ما تعلّق منها بالعقائد. وبانتقال أتباع المسيحية الأوائل إلى آسيا الصغرى واليونان وهدايتهم السّكان هناك، حصلت بعض التغيّرات. ففي هذه المناطق كان مستوى الأتباع اليهود أدنى بصورة ملحوظة، ولذلك قلّ عدد المحظورات الدينية. وعلى سبيل المثال، فإنَّ الخنازير لم تكن محرّمة نظراً لغياب قوة القَسْر التي للشرائع اليهودية المتعلقة بالطعام. أمّا الفلاحون المحليون في هذه المناطق فواصلوا العمل في أراضيهم على نحوٍ ما كانوا يعملون في الألفية الماضية.

قِصّةُ امرأة

خلال حرب بار كوخبا 132–135م، وفي عين جِدي، تلك المنطقة الواقعة على الساحل الغربي للبحر الميت، فرّت امرأة يهودية، تُدعى بابتا، ابنة سمعان، والزوجة الثانية ليهوذا، ابن لعازر خزْثُوزيون، وهي عائلة بارزة، إلى الكهوف الواقعة على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب (للتوسّع، انظر «قصة بابتا» لأنطوني. إ. سالداريني، في Biblical Archaelogy Review، العدد 24 (1998): 28–39). وكان ثمة مجموعتان التمستا ملجأً في كهفين هرباً من الرومان وراحتا تتضوران جوعاً هناك. وكانت بابتا قد حملت إلى الكهف ممتلكاتها، بما في ذلك أوراق العائلة. ولمّا كانت تدرك أنّها قد لا تنجو، بمتاعها هذا على الأقل، فقد خبّأته في الكهف، ربما على أمل العودة إليه بعد النجاة. وهذا الكنز يلقي الضوء على حياتها وحياة عائلتها.

تبيّن وثائق بابتا أنّها ابنة سمعان من ماعوز وأنّها ترمّلت في العام 124 وهي بعد شابة ولديها ولد، يُدعى يسوع، ابن يسوع. وفي العام 128 تزوجت من يهوذا، الذي كانت لديه زوجة أخرى، هي مريام، وابنة، هي شيلامزيون. ومات يهوذا في العام 130. ويعود تاريخ آخر وثيقة إلى العام 132 عند بداية الحرب، أمّا تاريخ أقدم وثيقة فيعود إلى العام 94.

وتبيّن هذه المحفوظات ما كانت عليه حياة جماعة صغيرة في قرية أو مدينةٍ صغيرة في إسرائيل. ومعظم هذه الوثائق هي وثائق قانونية، لكنها تكشف عن علاقات عمل من بينها علاقات مع الموظفين الرومان في ربّاط، وموآب، والبتراء.

وتشير الوثائق إلى أنّ حدود الملكية كانت محددة بوضوح بين الجيران وأنّ نقل الملكية كان يُسَجّل بعناية. وكان لدى بابتا بساتين نخيل، وبيوت، وأفنية، و400 دينار مالاً مُسْتَأمَناً، و500 دينار دَيْناً مُستَقْرَضاً، وودائع، وسوى ذلك من الأملاك. وتُظْهِرُ وهذه الوثائق أنّها كانت امرأة مقتدرة مالياً وأنّ المنطقة حول البحر الميت لم تكن ماحلة من الناحية الاقتصادية. ولعلّ بابتا كانت مثالاً نمطياً

لنخبة تلك المناطق. فمن بين 35 وثيقة، كانت 26 مكتوبة باللاتينية، و6 بالنبطية، و3 بالآرامية. وفي الوثائق اليونانية لا يُشَار إلاّ إلى شخصٍ واحد أنّه يهودي، هو يسوع بن بابتا. فلماذا هذه الإشارة؟ لعلّ الإشارة إلى الأشخاص أنّهم يهود لم تكن تجري إلا حين لا يكون ذلك واضحاً، كحالة المهتدين والمتحولين، وغير اليهود الذين يتّبعون العوائد اليهودية، أو ربما حين يكون ذلك هو اسم العلم. ولم يكن يسوع هذا متحوّلاً. ونظراً لصغر سنّه وكون هذه الوثيقة وثيقة قانونية، فإن تحديد هويته كيهودي كان قضية قانونية. وتبيّن الوثائق اليونانية أنّ العقد المُستَخْدَم كان بحسب الأنظمة القانونية السائدة في ذلك الحين. وثمة وثائق قانونية رسمية تبيّن أشياء كالاشتراطات الخاصة بالأسئلة والإجوبة الخاصة بمعاملة معينة معروضة أمام محكمة رسمية.

وتُظْهِر الوثيقة الخاصة بالوصاية على ابن بابتا مدى نفوذ القانون الروماني. فلم يكن بمقدور بابتا أن تكون الوصية عليه، ولذلك عيّن مجلس البتراء رجلين يقومان بهذه الوصاية؛ أمّا القانون اليهودي فكان يسمح لها بأن تكون الوصية إذا ما قبل زوجها، لكنه لم يقبل، ولذلك لجأت إلى القانون الروماني لحمايتها، بحجة أنّ الوصيين لم يكونا أمينين ولم يتصرفا على النحو اللائق. ومع أنّ ما أسفَرَت عنه القضية ليس واضحاً، يبدو أنّ بابتا كانت لا تزال تجادل بعد ذلك بسبع سنوات، ولم تكن قد نالت المقدار اللازم من إعالة ولدها وميراثه.

وتحضر المعايير اليونانية في كلٍّ من وثائق بابتا وسواها. فثمّة عقد زواج يلزم الزوج بكسوة زوجاته وأطفاله وإطعامهم بحسب العوائد اليونانية. أمّا في عقد بابتا الآرامي الخاص، فنجد أنّ يهوذا يتزوجها بحسب «شرائع موسى واليهود». وهناك عقد زواج آخر من محفوظات يهودية أخرى يشترط لإعالة الزوجة والطفل أن يموت الزوج، وهذا ليس قانوناً يونانياً بل هو يهودي. وحقيقة الأمر، أنّ القوانين اليهودية واليونانية كانت تُستخدم بالتبادل. وكانت قوانين القرية تُتَّبَع أيضاً، وتُدْعَى «شرائع اليهود» في العقود الآرامية و«العوائد اليونانية» في العقود اليونانية.

ولا تُظْهِر هذه المحفوظات أيّة قوانين حاخامية أو دينية يهودية. وما منْ ذِكْرٍ لقوانين المشناه والتلمود الدينية الصارمة. وعقد زواج بابتا الآرامي يقول إنَّ بمقدورها أن تواصل العيش في البيت ويعيلها ورثة يهوذا أو تُصْرَف إذا ما أُعيدت بائنتها. ولا تميّز هذه الوثائق أيّ تمييز بين الجماعات الاجتماعية المختلفة: الأنباط أو الرومان أو اليونان أو اليهود. فلا أثر في هذه الوثائق لضروب التوتر بين اليهود وغير اليهود ولا أثر أيضاً للجماعات السياسية، أو خراب الهيكل، أو المسيح المُنْتَظَر. وما تظهره هذه المحفوظات هو يهود يعيشون في يسر وسلام مع جيرانهم من غير اليهود. وهم يتبعون العوائد اليهودية والمحلية ويتعاونون ويعيشون في إطار النظام الروماني. ولأن بابتا لم تستعد وثائقها، يمكن أن نفترض أنها لم تَعُد إلى الكهف. وليست لدينا أيّة فكرة عمّا حصل لها.

حياة المدينة

الأسواق

كان سكّان القرى الخالية من المجامع يسافرون إلى أقرب بلدة لكي يقيموا الصلوات. وهذه الصلوات، التي كانت تُقام أيام الاثنين والخميس، تتزامن مع أيام السوق، فكان الأمران مرتبطين، وكان الفلاحون المحليون، الذين يحتاجون كلاً من العبادة والقوت، يحصلون على كليهما كلّ ثلاثة أو أربعة أيام. وكانت البلدات المحلية حيث توجد الأسواق تحظى بالحماية. فعادةً ما تُحاط البلدة بنوعٍ من السور فيه بوابات يمكن أن تُغلَق وتُحمى ببرج. وإذ يدخل المرء بلدةً من البوابة، فإنّه يدخل الساحة التي تتفرّع منها الدروب. وهذه الساحة توفّر السوق لكلٍّ من أهل البلدة وسكّان الرّيف، حيث يمكن أن ينخرطوا في التجارة والنقاش بل والتمرد. وكنت تجد هناك الباعة الذين أقاموا دكاكينهم الصغيرة، والقرويين الذين جلبوا منتجاتهم، والباعة الجوّالين الذين راحوا يزاولون مهنتهم. وبحسب البلدة، كانت البضائع تأتي من أرجاء المتوسط، مما يتيح للشاري أن يرتدي آخر طراز من الثياب أو يمتلك أحدث معدّات الطبخ. ولم يكن التجّار من الشرق والإسكندرية وأثينا وروما يبيعون منتجاتهم وحسب بل يتبادلون أطراف الحديث أيضاً. وكانت هذه الأسواق أماكن لتناقل المعلومات بحرّية. وبين هذا الخليط كان جباة الجزية الحريصون على ألاّ يفلت أحدٌ من الجزية المحلية والإمبراطورية. ولم يكن من غير الشائع أن يوجد في هذه البلدات نبعٌ تُجَرُّ منه المياه. وهنا كان يمكن للأخبار المحلية أن تُذاع وتُنْشَر.

وفي المساء تتواصل حياة البلدة. فيطوف العسس الشوارع في الليل كي يضمنوا عدم التعرّض لأحد بسوء أو شرّ. وكانت نوافذ البيوت القريبة تسمح للنور في الداخل بأن يضيء إلى الخارج، من خلال شعرياتها ومُشبَّكاتها. وفي الخارج كان ثمة مشاعل تنير الطريق للسالكين في الليل.

مباني البلدة وحكومتها

كان في البلدات اليهودية مبانٍ يونانية، يستخدمها المحليون. فالحمامات، على سبيل المثال، كانت شائعة. ويُزْعَم أنَّ المعلّم اليهودي غَمَالائيل، معلّم بولس، قد قال، في سياق

تردده على حمّام فيه تمثال لفينوس، إنَّ التمثال قد زيّن الحمام وليس الحمام التمثال، مما يشير إلى قبوله استخدام ذاك التمثال. وفي مصر، تفصّل ورقة بردى من القرن الرابع في وصف بلدة مصرية وعسسها، مشيرةً إلى الطرقات التي يحرسونها. وهذه البردى (48.P.Oxy) تعكس الوضع في أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وما يلفت الانتباه فيها أنّها تذكر كنيسة مسيحية إلى جانب المعابد الأخرى الوثنية والباسيليكا أو بيت الاجتماع. ولعلّ كثيراً من البلدات اليهودية، خاصةً في الجليل الذي اهتدى حديثاً، ظلت تحتفظ بعدد كبير من السكان الوثنيين.

وكان يدير البلدات اليهودية تشكيلة من الموظفين. وعلى سبيل المثال، فإنَّ السلطة النهائية كانت للرومان، على الرغم من أنَّ حضورهم لم يكن متواصلاً. وفي بلدة تحوي 120 رجلاً كان السنهدرين أو المجلس يتألّف من 23 عضواً؛ أمّا البلدات التي تحوي أقلّ من 120 رجلاً فيتألف المجلس من 3 فقط. وهذه المجالس تعيّنها سلطة الهيكل في أورشليم، أي السنهدرين العظيم، الذي يتألف من 71 عضواً. وعلاوةً على الوظائف الدينية لهذه المجالس، لعلّها كانت ذات سلطات مدنيّة تتيح إدارة البلدة وتسييرها. وقد شاعت هذه الممارسة في أرجاء المتوسط، بسبب تفضيل روما أن تحكم من خلال هذه المجالس التي تلقي عليها عبء الشكاوى من جمع الجزية وفرض القواعد الإمبراطورية. وكان ثمّة أيضاً رئيس للبلدة أو عمدة مسؤول عن تسييرها يومياً ونقل المعلومات إلى الوالي ومنه.

وكان للمدن والبلدات قواعدها وموظّفوها الذين يتحمّلون مسؤولية حمايتها، خاصةً من الناحية الصحية والحيلولة دون انتشار الأمراض. ويخبرنا يوسفوس أنّه كان في قيصرية على الساحل مجارٍ تنتهي بالفضلات إلى البحر. ولا بدّ أن تكون البلدات الأخرى قد حوت أنظمة مشابهة. وكانت المقابر تقع خارج المدينة أو البلدة بمعناها الصحيح. وذلك بسبب التابو الذي يحظّر إبقاء الموتى في المدن في المجتمعات القديمة.

السفر

غالباً ما كانت الخانات، أي النُّزل أو الفنادق المحلية، على الطرق خارج البلدات. ولم يكن أكثرها سوى فناء واسع للبهائم والعربات، مع حجرات تفتح على هذا الفناء. ولم تكن هذه الخانات مؤثثةً بل مجرّد أماكن بدائية للنوم. وغالباً ما كان يشرف شخص ما

على المكان، ويمكن أن يقدّم للمسافر الطعام والشراب، وسوى ذلك من اللطائف مقابل أجر. ومثل هذه الأماكن كانت مخصَّصة للغرباء أو الأجانب في العادة. لكن المسافر الذي يعيش في المنطقة كان يتوقَّع أن يلقى حسن الضيافة. وثمّة في التلمود إشارات عديدة إلى اعتقاد الحاخامات أنَّ حسن الضيافة من الضرورات المهمة. فعلى المضيف ملاقاة ضيوفه ومرافقتهم وتوفير المأوى والمأكل وضروب التسلية لهم. وقد تأتّى جزء من هذه الفلسفة عن الإيديولوجيا الدينية التي مفادها أنَّ المسافرين يمكن أن يكونوا ملائكة، وأنَّ على المرء ألاّ يغضب الله أو رسله.

وقد تباينت الطرقات في أرجاء الإمبراطورية الرومانية في مستوياتها ودرجات العناية بها. فبعض الطرقات كانت تصونها الحكومة الإمبراطورية بانتظام شديد وتكلفة باهظة. وكان ثمّة صوىً وعلامات كثيرة تشير إلى أنَّ الجيش أو سواه من الهيئات قد عمل، باسم الأباطرة، على إصلاح هذه الطريق أو تلك، وتحسينها وتوسيعها. ونعلم من المخطوطات والبردى أنّه كانت هناك محطات رسمية متوضّعة على مسافات منتظمة. وهذه المحطات، التي هي في خدمة عمّال الإمبراطورية في المقام الأول، تعدّ أمكنة لتبديل الجياد، والتزوّد بالمؤن، وأخذ قسط من النوم والحماية. أما بالنسبة للجماعة المحلية فإنها صلة وصل مع الحكومة المركزية، والأهم من ذلك مع الجيش. وكانت هنالك قواعد معينة مكتوبة وسارية بألا تكون ثمة أغصان متدلية في الطريق، وبأن تُزال البهائم الميتة منه، وبأن يُنظَّف من القمامة على فترات منتظمة. وكان كثيرٌ من هذه القواعد يشير إلى عرض الطريق ودورات إصلاحه. فقد أشار التلمود إلى أنَّ الطرقات العامة ينبغي أن يكون عرضها 24 قدماً وأن يخلو تحتها من أيّة بنى، لضمان السلامة. وأخيراً، كان ثمة بعض الطرق لم تكن أكثر من سبل ضيقة، ولم تكن تُصان أو تحوي أية مرافق فعلية.

وكان الفلاح الذي عاش في فلسطين خلال القرن الأول الميلادي بحاجة مستمرة إلى التنقل والسفر. ومع أنَّ بعضهم لم يكن مضطراً إلى التنقل في المنطقة على طريقة البدو أو رعاة الأغنام والماعز، فإنَّ كثيرين كانوا يسافرون، ولو إلى سوق قريبة أو إلى أورشليم في الأعياد. وكانت تحفّ بالسفر مخاطر كثيرة. ولابد من أنَّ المثل الذي رواه يسوع عن الرجل الذي سُلِبَ وضُرِبَ على الطريق كان شائعاً بما يكفي لأن يفهمه الجمهور، وكذلك وجود النُّزل الذي أخذ السامريُّ المسافرَ إليه. وما يعزّز فكرة شيوع السفر ما نجده من أسفار

يسوع وحوارييه في أرجاء فلسطين. وكذلك ما نجده في التلمود من أنَّ الرحلة العادية تبلغ 40 ميلاً رومانياً أو زهاء 36 ميلاً ونصف الميل من الأميال الحديثة. ومن المفترض أن مثل هذه الرحلة لم تكن على الأقدام بل في عربة أو على بهيمة. وكان العيد الكبير في أورشليم يجلب المسافرين الذين تعجّ بهم الطرقات إلى العاصمة ومنها. ومن الواضح في إنجيل لوقا أنَّ هذه السَّفْرَة كانت جماعية، حيث يسافر الحجيج جماعةً. وكان الحجّ في هذه الفترة ذا أهمية أساسية، وفرصةً للعطلة واللهو.

الحجّ

كان الحجّ حجّاً دينياً أولاً وقبل كلّ شيء. وفي زمن العهد الجديد اعتاد اليهود الذين يعيشون حول أورشليم أن يقصدوا الهيكل كل أسبوع. أمّا أولئك الذين يعيشون في فلسطين إنّما على مسافةٍ لا تتيح لهم السفر كلّ أسبوع فيُتوقَّع أن يقوموا بتلك الزيارة كلَّ سنة. والقصة التي يوردها إنجيل لوقا عن سفر يوسف النجّار ومريم كلّ سنة إلى أورشليم، وذهابهما إلى هناك عندما كانت ليسوع اثنتا عشرة سنة هي مثال على ذلك (لوقا 2: 41–51). أمّا من كانوا خارج فلسطين فمن المتوقَّع للواحد منهم أن يقصد الهيكل مرّة في العمر على الأقل. وهذه الرحلة الدينية يُقْصَد منها أن تجدد إيمان المرء وتقيم الصلة بينه وبين إلهه. غير أنّ الحجَّ شكّل أيضاً فرصة للسفر ورؤية أماكن مختلفة. وكان اليهود خارج فلسطين يجدون في ذلك فرصةً لرؤية الأرض التي عاش فيها أسلافهم، إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان. وكانت الرحلة تفسح المجال أمام عقد روابط العمل وتجديد الصداقات والاحتكاك بأعضاء ذوي شأن في الجماعة اليهودية. وكان الحج عطلةً أيضاً، وفرصة لاستكشاف الدنيا. إذ يتيح للفلاحين أن يتركوا محلاّتهم ويستكشفوا غير مكان. ومع أنّه يصعب أن نؤكّد إن كان أَمْكَن للفلاحين من مصر أو اليونان أو إيطاليا أن يقوموا برحلة العمر، فإنَّ من الواضح أنَّ فكرة الحجّ كانت لها سطوتها.

وفي زمن ما بعد العهد الجديد، بعد خراب أورشليم، واصل المسيحيون إضفاء هذه الأهمية على الحجّ، وتُظْهِر الأدلّة بوضوح أنَّ السفر إلى أورشليم بقي واحداً من أهمّ الأسفار التي يمكن للمرء أن يقوم بها. وثمة رواية لمسافر مجهول من الغال (فرنسا) تحكي عن رحلة إلى أورشليم في أوائل القرن الرابع الميلادي، فتصف مراحل السفر والأماكن،

لكن أهميتها الأساسية تكمن في وصفها أورشليم حوالي العام 400 للميلاد. وما يلي هو مقطع من هذه الرواية عن أورشليم لا يتناول ما كان يراه المرء فيها وحسب بل تاريخها العام أيضاً.

مدينة أورشليم

أورشليم
بقي 12 ميلاً إلى أورشليم.
المسافة الإجمالية من قيصرية إلى أورشليم 116 ميلاً، فيها 4 وقفات، و4 تغييرات.
ثمة في أورشليم بركتان كبيرتان إلى جانب الهيكل، واحدة إلى يساره، والأخرى إلى يمينه، كان سليمان قد أَمَر بهما؛ وفي المدينة بركة، لها خمسة أروقة، يُقال لها بَيْتُ حِسْدا (يوحنا 5: 2–18). وهناك يتداوى من أصيب بأمراض مزمنة؛ حيث يغدو ماء البركة أحمر حين يُحرَّك أو يضطرب. وثمّة هنا قَبْوٌ أيضاً، اعتاد سليمان أن يعذّب فيه الشياطين.
وهنا أيضاً زاوية جناح الهيكل، ذلك البرج الشاهق، حيث صعد المُجَرِّب بسيدنا وقال له: «إنْ كنتَ ابن إله فاطرح نفسكَ إلى أسفل» (متّى 4:7). فقال السيد: لا تجرّب الربّ إلهك» (متّى 4:8). وثمّة حجر زاوية عظيم، كان قد قيل عنه: «الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية» (متّى 21: 42؛ مزامير 118: 22). وتحت جناح الهيكل ثمة حُجْرات كثيرة، وهنا كان قصر سليمان. وهناك أيضاً تلك الحجرة حيث جلس وكتب (سفر) الحكمة، وهي حِجْرة مسقوفة بحجرٍ واحد. وهناك أيضاً خزّانات ضخمة تحت الأرض للمياه وبرك مبنيّة بجهد عظيم. وفي البناء ذاته، حيث يقوم الهيكل الذي بناه سليمان، يقولون إنّ دم زكريا سُفِكَ على الأرض (متّى 23: 35؛ لوقا 11: 51) أمام المذبح الباقي إلى اليوم. ونرى أيضاً علامات المسامير في أحذية الجنود الذين ذبحوه، واضحةً في أرجاء المكان حتى لتحسب أنّهم كانوا يدوسون على شمع. وثمّة تمثالان لهادريان، وغير بعيد عن التمثالين حجرٌ مُثقَّب، يأتي إليه اليهود كلَّ سنة ويمسحون عليه بالزيت، ويتفجعون ويتأوّهون، ويمزّقون أرديتهم، ثم يغادرون. وثمة أيضاً بيت حَزَقِيّا ملك يهودا.
وحين تخرج من أورشليم لتصعد جبل صهيون، إلى اليسار، في الوادي، جانب السور، ثمة بركة تُدعى سِلْوام (يوحنا 9: 7) ولها أربعة أروقة؛ فضلاً عن بركة أخرى كبيرة بجانبها. وهذا الينبوع يتدفق ستة أيام بلياليها، وفي اليوم السابع، الذي هو السبت، يكفّ تماماً، في النهار والليل. وحين يصعد المرء صهيون من هذا الجانب يرى أين كان بيت قيافا الكاهن، ولا يزال هناك عمود ضُرِب المسيح عنده بالعصيّ. وفي الداخل، ضمن سور صهيون، يُرَى المكان الذي كان فيه قصر داود. ومن بين المجامع السبعة التي كانت قائمة هناك، لم يبق سوى مجمع واحد؛ أمّا البقيّة فقد فُلِحَت

وبُذِرَت فيها البذور، كما قال أشعيا النبي (إشعيا 1: 8؛ ميخا 3: 12).

ومن هناك وأنت تخرج من سور صهيون، وتمشي نحو بوابة نيابوليس، إلى اليمين، في الوادي، توجد أسوار، حيث كانت دار الولاية التي كان فيها بيلاطس البنطي (متّى 27: 27). وهنا حوكم سيدنا قبل صلبه. وإلى اليسار ثمة التلّ الخفيض الذي يُقال له جُلْجُثة حيث صُلِبَ السيّد (متّى 27: 33). وعلى مرمى حجرٍ من هناك ثمة القبو حيث وُضِع جسده، إلى أن قام في اليوم الثالث (متّى 27: 63؛ 28: 6). وقد أقيمت هناك الآن، بأمرٍ من الإمبراطور قسطنطين، باسيليكا، أي كنيسة ذات جمال باهر، وإلى جانبها خزّانات يُرْفَع منها الماء، وخلفها حمام يُغسَل فيه الصغار (أو يُعَمَّدون).

وكذلك حين يمضي المرء من أورشليم إلى البوابة التي إلى الشرق، ليصعد جبل الزيتون، ثمة وادٍ يُدْعَى وادي يوسفات. وإلى الأيسر، حيث توجد كروم، هنالك حجر هو الموضع الذي غدر عنده يهوذا الإسخريوطي بالمسيح (متّى 26: 47–50)؛ وإلى الأيمن نخلةٌ، قطع الأطفال سعفها وفرشوه في الطريق حين جاء المسيح (متّى 21: 8). وغير بعيد من هناك، على مرمى حجر، ثمّة قبران بديعان؛ في أحدهما، وهو حجرٌ واحدٌ صلب، يرقد إشعيا النبي، وفي الثاني يرقد حزقيا، ملك اليهود.

من هناك يصعد المرء جبل الزيتون، حيث علّم السيد تلاميذه قبل الصلب. وهناك باسيليكا رائعة الجمال أقيمت بأمر من قسطنطين. وغير بعيد عنها تجد المرتفع البسيط الذي صعده السيد ليصلي، حين أخذ معه بطرس ويوحنا، وظهر لهم موسى وإيليا (متّى 17: 1– 8).

المصدر: Itinerary from Bordeaux to Jerusalem (330 C.E), translation by Aubrey Stewart (London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1887), 589-596.

الفصل الثامن

الحياة العائلية وظروف العيش

«قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «اذْهَبِي وَادْعِي زَوْجَكِ وَتَعَالَيْ إِلَى ههُنَا» أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ وَقَالَتْ: «لَيْسَ لِي زَوْجٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «حَسَنًا قُلْتِ: لَيْسَ لِي زَوْجٌ، لأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ، وَالَّذِي لَكِ الآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكِ. هذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ»

(يوحنا 4: 16–18)

كان للبشر المذكورين في العهد الجديد مختلف المشارب ودرجات النفوذ والتواريخ. وهذا الفصل يتفحّص كيف عاش هؤلاء زمن العهد الجديد وما الذي كانت عليه ظروف حياتهم.

الزواج

كان الزواج والحياة العائلية عماد المجتمع في حقبة العهد الجديد. ومع أنَّ الحياة العائلية كان يمكن أن تقوم بغير زواج، إلا أنَّ هذه المؤسسة كانت عمود الحياة العائلية الفقري وبقيت كذلك. ويلقي العهد الجديد، وما أُلْحِقَ به من أعمال، نظرات على الحياة العائلية والمجتمع، إذ يشكّل الزواج أساس معظم التفاعلات الاجتماعية. وفي عهد الجمهورية الرومانية، عندما كان شخصٌ يتّخذ زوجةً، تخرج هذه المرأة من تحت سيطرة والدها وتدخل تحت سيطرته، وقد دعا الرومان ذلك بالسيطرة manus (وتعني «يد»). وفي أواخر الجمهورية أتاح شكلٌ جديد من الزواج، يُدعى sine manus (دون نقل اليد أو السلطة) بقاء العروس تحت سيطرة والدها وأعطاها الحقّ تالياً في أن تَرِث. وقد عنى ذلك بدوره أن تحتفظ بشيء من الاستقلال عن زوجها ما دامت ليست واقعةً كلياً تحت سيطرته الاقتصادية. وكان الزوج في هذا الشكل يتلقى البائنة أو الدوطة، التي يمكن له أن يستخدمها إلا أنّها كانت تخضع لقيود معينة. وكان هذا الشكل من الزواج شائعاً زمن العهد الجديد ليس في المجتمع الروماني وحسب بل في المجتمع اليوناني أيضاً.

وفي المجتمع اليهودي كان شكل الزواج التقليدي موجوداً، لكن التغيّر راح يعتريه هو ذاته، ويمضي به أكثر فأكثر نحو الرؤية اليونانية والرومانية. وما يجدر ذكره بشأن أشكال الزواج هذه أنّها كانت تبدي مرونة تبعاً لمنزلة العوائل الاجتماعية والاقتصادية. فالعوائل الثرية القوية كانت تريد أن تضمن لنفسها نَيْل أقصى ما يمكن من درجات الامتياز. وعلى سبيل المثال، قد تلحّ عائلة العروس على شكل الزواج المدعو sine manus لأنّه يتيح لابنتهم السلطة ووسيلة الحفاظ على استقلالها. أمّا عائلة العريس فقد تطلب بالمقابل دوطةً ضخمة تعوّض عن فقدانها السلطة. وكانت الدوطة تقليدياً عبارة عن ملكيةٍ أو بضائع تدرّ دخلاً ويمكنها أن تعيل الزوجين. ولذلك كان حاسماً بالنسبة لعائلة العريس أن تكون الدوطة ضخمة بما يكفي لأنَّ تعود بالفائدة ليس على الزوجين فحسب بل على أطفالهما أيضاً. وفي الإمبراطورية الباكرة تمثّلت الإضافة على عقد الزواج بهبةٍ (أو منحة) من عائلة العريس إلى العروس، تخطّت في النهاية قيمة الدوطة. وقد أوقعت هذه الممارسة عائلة العريس في مشكلات لأنَّ كثيراً من الشباب لم تكن لديهم القدرة على تقديم هبة كبيرة. وطبيعيٌّ أن تكون عائلة العروس قد رحّبت بهذا التغيير، الذي أراحها من عبء الدوطة الكبيرة. وقد عمل هذا التحوّل من دوطة العروس الكبيرة إلى هبة العريس الكبيرة على تأخير زواج الشباب، في حين جعل عائلة العروس ترغب في تزويجها شابّةً فتيّة. ولقد ظلّ كلٌّ من الدوطة والهبة ملحوظاً لدى العائلات الفقيرة لكنهما لم يكونا بتلك الأهمية. والأرجح أنَّ الفقراء في هذه الفترة كانوا يتزوّجون بدافع الحب، أما الأثرياء فبدافع المطامح العائلية.

واللافت في الزواج القديم أنّه كان أشبه بعمليةٍ تجارية، الأمر الذي يبدو واضحاً في عقد الزواج. فهذا العقد يجعل الزواج أقرب إلى الكسب التجاري أو اندماج شركتين، خاصةً حين يكون زواجاً بين اثنين من الارستقراطية أو الطبقة التجارية. وكان هذا العقد يفرض مطالب على الفريقين ويرمي إلى حماية كلا الشريكين، وعائلتيهما، والمجتمع. وقد شاعت عقود الزواج في أرجاء العالم المتوسطي القديم، بدءاً بالمجتمعات السابقة على الكتاب المقدس مروراً بالعالم القديم وصولاً إلى الحقبة الحديثة. ولم يقتصر هدف العقد على إفساح المجال أمام اتحاد الأفراد بل تعدّاه إلى اتحاد عناصر أخرى في المجتمع، بما في ذلك قوى اقتصادية وسياسية واجتماعية.

الزواج اليهودي

كان الزواج اليهودي التقليدي الوحدة الاجتماعية الرئيسة في حقبة العهد الجديد (يوحنا 2: 1–11)[1]. وكانت مراسم الزواج اليهودية القديمة تبدأ بالـ«شِدُّوخين»، أو القِران. وعادةً ما كان يشرع والد العريس، أو شخص آخر، في هذا الأمر الذي يقتضي قبول العروس والذي كان شائعاً في المجتمعات غير اليهودية أيضاً. وبعد القران، يُدْفَع المهر أو ثمن العروس كما تقتضي الشريعة اليهودية. ويقوم بذلك والد العريس أو العريس نفسه إنْ كان كبيراً، وهو يعكس في الأصل قيمة العروس. ويبدو أنَّ هذا الثمن كان في القرن الأول الميلادي 100 دينار، وهو مبلغ كبير، يساوي باونداً من الفضة أو أربع قطع ذهبية، أو 100 يوم من العمل الذي يعمله عامل عادي. أمّا الـ«مَتّان». أو الهبات الحبيّة، مع أنّها لم تكن مطلوبة، فكان يهبها العريس للعروس مُظْهِراً لها حبّه. بعد ذلك يقدّم والد العروس الـ«شيلوهيم»، أو الدوطة، دعماً لها، وكانت هذه الدوطة جزءاً من ميراثها. وعندئذٍ يُكْتَب الـ «كتباه أو عقد الزواج الفعلي». وهو عبارة عن وثيقة مكتوبة تبيّن قيمة المهر وتفصّل في حقوق العروس ومقتضيات العريس ووعوده.

وما إنْ يُكْتَب الكتاب أو العقد حتى تبدأ الـ«كِدّوشين» أو الخطبة. ويمكن لهذه الأخيرة أن تدوم حتى السنة، ويبدو أنَّ الخطيبين كانا يستطيعان أن يعيشا معاً، بل وأن يقيما علاقات جنسية. وهذه الحقيقة يمكن أن تفسّر القصة الواردة في العهد الجديد حيث يريد يوسف تَخْلِيَة مريم سرّاً، وقد علم أنّها حبلى دون أن تكون بينهما علاقة جنسية. فليس الأمر في هذه القصة أنَّ الجنس كان مُحَالاً، بل أنَّ ابن مريم ليس ابن يوسف. وأخيراً يقوم الـ«نِسوين» أو الزفاف حين يقرر والد العريس أنَّ الأوان قد آن. وكان يُنْظَر إلى هذا الزفاف تقليدياً كوصول غير متوقّع للعريس الذي «يخطف العروس» ويتزوّجها.

(1) « 1 وَفي الْيَوْم الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ في قَانَا الْجَلِيلِ، وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ. 2وَدُعِيَ أَيْضًا يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ. 3وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ». 4قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ؟ لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ». 5قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ». 6وَكَانَتْ سِتَّةُ أَجْرَانٍ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ، حَسَبَ تَطْهِيرِ الْيَهُودِ، يَسَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِطْرَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً. 7قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً». فَمَلأُوهَا إِلَى فَوْقُ. 8ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ». فَقَدَّمُوا. 9فَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْمَاءَ الْمُتَحَوِّلَ خَمْرًا، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ، لكِنَّ الْخُدَّامَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اسْتَقَوُا الْمَاءَ عَلِمُوا، دَعَا رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْعَرِيسَ 10وَقَالَ لَهُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً، وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الآنَ!». 11هذِهِ بِدَايَةُ الآيَاتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ، فَآمَنَ بِهِ تَلاَمِيذُهُ».

وكثيرٌ من هذه الأفكار كان موجوداً في مجتمعات أخرى ولعلها تعود إلى مراحل أسبق. وعلى سبيل المثال، فإنَّ «خَطْف العروس» كان موجوداً في كلٍّ من الثقافتين اليونانية والرومانية.

كانت الدوطة المكوّن الاجتماعي الأهم، حيث يدفعها والد العروس إلى العريس ليستخدمها في إعالة زوجته وأسرته، من دون أن يسعه تبذيرها أو إساءة استخدامها. وغالباً ما كان يُنْظَر إلى الدوطة على أنها الثمن الذي تدفعه عائلة العروس للعريس، مع أنَّ القَصْد الفعلي منها توفير الحماية للعروس، خاصةً إذا ما حصل شيء للعريس. وفي الأزمنة القديمة كان الزوج يستخدم الدوطة، خاصةً إذا كانت مالاً أو أرضاً، لكنه كان مسؤولاً عن الحفاظ على قيمتها. وغالباً ما كانت الدوطة عبارة عن أثاث أو ملابس أو أطباق أو سواها من الأشياء التي لا تُعَدُّ مصدر دخل. فإذا ما وقع الطلاق أَمْكَنَت المطالبة بإعادة الدوطة إلى الزوجة، أو أنّها تذهب إلى الزوج إذا ما رأت المحكمة أنَّ الزوجة هي الملومة. وإذا ما توفيت الزوجة فإنَّ الدوطة يمكن أن تُعاد إلى أسرتها أو تعتبَر جزءاً من إرث أبنائها. ولذلك لا ينبغي أن يُنْظَر إلى الدوطة على أنها مكافأة تُدْفَع للعريس كي يتزوج المرأة، بل كمكوّن اقتصادي يضمن استمرار عائلة العروس. وغالباً ما يتوقف حجم الدوطة على مكانة عائلة العروس ومطامحها. فإذا ما كانت عائلتها تريد لها أن تتزوج في عائلةٍ أشدّ تماسكاً أو أقوى أو أغنى، فإنها تعمد إلى زيادة دوطتها لتجعل القران أشدّ قبولاً وجاذبية. وكان عقد الزواج يبيّن حدود الدوطة ويشبه اتفاقات ما قبل الزواج الحديثة، وإن لم يكن يماثلها تماماً[1].

وكان عقد الزواج يفصّل أيضاً في الأمور المتعلّقة بالوَرَثة. وكان لذلك أهميته في تحديد ما يجري لأملاك العائلة، خاصةً وأنَّ الطرفين يدركان أنَّ أحدهما يمكن أن يموت فيتزوج الآخر من جديد. وعلى سبيل المثال، إذا ما كان لدى الزوج والزوجة طفلان، فإنَّ العقد يمكن أن ينصّ على ذهاب نصف الأملاك إلى الطفلين، فيأخذ كلٌّ منهما الربع، في حين يذهب النصف الآخر لمن بقي من الزوجين. وبهذه الطريقة تجري حماية الأطفال إذا ما توفيت الزوجة وتزوج الزوج ثانيةً وأنجب أطفالاً آخرين. وكذلك إذا ما تزوّج

(1) اتفاق ما قبل الزواج الحديث هو عبارة عن عقد بين الرجل والمرأة قبل الزواج يتفقان فيه على ما يجب دفعه من مال إذا ما جرى طلاق بينهما.

الزوج أو الزوّجة مرّة أخرى وأنجب أطفالاً، كان يُشتَرَط أو يُنَصّ صراحةً على ألاّ يُعتَرَف بهم في الوصية. وغالباً ما تجعل هذه العقود مؤسسة الزواج تبدو أشبه بالتجارة، وهي كذلك بمعنى ما، إذ تحاول أن تحمي جميع المعنيين وتأخذ في الحسبان مختلف الطوارئ. وربما كانت هنالك عقود زواج موحَّدة يطلبها المرء من كاتب أو قانونيّ، وعندها يسجّل الكاتب الأمور المخصوصة لكن الصيغة الموحَّدة تبقى هي ذاتها.

الطلاق

كان الطلاق شائعاً زمن العهد الجديد. وفي حين كان العالم القديم محابياً للزوج، ومزدوج المعايير في الغالب، فقد تمتعت النساء أيام يسوع بحقوق معينة. ففي العالم الهلنستي والروماني كان بمقدور النساء أن يباشرن الطلاق، مع أنَّ الأطفال يبقون مع الزوج. وفي زمن العهد القديم كانت اليهودية أيضاً تتيح الطلاق، لكن الزوج وحده هو الذي يمكن أن يباشره؛ أمّا الزوجة أو سواها فيسعهم أن يحاولوا دفعه إلى تسجيل الطلاق إذا ما كانت تريده، لكنه لم يكن مجبراً على ذلك. وقبل هلّيل، حاخام القرن الأول ق.م الذي عاش في عهد هيرودس الأكبر، لم يكن بمقدور رجل أن يطلّق زوجته إلا إذا أخلَّ بالواجبات الثلاثة الواردة في سفر الخروج 21: 10، وهي ألاّ يُنقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها. فإذا ما أَخْفَق رجل في أن يؤدّي لزوجته هذه الواجبات الثلاثة كان بمقدوره أو بمقدورها، بعونٍ من عائلتها في العادة، طلب الطلاق. ومع أنَّ الرجل وحسب يمكنه من الناحية التقنية أن يكتب شهادة طلاق في اليهودية، فإنَّ المرأة أيضاً بمقدورها أن تفعل ذلك، خاصةً من خلال كاتب أو بإقناع وليّ ذكر من عائلتها بأن يقوم بالأمر.

لكن هلّيل رأى أنَّ من الممكن أيضاً إجراء الطلاق على أساس ما جاء في سفر التثنية 24: 1[1] من إشارةٍ إلى «عَيْبِ شيءٍ». فإذا ما وجد رجل في امرأته عَيْباً، أي إذا ما ارتكبت الزنا، أَمْكَنَهُ أن يطلّقها. غير أنَّ هلّيل نظر إلى التثنية 24: 1 على أنّها تشتمل على قضيتين منفصلتين: «عيب» و»شيء». ورأى أنَّ هذا الأمر الأخير يعني في جوهره أنَّ بمقدور الرجال اليهود، مثل نظرائهم اليونان، أن يطلّقوا لأيّ سبب. فاليهودية كانت قد

(1) « 1 إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ...».

اعترتها خلال القرون الستة الأخيرة تأثيراتٌ خارجية تركت أثرها الدائم على نسيجها الاجتماعي. فبعد الإمبراطورية الفارسية (500 ق.م)، التي كان لها تاريخ من التسرّي، وبعد التأثير الهلنستي أو اليوناني، الذي أخضع النساء بالمثل ووضعهنّ في منزلة متدنيّة، باتت مؤسسة الزواج اليهودية عرضةً لهجوم متواصل. وكانت الفلسفة الهلنستية وبعدها الرومانية تتيحان الطلاق لأيّ سبب، خاصةً في صفوف الطبقة العليا. والتأثير اليوناني في فلسطين هو الذي أفضى إلى هذا الجدال في اليهودية وما أسفر عنه من تعاليم هِليل. وآثار هذا الجدال تبدو واضحةً في الإنجيل (مرقس 10: 2– 9؛ متّى 19: 3– 9)[1] حين لا يذكر يسوع، وقد سئل عن الطلاق، تلك الواجبات الثلاثة الواردة في سفر الخروج. فمع أنَّ هذه الواجبات كانت السبب اليهودي المتعارف عليه للطلاق، إلا أنّ يسوع الذي ترعرع في مجتمع يسمح بالطلاق وفقاً لـ«سفر الخروج»، قَصَر الطلاق على «عيبِ شيءٍ»، أي على القراءة التقليدية لـ التثنية 24: 1، من دون أفكار هلّيل الجديدة التي تشتمل على كلٍّ من العيب و«أيّ شيء»، أو «أيّ سبب». وبعبارة أخرى، فإنّ يسوع لم يدافع عمّا دافع عنه هليل وكان سارياً في اليهودية من طلاقٍ من دون ذَنْب. وعدم ذكر يسوع الطلاق الناجم عن الإخلال بالواجبات الثلاثة لا يعني أنَّ يسوع كان ضد الطلاق، بل يعني أنّه لم يكن يغيّر التوراة وآراء اليهودية التقليدية. وعلاوةً على ذلك فإنَّ يسوع لم يعترض على فكرة «عيبِ شيءٍ» في التثنية. وهو في هذا الأمر الأخير لم يكن وحيداً لأنَّ السامريين، تلك الطائفة اليهودية، كانوا يعتقدون الشيء ذاته.

ويرى بعض الباحثين أنَّ النظرة التقليدية التي ترى أنَّ بمقدور الرجل وحده أن يباشر

(1) « 2 فَتَقَدَّمَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَسَأَلُوهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ؟» لِيُجَرِّبُوهُ. 3فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «بِمَاذَا أَوْصَاكُمْ مُوسَى؟» 4فَقَالُوا: «مُوسَى أَذِنَ أَنْ يُكْتَبَ كِتَابُ طَلاَق، فَتُطَلَّقُ». 5فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ كَتَبَ لَكُمْ هذِهِ الْوَصِيَّةَ، 6وَلكِنْ مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا اللهُ. 7مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، 8وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. 9فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ» (مرقس).

«3وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟» 4فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ 5وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. 6إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». 7قَالُوا لَهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَق فَتُطَلَّقُ؟» 8قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا. 9وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَبِ الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي» (متّى).

الطلاق لم تكن النظرة الوحيدة. فالفريسيّون في القرنين الأول والثاني الميلاديين كانوا يعلّمون ضد مباشرة النساء الطلاق، مما اعتبره هؤلاء الباحثين إشارةً إلى أنَّ ذلك كان يحدث بالفعل. وثمة برهان على هذا التناقض في عدد من المصادر اليهودية على مرّ تاريخ اليهود. ففي مصر، في أليفانتين[1] خلال المرحلة الفارسية، تشير سجلات محلّية لجماعةٍ يهودية إلى أنَّ النساء اليهوديات كُنَّ يباشرن الطلاق. فالنظرة التقليدية الخاصة بهذه المرحلة هي أنَّ هذه الطائفة منعزلة وبعيدة عن الهيكل وقيادتها الدينية في أورشليم. لكنَّ نقاشات جرت مؤخَّراً بيّنت أنَّ اليهود في مصر كانوا خلال المرحلة الفارسية على تماس منتظم مع قادة الهيكل في أورشليم وأبقوا رغم ذلك على السماح للزوجة بأن تباشر الطلاق. وقد قال يسوع، في إنجيل مرقس 10: 11– 12، من طلّق امرأته وتزوّج بأخرى يزني عليها، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوّجت بآخر تَزْني. والرأي المقبول أنَّ مرقس كان يكتب للجمهور اليوناني، الذي يبيح الطلاق. ومع أنَّ هذا قد يكون صحيحاً، فإنَّ مرقس لم يكن بمقدوره أن يصرّح بأفكار غريبة على اليهودية لمجرد أن يرضي جمهوراً غير يهودي، ذلك أنَّ كثيراً من جمهور مرقس كان يعرف الجماعة اليهودية حقّ المعرفة. وما يظهره هذا المقطع بوضوح هو، إذاً، أنَّ النساء في اليهودية كُنَّ قادرات على مباشرة الطلاق في القرن الأول الميلادي. وأخيراً، فإنَّ بردى من أربعينيات القرن الثاني الميلادي تشير إلى أنَّ زوجة قد تمكّنت من أن تطلّق. وهذه البردى هي إشعار مكتوب مشابه لكثير من الإشعارات الصادرة عن رجالٍ أعلنوا الطلاق.

إذاً، لقد كان بمقدور النساء زمن العهد الجديد أن يطلقن تبعاً لكلٍّ من الشريعة اليهودية وعوائد مشابهة لعوائد نظرائهم اليونان–الرومان. وكان السؤال بالنسبة للمسيحيين الأوائل هو: كيف يمكن للدين الجديد القائم على العوائد اليهودية لكنه يعمل في العالم اليوناني–الروماني أن يتناول هذه القضية؟. فبولس في الإصحاح السابع من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس[2] يسير على خطا يسوع في رفضه ما قال به هلّيل من أنَّ الطلاق

(1) أليفانتين جزيرة في نهر النيل، عند الحدود الجنوبية لمصر القديمة. ويُشار إلى هذه المنطقة باسم مصر العليا لأنَّ الأرض هنا أعلى منها قرب ساحل المتوسط. وهي الآن جزء من مدينة أسوان المصرية الحديثة.

(2) « 1 وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الأُمُورِ الَّتِي كَتَبْتُمْ لِي عَنْهَا: فَحَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً. 2 وَلكِنْ لِسَبَبِ الزِّنَا، لِيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ امْرَأَتُهُ، وَلْيَكُنْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَجُلُهَا. 3 لِيُوفِ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ حَقَّهَا الْوَاجِبَ، وَكَذلِكَ الْمَرْأَةُ أَيْضًا الرَّجُلَ. 4 لَيْسَ لِلْمَرْأَةِ تَسَلُّطٌ عَلَى جَسَدِهَا، بَلْ لِلرَّجُلِ. وَكَذلِكَ الرَّجُلُ أَيْضًا لَيْسَ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَى جَسَدِهِ، بَلْ لِلْمَرْأَةِ. 5 لاَ يَسْلُبْ أَحَدُكُمُ الآخَرَ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى مُوافَقَةٍ، إِلَى حِينٍ، لِكَيْ تَتَفَرَّغُوا لِلصَّوْمِ وَالصَّلاَةِ، ثُمَّ تَجْتَمِعُوا أَيْضًا مَعًا

يمكن أن يكون لـ «أيّ شيء» وفي رفضه الممارسة اليونانية المتمثّلة في انفصال الزوجين وإعادة الدوطة. وهو يعالج قضية الطلاق موصياً ألاّ يترك المسيحي امرأته وألا تفارق المسيحية رجلها، ولو كان وثنياً أو كانت وثنية. فإنْ لم يستطع المسيحي والمسيحية أن يظلا على زواجهما فإنَّه يلحّ عليهما أن يلبثا غير متزوجين بعد الطلاق علّهما يتصالحان. أمّا إذا كان أحدهما غير مؤمن فإنَّ لا سلطة للكنيسة على الزوجين، بخلاف الحالة التي يكونان

لِكَيْ لاَ يُجَرِّبَكُمُ الشَّيْطَانُ لِسَبَبِ عَدَمِ نَزَاهَتِكُمْ. 6 وَلكِنْ أَقُولُ هذَا عَلَى سَبِيلِ الإِذْنِ لاَ عَلَى سَبِيلِ الأَمْرِ. 7 لأَنِّي
أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ النَّاسِ كَمَا أَنَا. لكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَهُ مَوْهِبَتُهُ الْخَاصَّةُ مِنَ اللهِ. الْوَاحِدُ هكَذَا وَالآخَرُ هكَذَا.
8 وَلكِنْ أَقُولُ لِغَيْرِ الْمُتَزَوِّجِينَ وَلِلأَرَامِلِ، إِنَّهُ حَسَنٌ لَهُمْ إِذَا لَبِثُوا كَمَا أَنَا. 9وَلكِنْ إِنْ لَمْ يَضْبُطُوا أَنْفُسَهُمْ، فَلْيَتَزَوَّجُوا.
لأَنَّ التَّزَوُّجَ أَصْلَحُ مِنَ التَّحَرُّقِ. 10وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجُونَ، فَأُوصِيهِمْ، لاَ أَنَا بَلِ الرَّبُّ، أَنْ لاَ تُفَارِقَ الْمَرْأَةُ رَجُلَهَا، 11وَإِنْ
فَارَقَتْهُ، فَلْتَلْبَثْ غَيْرَ مُتَزَوِّجَةٍ، أَوْ لِتُصَالِحْ رَجُلَهَا. وَلاَ يَتْرُكِ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ. 12وَأَمَّا الْبَاقُونَ، فَأَقُولُ لَهُمْ أَنَا، لاَ الرَّبُّ:
إِنْ كَانَ أَخٌ لَهُ امْرَأَةٌ غَيْرُ مُؤْمِنَةٍ، وَهِيَ تَرْتَضِي أَنْ تَسْكُنَ مَعَهُ، فَلاَ يَتْرُكْهَا. 13وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَهَا رَجُلٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ،
وَهُوَ يَرْتَضِي أَنْ يَسْكُنَ مَعَهَا، فَلاَ تَتْرُكْهُ. 14لأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقَدَّسٌ فِي الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ مُقَدَّسَةٌ
فِي الرَّجُلِ. وَإِلاَّ فَأَوْلاَدُكُمْ نَجِسُونَ، وَأَمَّا الآنَ فَهُمْ مُقَدَّسُونَ. 15وَلكِنْ إِنْ فَارَقَ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ، فَلْيُفَارِقْ. لَيْسَ الأَخُ
أَوِ الأُخْتُ مُسْتَعْبَدًا فِي مِثْلِ هذِهِ الأَحْوَالِ، وَلكِنَّ اللهَ قَدْ دَعَانَا فِي السَّلاَمِ. 16لأَنَّهُ كَيْفَ تَعْلَمِينَ أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، هَلْ
تُخَلِّصِينَ الرَّجُلَ؟ أَوْ كَيْفَ تَعْلَمُ أَيُّهَا الرَّجُلُ، هَلْ تُخَلِّصُ الْمَرْأَةَ؟ 17غَيْرَ أَنَّهُ كَمَا قَسَمَ اللهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ، كَمَا دَعَا الرَّبُّ
كُلَّ وَاحِدٍ، هكَذَا لِيَسْلُكْ. وَهكَذَا أَنَا آمُرُ فِي جَمِيعِ الْكَنَائِسِ. 18دُعِيَ أَحَدٌ وَهُوَ مَخْتُونٌ، فَلاَ يَصِرْ أَغْلَفَ. دُعِيَ أَحَدٌ
فِي الْغُرْلَةِ، فَلاَ يَخْتَتِنْ. 19لَيْسَ الْخِتَانُ شَيْئًا، وَلَيْسَتِ الْغُرْلَةُ شَيْئًا، بَلْ حِفْظُ وَصَايَا اللهِ. 20اَلدَّعْوَةُ الَّتِي دُعِيَ فِيهَا كُلُّ
وَاحِدٍ فَلْيَلْبَثْ فِيهَا. 21دُعِيتَ وَأَنْتَ عَبْدٌ فَلاَ يَهُمَّكَ. بَلْ وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَصِيرَ حُرًّا فَاسْتَعْمِلْهَا بِالْحَرِيِّ. 22لأَنَّ
مَنْ دُعِيَ فِي الرَّبِّ وَهُوَ عَبْدٌ، فَهُوَ عَتِيقُ الرَّبِّ. كَذلِكَ أَيْضًا الْحُرُّ الْمَدْعُوُّ هُوَ عَبْدٌ لِلْمَسِيحِ. 23قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ، فَلاَ
تَصِيرُوا عَبِيدًا لِلنَّاسِ. 24مَا دُعِيَ كُلُّ وَاحِدٍ فِيهِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَلْيَلْبَثْ فِي ذلِكَ مَعَ اللهِ.
25وَأَمَّا الْعَذَارَى، فَلَيْسَ عِنْدِي أَمْرٌ مِنَ الرَّبِّ فِيهِنَّ، وَلكِنَّنِي أُعْطِي رَأْيًا كَمَنْ رَحِمَهُ الرَّبُّ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا. 26فَأَظُنُّ أَنَّ
هذَا حَسَنٌ لِسَبَبِ الضِّيقِ الْحَاضِرِ، أَنَّهُ حَسَنٌ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ هكَذَا: 27أَنْتَ مُرْتَبِطٌ بِامْرَأَةٍ، فَلاَ تَطْلُبِ الانْفِصَالَ.
أَنْتَ مُنْفَصِلٌ عَنِ امْرَأَةٍ، فَلاَ تَطْلُبِ امْرَأَةً. 28لكِنَّكَ وَإِنْ تَزَوَّجْتَ لَمْ تُخْطِئْ. وَإِنْ تَزَوَّجَتِ الْعَذْرَاءُ لَمْ تُخْطِئْ. وَلكِنَّ
مِثْلَ هؤُلاَءِ يَكُونُ لَهُمْ ضِيقٌ فِي الْجَسَدِ. وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُشْفِقُ عَلَيْكُمْ. 29فَأَقُولُ هذَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ: الْوَقْتُ مُنْذُ الآنَ
مُقَصَّرٌ، لِكَيْ يَكُونَ الَّذِينَ لَهُمْ نِسَاءٌ كَأَنْ لَيْسَ لَهُمْ، 30وَالَّذِينَ يَبْكُونَ كَأَنَّهُمْ لاَ يَبْكُونَ، وَالَّذِينَ يَفْرَحُونَ كَأَنَّهُمْ لاَ
يَفْرَحُونَ، وَالَّذِينَ يَشْتَرُونَ كَأَنَّهُمْ لاَ يَمْلِكُونَ، 31وَالَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ هذَا الْعَالَمَ كَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَعْمِلُونَهُ. لأَنَّ هَيْئَةَ هذَا
الْعَالَمِ تَزُولُ. 32فَأُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا بِلاَ هَمٍّ. غَيْرُ الْمُتَزَوِّجِ يَهْتَمُّ فِي مَا لِلرَّبِّ كَيْفَ يُرْضِي الرَّبَّ، 33وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجُ فَيَهْتَمُّ
فِي مَا لِلْعَالَمِ كَيْفَ يُرْضِي امْرَأَتَهُ. 34إِنَّ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالْعَذْرَاءِ فَرْقًا: غَيْرُ الْمُتَزَوِّجَةِ تَهْتَمُّ فِي مَا لِلرَّبِّ لِتَكُونَ مُقَدَّسَةً
جَسَدًا وَرُوحًا. وَأَمَّا الْمُتَزَوِّجَةُ فَتَهْتَمُّ فِي مَا لِلْعَالَمِ كَيْفَ تُرْضِي رَجُلَهَا.
35هذَا أَقُولُهُ لِخَيْرِكُمْ، لَيْسَ لِكَيْ أُلْقِيَ عَلَيْكُمْ وَهَقًا، بَلْ لأَجْلِ اللِّيَاقَةِ وَالْمُثَابَرَةِ لِلرَّبِّ مِنْ دُونِ ارْتِبَاكٍ. 36وَلكِنْ إِنْ
كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ يَعْمَلُ بِدُونِ لِيَاقَةٍ نَحْوَ عَذْرَائِهِ إِذَا تَجَاوَزَتِ الْوَقْتَ، وَهكَذَا لَزِمَ أَنْ يَصِيرَ، فَلْيَفْعَلْ مَا يُرِيدُ. إِنَّهُ لاَ
يُخْطِئُ. فَلْيَتَزَوَّجَا. 37وَأَمَّا مَنْ أَقَامَ رَاسِخًا فِي قَلْبِهِ، وَلَيْسَ لَهُ اضْطِرَارٌ، بَلْ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى إِرَادَتِهِ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى
هذَا فِي قَلْبِهِ أَنْ يَحْفَظَ عَذْرَاءَهُ، فَحَسَنًا يَفْعَلُ. 38إِذًا، مَنْ زَوَّجَ فَحَسَنًا يَفْعَلُ، وَمَنْ لاَ يُزَوِّجُ يَفْعَلُ أَحْسَنَ. 39الْمَرْأَةُ
مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّامُوسِ مَا دَامَ رَجُلُهَا حَيًّا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَ رَجُلُهَا، فَهِيَ حُرَّةٌ لِكَيْ تَتَزَوَّجَ بِمَنْ تُرِيدُ، فِي الرَّبِّ فَقَطْ.
40وَلكِنَّهَا أَكْثَرُ غِبْطَةً إِنْ لَبِثَتْ هكَذَا، بِحَسَبِ رَأْيِي. وَأَظُنُّ أَنِّي أَنَا أَيْضًا عِنْدِي رُوحُ اللهِ».

فيها مؤمنين كليهما. وبولس يعلن إنْ فارقَ غير المؤمن فليفارق، فهو غير مُستَعْبَد في مثل هذه الأحوال. وهنا العَوَص في الأمر، فهل يعني ذلك أن يفارق كلٌّ منهما الآخر من دون أن يسعه الزواج ثانيةً، أم أن يفارق كلٌّ منهما الآخر وبوسعه أن يتزوج من جديد. لعلّه يعني الحالة الأخيرة. ومن الواضح أنَّ بولس يمضي أبعد من رأي يسوع إباحة الطلاق للأسباب الثلاثة المذكورة في الخروج، ولعلّه كان يحاول أن يقارع تفشّي الطلاق السهل على عادة اليونان–الرومان. ولعلّ بولس كان يؤمن حقّاً بما ورد في الخروج لكنه حاول ألاّ يشوّش أتباعه الذين لا يعرفون العوائد والنواميس اليهودية. ومحاولة تثبيط الطلاق هذه تبيّن بوضوح أنَّ الطلاق والزواج من جديد كانا موجودين في الكنيسة الباكرة. وقد حاولت الكنيسة أن تمسك عنانهما لتحول دون وقوف المسيحيين في صفّ الديانات الأسرارية الأخرى الموجودة في العالم المتوسطي فيفقدون بذلك فرادتهم.

العائلة

من بين الدوافع الكثيرة التي كانت تفرض على اثنين أن يتزوجا، فإن الغرض الأكبر من الزواج بالنسبة للغالبية هو إنشاء عائلة وإقامة بيت. وما تعنيه الكلمة الرومانية التي تدلّ على العائلة، Pamilia، شأنها شأن المفردة اليونانية Oikos (بيت؛ فاليونانية القديمة لم تكن لديها مفردة تقابل العائلة)، إنّما يزيد على اتحاد الأبوين–الأطفال، ليطاول البيت بأكمله. وكان هذا النظام قائماً في فلسطين أيضاً. ومن المهم أن نعلم أنَّ الوحدة العائلية كانت أكبر من العائلة النووية. فكان يمكن لعائلة فقيرة أن تضم الأبوين، والأبناء العازبين، وأختاً، وأرملة أخٍ، والجدّة والدة الأم. وكان الدور هنا يتعدّى إعالة العائلة النووية إلى إعالة العائلة الممتدّة القريبة، خاصةً أولئك الذين لا يمكنهم أن يعنوا بأنفسهم، أي النساء العازبات/الأرامل. أمّا في العائلة التي لديها مزيد من الموارد فكان يمكن للأسرة أن تشتمل على قلّة من الخدم، الأحرار والعبيد على السواء، الذين يُعَدّون في العادة بين أفراد البيت. ويذكر العهد الجديد شخصاً هو عبد رئيس الكهنة الذي ضربه بطرس بالسيف حين قُبِضَ على يسوع (يوحنا 18: 10)[1]. وهذا الشخص، وآخرون مثله، كانوا امتدادات للعائلة.

(1) «10 ثُمَّ إِنَّ سِمْعَانَ بُطْرُسَ كَانَ مَعَهُ سَيْفٌ، فَاسْتَلَّهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ الْيُمْنَى. وَكَانَ اسْمُ الْعَبْدِ مَلْخُسَ».

فإذا ما كانوا عبيداً وأُعتقوا بعد ذلك غالباً ما يستمر النظر إليهم كأفراد من العائلة. وكان في البيوت الثرية كثير من الخدم وأفراد العائلة الممتدة الذين غالباً ما كانوا يبقون جزءاً من البيت إلى ما لا نهاية، على الرغم من قدرتهم على إنشاء بيوت خاصةٍ بها، وذلك للحفاظ على مستوى العيش المريح الذي كانوا ينعمون به، وحماية أملاك البيت، وتعزيز سلطة العائلة.

ولم يكن هذا البيت مجرّد عائلة؛ بل إنه يعمل في المجتمع كبنيةٍ اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية. فعلى الصعيد الاجتماعي، تشكّل العائلة جزءاً من وحدة أكبر: هي العشيرة[1] في المجتمع الروماني، والقبيلة في المجتمع اليهودي. وغالباً ما كانت هاتان الوحدتان، العائلة والقبيلة، تجتمعان معاً بغية تبادل العون. وعلى رأس البيت، اليوناني أو الروماني أو اليهودي، يقف الأب، ربّ الأسرة الروماني[2] ، الذي يتمتع بسيطرة مطلقة على كلّ من في بيته. وكانت له سلطة أن يقبل أو يرفض طفلاً وليداً أو عبداً أو زوجة أو خادماً فضلاً عن امتداد هذه السلطة لتطاول أوجه حيواتهم جميعاً. وكانت لربّ الأسرة السيطرة على ممارسات العائلة الدينية. فهو الذي كان يقدّم الأضاحي في روما الوثنية. وهو الذي كان يُجري العدل العائليّ؛ والحقيقة أنّه كانت لديه في الأصل سلطة قتل أفراد العائلة. وبوفاته كان أبناؤه الراشدون ينالون حصصاً متساوية من أملاكه ويغدو كلٌّ منهم ربّ أسرة بدوره. وبمرور الوقت غدت سلطة ربّ الأسرة محدودة. ففي الجمهورية الرومانية احتفظ الجنود العائدون بما رجعوا من أسلاب واستخدموه للاستقلال عن سلطة ربّ الأسرة المتجبّر. وزال كذلك ما كان لربّ الأسرة من سلطة قتل أفراد العائلة. غير أنَّ سلطة الأب حافظت على أهميتها في زمن العهد الجديد، خاصةً من كان ينعم بالثروة والقوة.

وفي العالم القديم كانت النواميس والعوائد تحابي الرجل. فالزنا في المجتمع الروماني واليوناني، وإلى حدّ بعيد اليهودي، لم يكن جريمة إلا من طرف المرأة. فكان الرجل حرّاً في أن ينغمس في العلاقات التي يشاء، وكان بمقدور السادة أن يفعلوا ما يشاؤون بالإماء في بيوتهم. أمّا المرأة، إن فعلت ذلك، فيمكن أن تُقْتَل أو أن تُغَرَّم، بعد زمن الإمبراطور

(1) gens

(2) paterfamilias

أغسطس، تبعاً لدوطتها. ولم يغد الزنا جريمةً بالنسبة لكلا الجنسين على حدٍّ سواء إلا في عهد قسطنطين. وكانت مثليّةُ الجنس قائمة، خاصةً في العالم اليوناني والروماني، وأقلّ من ذلك في العالم اليهودي، ولم تكن تُجَرَّم، وكان الغلمان في البيوت الغنية يخضعون لملذّات سيّدهم.

وعلى الصعيد السياسي، كانت العائلة أساس السلطة السياسية ضمن المجتمع. ففي حين يشيع الآن أن يقف المرء مع حزب سياسي معين، فإنّه كان في المجتمع القديم يقف إلى جانب وجهات نظر عائلته. وقد نجم هذا في جزءٍ منه عن مؤسسة الرعاية. فخلال الجمهورية وأوائل الإمبراطورية كان الأفراد الأثرياء، ليس في روما وحسب بل في أرجاء العالم الروماني، يمارسون الرعاية، حيث يكون لدى الفرد الثريّ تشكيلة من الأتباع الذين يدعمون مساعيه السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، مقابل إعالتهم. ولقد أَنْتَجَت مؤسسة الرعاية هذه نظاماً ترابط فيه جميع الأفراد معاً لضمان اشتغال المجتمع. وكان يمكن للعلاقة بين التابع والسيد أن تكون كثيرة الخصام أو وادعةً تبعاً للأفراد والأوضاع. فالأتباع تربطهم علاقة شخصية، الأمر الذي عمل بدوره على جعل الأفعال السياسية شخصيّة. ولذلك عندما يقرأ المرء عن الهيرودسيين، فإنَّ ذلك لا يعني تماماً حزب هيرودس بل يمكن أن يعني أيضاً أتباعه وأتباع عائلته، وأولئك الذين يتبعون هيرودس بسبب رعايته.

أمّا من الناحية الاقتصادية، فقد شكّلت العائلة أيضاً الأساس الاقتصادي للمجتمع. ففي العالم القديم، وكما يَظْهَر في العهد الجديد، كان ثمّة تشكيلة من القوى الاقتصادية التي تركت أثرها على العائلة. فمعظم السكّان، حوالي 75٪، كانوا منخرطين في الزراعة، إلا أنّه كان هنالك باعة وصنائعية وعمّال مهرة وحرفيون. وكانت العائلة في معظم هذه الحالات المركز الاقتصادي لهذه المهن. ومهما تنوّع حجم المزارع، فإنَّ عائلةً هي التي كانت تتحكّم بها وتديرها. حتى الضيِّع الكبيرة تملكها عائلة، ولو أدارها آخرون. ومع أنَّ فكرة الشركة الضخمة التي تدير مشروعاً زراعياً كانت موجودة إلا أنّها لم تكن معتادة. وكانت العائلة، كما تشهد برديات كثيرة وُجِدَت في مصر، تحتفظ بحسابات مفصَّلة خاصةً بتسيير الضيعة أو المزرعة. وغالباً ما كانت دفاتر الحسابات هذه تضع قائمةً بمعاملات المزرعة المتوقّعة، والبضائع المباعة والمشتراة، ومواد التصدير، والجزيات المدفوعة. وغالباً

ما تُسَجَّل معاملات أخرى يمكن للقارئ الحديث أن يجدها لافتةً: دفع الرِّشى للجنود، شراء خدمات الراقصات وسواهن، ومعالجة مشكلات عارضة مثل دخول الماشية في حقول الآخرين واللصوص، وحتى تعرّض الخدم لهجوم. ولم تكن المزارع الصغيرة تخلو من حسابات تبيّن مثل هذه الأمور إنما على مقياس أصغر. وكان أصحاب المزارع الصغيرة يعانون من ملاك الضيّع الكبيرة الذين يحاولون ابتلاعهم.

الأطفال

عادةً ما كان إنجاب الأطفال واحداً من أهداف الزواج الكبرى. وعلى الرغم من ترتيب زيجاتٍ لم يكن الإنجاب فيها ذلك الغرض الرئيس، فإنَّ الشركاء في معظم الزيجات كانوا يأملون مجيء الأطفال. ومع أنَّ عمليات الإجهاض كانت موجودة إلا أنّها كانت مُستَنْكَرة على نطاقٍ شامل بل ومُحَظَّرَة. وفي زمن العهد الجديد، كانت المشاعر اليهودية، وبعدها المشاعر المسيحية، تناوئ الإجهاض. وكان مَنْع الحمل يُمارَس أيضاً وإنْ يكن من غير نجاحٍ كبير. وعلاوةً على الشرابات والمواد الموضعية والمستحضرات التي ترمي إلى منع الخصوبة، كانت تُستَخْدَم أيضاً طريقة الامتناع عن معاشرة المرأة في فترة الخصوبة والرُّقى، وإنْ يكن من غير غَنَاءٍ كبيرٍ في العادة.

وكان مولد الطفل ذلك الحدث الخطير، ليس على الطفل وحسب بل على الأم أيضاً. وكانت يجري استدعاء القابلات على نحوٍ منتظم لمساعدة المرأة في الوضع. وفي معظم العائلات كانت الأم هي التي ترضع الطفل؛ لكن العائلات الثرية تعمد إلى استخدام مرضعةً، غالباً ما تكون أَمَةً. وبعض العائلات لم تكن تريد أطفالاً، فكان قَتْل الأطفال ممارسةً مقبولة. وكان من الطرائق العارضة أن يُطْرَح الوليد في كومة نفاية؛ فإذا أنقذه أحدٌ ما، كان بمقدوره أن ينشئه كعبد لديه أو كولد من أولاده. وكان مباحاً أيضاً بيع الأبناء غير المرغوب فيهم، مع أنَّ هذه الممارسة حُدَّ منها بقوة في القرنين الثاني والثالث الميلاديين. غير أنَّ التطلّع إلى إنجاب الأطفال كان الأَشْيَع، على الرغم من كلِّ هذا.

وكانت الحياة العائلية متركّزةً على مكانة العائلة الاجتماعية وضروب تفاعلها مع الآخرين. وفي القمة كانت الصفوة، إذ يُنتَظَر من الزوجة أن تنجب الورثة، أما أبعد من هذا الواجب فكانت تنشئة الأطفال في عهدة العبيد والخدم. فالأباطرة والملوك وكثير

من النبلاء لم يكن لديهم في الغالب وقت يكرّسونه للصغار. وكثيراً ما نتصوّر في المجتمع الحديث أنَّ فلسفتنا وممارستنا الراهنة حيال الأطفال إنّما تعود إلى العالم القديم. غير أنّه محلّ شكّ أن تكون والدة الإسكندر العظيم، أولمبيا، قد أمضت بأيّ معنى فعليّ من المعاني كثيراً من الوقت مع فاتح المستقبل، لكنَّ كثيرين يرون أنَّ أفعاله وخياراته تضرب بجذورها عميقاً في سيطرتها عليه، وكأنّها كانت الشخص الرئيس الذي بذل له الرعاية. وبالمثل، لم يكن عدد أفراد الصفوة الذين ينكبّون على تنشئة الأطفال بالعدد الكبير في القرن الأول الميلادي. أمّا حياة العائلة من الطبقة الوسطى فكانت مختلفة. فهنا كان تماس الأم والأب مباشراً أكثر، وكانت ضروب التفاعل والاحتكاك شائعة أكثر، نظراً لِصِغَر حجم العائلة وقلّة عدد الخدم والعبيد في بيتٍ متاحٍ للجميع. ومع أنَّ الطفل كان يُرْضَع ويُعنَى به من قبل بديلةٍ للأم، فإنَّ الوالدة والوالد كانا في تماس يوميّ معه. أما في العائلة الفقيرة، فظلّت الحياة على حميميتها، حيث تُعنى الوالدة والوالد بالطفل تلك العناية المباشرة.

ولطالما كان الإنجاب وظيفة الزواج الأساسية إذْ يتيح استمرار السلالة العائلية وعمود النَّسَب. ومع أنَّ معدل وفيات الأطفال كان مرتفعاً، فإنَّ معظم العائلات كانت تسعى إلى إنجاب عديدٍ من الأولاد. وكان يُنتَظَر من هؤلاء، حين يكبرون بما يكفي، أن يعملوا في مزرعة العائلة أو صنعتها. وكان معظمهم يتلقى تعليماً أوليّاً، عادةً ما يتوقّف على وضعهم المجتمعي ودخلهم. فالنظام التعليمي كان رفيعاً بالنسبة للعائلات الأشدّ ثراءً. وعادةً ما كان لدى الطفل معلّمٌ، سواء كان عبداً أو حرّاً، يعلّمه القراءة، والكتابة، والمنطق. وكان بعض التلاميذ يكتفون بهذا وحسب، في حين يواصل بعضهم الآخر دراساتهم، خاصةً في مجال الخطابة والقانون. وفي تلك العائلات اليهودية التي كان يبدو فيها صبيٌّ ما واعداً أو تريد عائلته أن يتعلّم مزيداً من التعلّم الاختصاصي، كانت فرصة التعلّم لدى الحاخامات قائمة. وفي حين يواصل بعض التلاميذ التعلّم في الأمور الدينية، كان آخرون يتعلّمون مهنة عائلتهم أو أصدقائهم. وهذا التدريب، خاصةً على الأمور التجارية، غالباً ما يتطلّب معرفةً بطرق التجارة (الجغرافيا)، واللغات والعوائد (التفاوض)، والمنتجات النوعية (التصنيع). فمثل هذا التدريب القائم على التجربة والخبرة كان حاسماً إذا ما أراد التلميذ الفَلاح.

المنازل والعبيد

حظيت العائلات الثرية في فلسطين بمنازل مؤلّفة في العادة من ثلاث حجرات تشكّل فيما بينهما حرف U، مع فناء تفضي إليه الحجرات جميعاً وبوابة تُغلَق على الفناء وتحمي المنزل. وهذه المنازل، التي كانت على ارتفاع طابقين، توفّر حجرات العائلة وحيواناتها ومؤنها. أمّا منازل العائلات الفقيرة فكانت صغيرة في العادة، تتراوح حجراتها بين الحجرة الواحدة والستّ حجرات، التي يستخدم كثيرٌ منها استخداماً مضاعفاً للمعيشة والنوم. ومع عيش أجيال متعددة في المنزل ذاته، كانت العائلات تنفق كثيراً من وقتها على وضع الحدود. وفي النهار يكون معظم العائلة خارجاً يعملون في الحقول أو في دكاكينهم. أمّا على الطعام وفي الليل فكانت الفرصة أكبر للاجتماع والتقرّب.

وفي زمن العهد الجديد، لم تكن العبودية قائمة وحسب بل مقبولةً أيضاً، كما تشهد كتاباتٌ من القرن الميلادي الأول. فالعبودية كادت أن تكون موجودة في أجزاء الإمبراطورية جميعاً. ولقد ازداد توريد العبيد في عهد الجمهورية ذلك الازدياد المطّرد، خاصةً بعد الحرب البونيّة الثانية (218–204 ق.م) حين ضمّت روما أصقاعاً واسعة من الشرق. وبعد فتح يوليوس قيصر بلاد الغال وانتهاء الحروب بين أنطوني وأوكتافيان، قلَّ توريد العبيد من الفتوح. وقد سبق لكتّاب رومان، خاصة كاتو الأكبر (نحو 150 ق.م)، أن وقفوا ضد تكاثر العبيد لأنّ أثمانهم رخيصةً جداً. غير أنّه مع تدهور عدد العبيد الناجمين عن الحروب، غالباً ما كان الملاّك يسمحون لهم بالتكاثر. وعلى الرغم من وقوع بعض الحروب التي دخل فيها عبيدٌ جدد إلى السوق، خاصةً التمرد اليهودي عام 66م، فإنَّ معظم العبيد كانوا ناجمين عن التكاثر والقَرْصَنَة.

والمسيحية، كما تُرى في العهد الجديد، لم تَدْعُ إلى إلغاء العبودية، التي كانت شائعة في العالم القديم ومتوقَّعة. فعلاوةً على الأَسْر في الحرب، كان يمكن للمرء أن يغدو عبداً بطرقٍ متنوعة عديدة: كأن يولد لعبد، أو ينبذه أبواه فيُرَبَّى كعبد، أو يكون مجرماً. وعلى الرغم من الفَصْل بين العبودية والحرية، إلا أنَّ الشروط التي تفصل بين الفقراء والعبيد لم تكن تلك الشروط المتباعدة كثيراً. ولقد حظي العبيد ببعض الحماية القانونية، خاصةً زمن الإمبراطورية. فلم يكن بالإمكان قتلهم تبعاً لأهواء سيدهم، الذي عليه أن يقدّم سبباً لمشيئته أن يموت العبد. وكان بمقدور العبيد أيضاً أن يشتروا حريتهم، وقد مُنِحَ كثيرون

هذه الحرية. وغالباً ما كان السبب في هذه الحرية أنَّ السيد لا يريد رعاية هؤلاء العبيد في شيخوختهم، وهي ممارسةٌ منعها الإمبراطور أغسطس، لأنها تؤدي إلى زيادة فقراء المدن الذين يمكن أن يلجأوا إلى الأنشطة الإجرامية من أجل بقائهم. ومع ذلك، فإنه حين كان يُعْتَق عبدٌ، كان يُعْتَق معه أبناؤه المقبلون أيضاً.

وكان العبيد موجودين عبر الطيف الاجتماعي بأكمله. فبعض العائلات الفقيرة كانت تتدبّر أَمْرَ عبدٍ واحدٍ يساعدها في أعمال الحقل، في حين كان يمكن أن يكون لدى الأفراد الأثرياء آلاف العبيد. وكان العبيد يُستَخْدَمون أيضاً في مجال واسع من الأعمال. فيؤدّون مهام كثيرة لا بدَّ من تأديتها في عصرٍ لم يكن قد عرف الآلات. وعلى سبيل المثال، فإنَّ العبيد كانوا يقومون بالعمل الضروري في الزراعة والبناء والأشغال المنزلية. وقد شكّل عملهم جزءاً أساسياً من الاقتصاد. وتمتع العبيد الذين يعملون في الحقول بأقلّ قَدْرٍ من الحماية وفرص الانعتاق وكان يُنْظَر إليهم كما ينظر إلى دواب الحَمْل. ولدى عملهم في الضِّيَع، كانوا يُضْرَبون ويُجْبَرون على الكدح والشقاء طوال العام. ومثل الذين يعملون في الحقول كان أولئك الذين يعملون في البناء. فهؤلاء العبيد كانوا يؤدّون مهامّ خطرة في عملهم على الطرقات، والجسور، والأبنية، وغالباً ما كانت حيواتهم عرضةً للخطر. أمّا عبيد المنزل فلديهم أقصى فرص الانعتاق. وكانوا يُستَخْدَمون في المطابخ أو التنظيف أو رعاية الأطفال وسواها من المهام القريبة. وكان عبيد المنزل هؤلاء أساسيين في تسيير أمور العائلة. وغالباً ما لعبوا الدور الرئيس في العناية بالأطفال. ولم تكن سلامتهم تتعرّض للأخطار في العادة، لكنهم كانوا أكثر عرضةً لمراقبة أسيادهم. وأسوأ مصير يمكن أن يواجهه العبيد هو مصير المجرمين الذين يخصّصون للألعاب والمناجم، حيث تكون فرص نجاتهم في كلتا الحالتين تلك الفرص الهزيلة.

المدن والبلدات والقرى

كانت العائلات اليهودية تعيش في أوضاعٍ شتّى. فقد كانت هنالك مدن كوسموبوليتانية كبيرة مثل روما وأثينا وكورنثوس وأفسس والإسكندرية وقيصرية. أما المدن اليهودية الكبيرة فقليلة لكنَّ من بينها أورشليم، الأهمّ بين المدن اليهودية جمعاء. وما كان أهمّ من المدن الكبيرة هو المدن الصغيرة والقرى والبلدات المنتشرة في أرجاء فلسطين. وكان بين

هذه المناطق ثمّة فروق تركت أثرها على العائلات.

كانت القرى والبلدات الصغيرة أشبه بنقاط منتشرة تنقّط الريف في أرجاء العالم القديم. ولم يكن في هذه الأماكن كثيرٌ من السكّان، وغالباً ما تشتمل على بضع طبقات اجتماعية، خاصةً الفلاحين، إلا أنّها كانت توفّر للمناطق المحيطة سوقاً جاهزةً وموردأً للعمل. فالقرية غالباً ما كانت تؤوي الفَعَلة الذين يزرعون الحقول ويمدّون السوق المحلي حيث تُشرى السلع الزراعية وتُباع. وإضافةً إلى الفعلة الزراعيين، كان في القرية أيضاً بعض الصنائعية، كالنجّارين والحدادين والحجّارين فضلاً عن البغّالين وسواهم من المُكارية. وكانت القرية أيضاً نقطة لجمع الجزية ونَشر المعلومات الحكوميّة. أمّا البنية الاجتماعية في القرية فتشتمل بصورة أساسية على الفلاحين من الطبقة الدنيا، وبعض تجار الطبقة الوسطى وأصحاب الدكاكين والكتبة والموظفين الدينيين وربما عائلة من الصفوة. ولم يكن في جميع القرى عائلات من الطبقة العليا، بل ربما في قرية هنا أو هناك، خاصةً إذا كانت هذه العائلة قد رأت ثروتها تزداد بمرور الوقت وترغب في أن تبقى في أرض آبائها.

وكان ثمّة قرى كبيرة أو بلدات صغيرة مُنْدَخِلَةً بين القرى الصغيرة ومُفْسِحَةً مجالاً لمزيدٍ من التخصص. وعلى سبيل المثال، فإنّه قد لا يكون ثمّة نجّار في قريةٍ ما لأنّ هنالك واحداً يعيش في بلدةٍ صغيرة قريبة. وكانت البلدة أيضاً تعمل كسوق للمنطقة حيث يمكن لسكّان القرى الصغيرة أن يحصلوا على المواد التخصصية أو السلع الكمالية. وكان في هذه البلدات مزيد من حضور الطبقة الوسطى وحضور الحكومة ومزيد من بروز الوظيفة الدينية. ففي زمن العهد الجديد، كان في البلدات مجامع يرتادها سكان القرى المحيطة.

وبخلاف البلدات، التي عادةً ما تكون محدودة الحجم والمرافق، كانت المدن توفّر لسكّانها وسكان المنطقة المحيطة مزيداً من الفرص. وقد اشتملت هذه الفرص على أسواق واسعة، وتشكيلة من البشر والثقافات، وأشكال جديدة ومتنوعة من التسلية، ومزيدٍ من التوزّع الاجتماعي. ففي المدن الهلنستية الكبيرة، مثل قيصريّة، كان ثمّة مكوّنات يونانية مثل المسرح والسباقات والمعابد الوثنية؛ وعناصر يهودية مثل المجامع والمدارس الحاخامية؛ وخصائص مميّزة لأيّة مدينة كبيرة كالتنظيمات الحرفية ومرافق الشحن والمخازن والأسواق؛ وأخيراً كان ثمّة مكوّنات ملكية: لأنَّ هيرودس الأكبر كان قد بنى هذه المدينة كعاصمة له، فقد كان فيها قصر استخدمه الوالي الروماني لاحقاً. ولقد

رمت هذه المدينة إلى أن تتيح للسكان المحليين اليهود واليونانيين فرصة العيش معاً على نحوٍ كوسموبوليتاني. لكن ذلك لم ينجح على الدوام، لأنَّ هاتين الجماعتين غالباً ما كانتا على خلاف واحدتهما مع الأخرى. وفي بعض الأحيان كانت تنشب نزاعات عارضة، فلا تلبث أن تنتشر وتتحول إلى شغب وعنف. لكن هذه المدن كانت تتيح أيضاً استيراد الأفكار والبضائع والبشر من أراضٍ نائية ومختلفة عن الثقافة اليهودية المحلية والثقافة اليونانية المستوردة. فقد كان في هذه الثقافة عناصر من كلتا الثقافتين في نوعٍ من التآزر الذي غالباً ما كان علامة مميّزة للعالم القديم.

علاوةً على المدن الكوسموبوليتانية، ثمّة في العهد الجديد أيضاً تلك المدن والبلدات اليهودية المميّزة، وأهمها أورشليم. فعلى الرغم من محاولات الملوك اليونانيين في سوريا في العهد الهلنستي (300—150ق.م) نَقْل الأفكار اليونانية، فإنَّ السكّان اليهود المحليين قاوموا هذا النقل جملةً. ومحاولة هيرودس الأكبر نَقْل الأفكار اليونانية، تلك المحاولة الواضحة في حصن أنطونيا، أثارت ردّة فعل سلبية، لأنَّ الحصن كان أعلى من هيكله. بل إن الثقافة الهلنستية أثارت أسوأ ردّات الفعل في هذه المدينة، لأن أورشليم كانت العاصمة الدينية لليهودية. وكان بمقدور السلطة السياسية والدينية اليهودية المحلية، رئيس الكهنة والسنهدرين، أن تمارس على المدينة ذلك التأثير الهائل. ولم تكن عادة الولاة الرومان أن يقيموا في المدينة، لأنها لم تكن يونانية ولم يكن بوسعهم أن يستمتعوا أو يرتقوا بأنشطتهم العامة المعتادة، خاصةً الألعاب. يضاف إلى ذلك أنَّ السلطات الرومانية لم يكن بمقدورها تأدية شعائرها الوثنية، التي كانت تتشكّل أساس الدولة الرومانية.

وفي المدن الكبيرة كان السكّان منقسمين إلى طبقات اجتماعية تمثّل الطيف الاجتماعي. وشكل الفقراء السواد الأعظم من السكان، وقد انقسموا إلى أولئك الذين يعملون في المدينة وأولئك الذين يعيشون في المدينة لكنهم يعملون في المنطقة المحيطة. وكان لقاطني المدينة الذين يعملون فيها مهنهم المتعددة، التي تراوحت من العمل اليدوي إلى الوظائف المتخصّصة. فإذا ما صعدنا إلى أعلى في السلم الاجتماعي وجدنا أولئك المنكبّين على التجارة. وبين هؤلاء ثمة الباعة وأصحاب الدكاكين والصيارفة والحرفيون. وأخيراً، في القمة، ثمة الصفوة أو النخب، المنقسمة بالمثل إلى جماعات مختلفة تتراوح بين

محدثي النعمة والنخب التقليدية. وكان بمقدور النخب أن توفّر للمدينة الاستقرار وبعض الحماية.

ووجدت في المدينة أنماط عديدة من السُّكْنى، ومنها المساكن التي تعيش فيها الجماهير الواسعة. ومع أنَّ هذه المساكن كانت أكثر شيوعاً في روما، إلا أنها كانت موجودة في أرجاء العالم القديم؛ وكانت في العادة مؤلَّفة من طبقات عدّة فيها شقق فردية متعددة في كلٍّ منها حجرة أو حجرتين. وكانت هناك منازل العائلات المفردة، التي تنوّعت في أحجامها تبعاً لثروة أصحابها. وهذه البيوت، متعددة الطبقات في العادة، لعلّها كانت تشتمل على فناءات ونوافير وسوى ذلك من التوابع مثل الإصطبلات والمخازن والورش. وكان ثمّة مبانٍ رحيبة كالقصور تعيش فيها أُسَرٌ عديدة معاً، ولم تكن توفّر ضروريات الحياة وحسب بل كثير من اللطائف الأخرى.

وفي المدن غير اليهودية مثل قيصرية وأفسس وأثينا وأنطاكية، تلك الأماكن التي زارها بولس وسواه من المبشّرين المسيحيين الأوائل في القرن الأول الميلادي، كانت المباني اليونانية والحياة اليونانية شائعة. ولم يكن اليهود والمسيحيون من بعدهم سوى أقلية صغيرة بين السكّان، وكان التأثير الكبير هو تأثير الثقافات اليونانية والهلنستية والرومانية. وكانت الحمّامات والمسارح وميادين النزال ومضامير السباق والمعابد الوثنية من السمات المميِّزة. وفي أواسط القرن الأول الميلادي الأول خطط هيرودس أغريبا لإعلان سلطانه في فلسطين ليس في أورشليم، بل في مدينة قيصرية يونانية الطراز حيث يمكن للسكان غير اليهود أن يناصروه. وبالنسبة للزوار الرومان كانت المدن اليونانية أشدّ راحة من المدن اليهودية كمدينة أورشليم.

ومع خراب أورشليم ومعظم الريف خلال الحرب اليهودية الكبرى وحرب ثلاثينيات القرن الثاني الميلادي، تغيّرت المدن وحياة المجتمع المعتادة. فلم تعد أورشليم مجرد مدينة يهودية، بل غدت بعد العام 135 رباطاً رومانياً، أو مدينةً فيها حامية رومانية ومعبد لزيوس في موضع هيكل هيرودس. وغدت فلسطين أقلّ يهوديةً في منظرها وأشبه بمناطق سوريا وآسيا الصغرى.

ومع نهاية القرن الأول كانت المدن اليونانية والرومانية قد حلّت محلّ المدن اليهودية. وعزّز هذا الحلول انتقال الحياة اليومية بعيداً عن الحياة اليهودية الفلسطينية نحو الثقافة اليونانية–الرومانية. وقد أدّى هذا الانزياح في النهاية إلى تلك التغيرات الواضحة في

الحياة اليومية بعيداً عن الناموس الحاخامي والحياة الحاخامية باتجاه ناموس جديد وحياة جديدة يرتكزان على المؤثّرات والتقاليد المحلية.

سيرةُ بولس

وُلِد بولس الطرسوسي، واسمه عند الولادة شاول، مواطناً رومانياً في طرسوس كيليكيّة، وابناً ليهودي من سبط بنيامين، وكان يعرف اليونانية والآرامية. وبوصفه يهودياً متهلّناً، كان حليف الفرّيسيين، خاصةً أنه تعلّم لدى غَمَالائيل. وكان قد ناوئ المسيحية في البداية بل ولعب دوراً في استشهاد استفانوس. وقد تقدّم إلى رئيس الكهنة طالباً الإذن في اضطهاد أتباع يسوع في دمشق. وحين كُلِّفَ بهذه المهمة انطلق باتجاه دمشق، حيث أَعْماه يسوع، كما يقول، وأَمَرَهُ أن يدخل دمشق حيث يجد حنانيا الذي يُبْرِئه ويعمّده كواحد من أتباع يسوع. وقد مضى إلى جزيرة العرب حيث بقي ثلاث سنوات ثم عاد إلى دمشق قبل أن يذهب إلى أورشليم.

وفي أورشليم التقى برنابا ولقي قبولاً لديه ثمَّ لدى بقية تلاميذ المسيح الذين خافوا ولم يصدّقوا في البداية. وسافر بولس مع برنابا إلى قبرص، موطن برنابا، حيث بدأ دعوته. ثم ارتحلا كلاهما إلى آسيا الصغرى في الداخل، حيث أسسا كنائس في أنطاكيّة بِسيديّة، وإيقونيّة، ولِسْتْرَة، ودَرْبَة. ثم عادا إلى أورشليم، حيث كانت أول مباحثة حول قبول غير اليهود. وبعد أن وافق الرُّسُل على إباحة قبول غير اليهود أتباعاً للمسيح من غير ختان، سافر بولس إلى أنطاكيّة، حيث حُسِمَ الأمر تماماً. ثم افترق بولس وبرنابا، وارتحل بولس ثانيةً، مع سيلا وتيموثاوس، في آسيا الصغرى إلى غلاطية ثم إلى اليونان. وهناك أسس بولس كنائس في مكدونية في فِيلبِّي وتسالونيكي وبيريَّة. ولأنّه لم يحرز أي نجاح في أثينا، فقد مضى إلى كورنثوس، حيث أسّس كنيسة ناجحة والتقى أكيلا وبريسكلا من روما، اللذين كان الإمبراطور كُلُوديوس قد أمر بنفيهما مع مُهوِّشين يهود (لعلّهم مسيحيون)، ليعود ثانيةً إلى آسيا الصغرى إلى أَفسُس، حيث كتب رسالتيه إلى أهل كورنثوس، الذين كانوا يعانون من شقاق داخليّ.

وبعد مغادرة أفسُس عاد بولس إلى أورشليم، حيث حبسه الوالي الفاسد فِيلكِس، على أمل أن ينتزع منه ومن سواه المال لقاء إطلاقه. ومع وصول الوالي الجديد، فَسْتُوس، رفع بولس دعواه إلى قيصر لأنّه كان مواطناً رومانياً. وبعد رحلةٍ بحريةٍ شاقة، تحطّمت فيها السفينة في مليطة (مالطا)، وصل بولس إلى إيطاليا حيث وُضع في روما تحت الإقامة الجبرية مع حارس من العسكر البريتوري مدّة سنتين. وبعد أربع سنوات أو خمس من الحبس، أُطْلِق بولس، ربما بعفوٍ من نيرون. ولعلّه عاد إلى الشرق، فليس ثمة سوى حكاية متأخّرة وغير متماسكة عن سفره إلى إسبانيا، قبل أن يعود إلى روما. وهناك أوقف من جديد، ربما في صلةٍ مع الحريق والاضطهاد العام، حيث قُتِل.

الفصل التاسع

الاحتلال الروماني

«فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ:
«لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟ أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ». فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا. 20فَقَالَ لَهُمْ:
«لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» قَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ
لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ»

(متّى 22: 17-21)

روما وفلسطين

اجْتُذِبَت روما إلى فلسطين والمنطقة عبر سلسلة من الحوادث ترجع إلى العام 179 ق.م. ففي أواخر الجمهورية، واجهت روما تهديد أنطيوخس الثالث السوريّ ومحاولته السيطرة على اليونان. وبهزيمة أنطيوخس، أدركت روما أنَّ من الممكن استخدام قوى أخرى للتخلص من قوة سوريا ونفوذها. ولقد تمثّلت واحدةٌ من هذه القوى في اليهود، الذين كانوا يلجّون في طلب الاستقلال. فدعمت روما هذا الطلب لما كان ينطوي عليه من زعزعة سوريا. غير أنَّ تورّط روما هذا راح يجرّها أكثر فأكثر إلى مشكلات فلسطين الداخلية.

وبعد وفاة هيرودس الأكبر وإحلال ابنه أرخيلاوس محلّه، غدت روما متورطة ذلك التورّط المباشر حين طلبت السلطات اليهودية من الإمبراطور أغسطس أن يعزل أرخيلاوس. ومع أنَّ ذلك ساعد على حلّ بعض المشكلات الداخلية والاستراتيجية، إلا أنّه كشف على حين غرّة مجموعة كاملة من القضايا الجديدة. وباتت روما قوة احتلال ومعها كلُّ ما يرتبط بذلك من ملابسات سلبية.

وأمر الإمبراطور باكتتابٍ أو تعداد، وهو إجراء معتاد لدى ضمّ مقاطعة جيدة، ليس لإحصاء السكّان وحسب بل أيضاً لتحديد ما تحوزه هذه المقاطعة من قوة اقتصادية. وقد أدّى ذلك بدوره إلى شغب وعنف. فهذا الاكتتاب وما رافقه من سياسات تتعلق بالجزية

جعل من روما عدوّة السكّان المحليين. ويمكن أن نرى مدى الخصومة التي أثارتها قضية الجزية في القصة التي يوردها العهد الجديد حيث يُسْأل يسوع عن جواز إعطاء الجزية لقيصر (متّى 22: 17—21). فهذا السؤال كان محاولة لدفعه إمّا لأن يقول بجواز ذلك، فيُرَى عندئذٍ كعميل لروما ويفقد مصداقيته لدى عامة اليهود، أو لأن يقول بعدم جوازه، فيراه الرومان كخائن. ذلك أنَّ إعطاء الجزية أو عدم إعطائها كان ذلك الأَمْر الهام الذي يلتفّ حوله كلٌّ من المخالفين للرومان والمتساهلين معهم. ولطالما تنازعت السلطات الرومانية مع عامة اليهود حول دفع الجزية.

قيصريّة

بخلاف معظم المقاطعات، كان لروما في فلسطين وَضْعٌ محفوف بالمخاطر زمن العهد الجديد نظراً للخصوصيات الدينية التي يتّسم بها التوحيد. فبخلاف المقاطعات الأخرى حيث يمكن للديانة الرومانية أن تمتزج بالديانات المحلية، قاومت فلسطين واليهودية هذا التشابك. وهذا ما أجبر روما على أن تغيّر ممارساتها المعتادة في حكم المقاطعات. ففي جميع المقاطعات، كان الوالي الروماني يقيم في عاصمة المقاطعة. وكانت العاصمة في كثيرٍ من المقاطعات هي المدينة الأكثر أهمية. وفي فلسطين كانت أورشليم هي المدينة الأهمّ، لكن العاصمة كانت مدينة هيرودس الأكبر الهلنستية قيصريّة. وكانت هذه مدينة يونانية وعلى الساحل، مما منحها حسّاً كوسموبوليتانياً وتطلّعاً إلى خارج فلسطين. وقد اتاحت للحاكم العيش في مدينة يونانية تحوي جميع المرافق المألوفة والمريحة.

وضمّت هذه المدينة ميناءً عميق المياه، هو الميناء الوحيد في فلسطين. وكان في هذا الميناء مرفأ داخلي وآخر خارجي، مما أتاح له أن يعمل مهما اختلف الطقس. وبحسب يوسفوس المؤرّخ، فإنَّ هيرودس انتصر على الطبيعة، لكن في هذا الزَّعم بعض المبالغة، لأنَّ الميناء الخارجي ظلّ يعاني من مشكلات جوهرية في أواخر القرن الأول الميلادي. وفي غضون 12 عاماً جَدَّد هيرودس المدينة، واشتمل ذلك على بناء قناطر خيريّة، وقصر، ومضمار لسباق الخيول/العربات، ومدرّج لمباريات المصارعة. وقام القصر على رأس بَرٍّ ممتدٍّ في البحر، وضمّ بركة ذات مماشٍ معمَّدة ومسقوفة. وصار هذا القصر مقرّ إقامة الوالي بعد سيطرة الرومان. أمّا السكّان الذين ارتفع عددهم إلى ما يقارب 100000، فقد توزّعوا

بين اليونان واليهود، الأمر الذي غالباً ما أفضى إلى مشكلات خطيرة.

وقد فضّل الرومان المدن الهلنستية على المدن اليهودية، بما في ذلك أورشليم، التي كانت مدينة كبيرة متعددة الإثنيات. فأورشليم هي مرتع للاضطراب. وأدركت روما أنَّ حضوراً ضخماً ومتواصلاً لجنودها في المدينة سوف يفاقم الوضع القائم على ضروب الاختلاف الديني ويزيده سوءاً. ولم يتفهّم معظم الولاة الرومان وَضْع يهودا. ولم يكونوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم فاتحون وحسب، بل على أنهم متفوقون في الفكر والقانون والثقافة. وغالباً ما أدّى هذا التفوق إلى الغطرسة.

وكانت غطرسة الرومان مشهورة. ففي الغرب، في ألمانيا، أَفْضَت هذه الغطرسة إلى الكوارث العسكرية التي اقترفها في العام 9م الوالي كُونتيليوس ڤاروس، الذي اعتقد بعد 25 عاماً وحسب أنَّ القبائل الجرمانية قد «هدأت». وكان معنى ذلك عند ڤاروس أنهم باتوا مهيّئين لتقبّل القانون الروماني والجزية الرومانية. وحين حاول أن يفرض هذه التهدئة، مُحِقَ مع فرقه الثلاث وأضاعت روما ألمانيا. واللافت أنَّ ڤاروس كان والياً على سوريا واشتهر بسلوكه الجشع في فلسطين. أمّا في بريطانيا فقد أدّت هذه الغطرسة الرومانية إلى تمرد القبائل المحلية في عهد نيرون بقيادة ملكة محلية تُدعَى بوديقا. وقد بدأ هذا التمرد حين أَبْطَلَت روما مشيئة زوجها، الذي أراد أن تكون السلطة مشتركة بين روما وبينها؛ فاستولى الرومان على المملكة، وضربوا بوديقا، واغتصبوا بناتها. وهذا ما دفع بدوره إلى التمرد.

وفي فلسطين أيضاً لم تتمكن روما قطّ من فَهْم الأمور على النحو الصحيح. فمنذ البداية نزعت سياسة الرومان إلى السير بعكس مشاعر اليهود. وعلى سبيل المثال، فقد رفعت هيرودس إلى سدّة العرش. وفي حين أَفْلح هذا الأخير في أن يدرأ الشرق من روما، إلا أنّ قسوته، حتى بمقاييس الإمبراطور أغسطس؛ كانت تلك القسوة المتطرفة. وبعد وفاة هيرودس حكم ابنه أرخيلاوس على ذلك النحو الكارثي الذي دفع روما لأن تتولّى زمام الأمور. ومن بين أوائل الأعمال كان الاكتتاب أو التعداد، وهو شيء محظور في الناموس اليهودي، فكان التمرد. وعندئذٍ زال أيُّ أمل بقيام علاقات طيبة، نظراً لغطرسة الرومان وعوائد اليهود. فأخفق كلّ طرف في فهم الآخر. ولم يزعج الرومان أنفسهم بمعرفة المسموح والممنوع في اليهودية، ولم يدرك اليهود أنَّ روما بحاجة لأن تفهم هذه

المقاطعة. ومع هذا الإخفاق بات الطرفان على حالٍ من الخلاف المتواصل.

ويلعب الاكتتاب دوراً مهماً في قصة العهد الجديد. فهو العربة التي يصل بها والد يسوع ووالدته إلى بيت لحم كي يولد هناك، إنفاذاً لنبوءةٍ قديمة. غير أنَّ خبر الاكتتاب هو أيضاً محاولة لوضع يسوع في إطار حدث تاريخي. وليس حاسماً هنا أن يكون يوسف ومريم قد مضيا إلى بيت لحم بالفعل؛ فالمهم هو أنَّ ما من شخص إلا وتجد لديه هذه القصة صدىً، سواء أكان يهودياً أم غير يهودي. فالرومان كانوا يُجرون الاكتتاب على الدوام، وها هي صلةٌ تقوم بين يسوع وحدث تاريخي، حدث لم تكد تخلو منه مقاطعة في أرجاء العالم الروماني.

الجزية

كان جَمْعُ الجزية مجالاً آخر من مجالات الغطرسة الرومانية. والحوار بين يسوع والمراجع اليهودية حول جواز إعطاء اليهود الجزية لروما يسلّط الضوء من جديدٍ على هذه القضية. فهي لا تعني أنَّ اليهود لم يدفعوا الجزية في أي يوم من الأيام، أو أنهم لم يدفعوها إلا للحكّام اليهود. فبعد أن هزمتهم بابل في العام 586 ق.م، كان على اليهود الذين بقوا في فلسطين أن يدفعوا الجزية لبابل. وحتى بعد عودتهم في العام 537 ق.م كانوا يدفعون لملك فارس مَكْس المرور والجزية على الإنتاج والاستهلاك. وبعد الإسكندر العظيم راح اليهود يدفعون الجِزية للبطالمة الذين صنّفوهم مع تلك الجهات التي تدفع مُقَدَّماً أَبْهظ الجزية ثمّ تستردّها من المحليين، ثم للسوريين الذين كانوا يطلبون أتاوةً، وضريبةَ ملح، وجزيةً زراعية، وجزيةَ اقتراع، ورسوماً، وجزية ذهب للتاج، أو ما دُعي aurum coronarium، التي لعلّها كانت تُعطَى لدى تولّي ملك جديد سدّة العرش. وخلال حكم هيرودس نُظِّمَت الجزية إلى جزية ملكية وجزية دخل، وجزية مبيعات، ورسوم استيراد/تصدير. كما فرض هيرودس جزية على المنازل في أورشليم.

كانت الجزية قائمةً في فلسطين منذ قرون، إذاً، وكان يفرضها الأجانب، إذا ما استثنينا هيرودس. فما الذي جعل النظام الروماني مختلفاً كلّ هذا الاختلاف؟ للجزية الرومانية تاريخ طويل من الجور. وقد يكون هذا الجور فعلياً وقد لا يكون، لكنه لطالما اعتُبِر جوراً. وفي عهد الجمهورية الرومانية اشتُهِر جامعو الجزية بثرائهم. وعلى سبيل المثال، فقد أباح

ڤيريس والي صقلية الروماني في القرن الأول قبل الميلاد لجامعي الجزية ابتزاز تلك المقادير التي كادت أن تدمّر المقاطعة. وقد تكلّم الخطيب العظيم شيشرون ضد ڤيريس، لكنَّ هذه الممارسة تواصلت. وما كان يجعل انطباع الجور أقرب إلى الحقيقة أنَّ نظام الجباية الروماني، خاصةً في حقبة الإمبراطورية، صار مُنَّظَماً ومنهجياً. وتنظيم العملية هذا جعل الجزية متوقّعةً ومعروفة مُقَدَّماً، لكنه قَرَن بهذه المعرفة السخط والاستياء. والذي أَكْملَ هذا التنظيم هو المركزية المطردة التي راح يتّسم بها هذا النظام. وكان الرومان حفظةَ سجّلات ممتازين، الأمر الذي أتاح لهم أن ينتفعوا بموارد المقاطعات أتمّ الانتفاع. ولعلّ معظم المال كان يبقى في المقاطعة، أو كان يُعِينُها على الأقل، لكن القصص والحكايات المرعبة المتواصلة عن مال الجزية الذي كان يتدفق إلى روما من أجل ملذّات الإمبراطور وعائلته كانت تزيد السخط سخطاً.

وكان نظام الجزية يجمع جزيتين أساسيتين، جزية الرأس وجزية الأرض. وكانت جزية الرأس تُفْرَض على الأشخاص بمعدّل ثابت، ويبدو أنها كانت تُفرَض في فلسطين على كلٍّ من الرجال والنساء فوق سن الثانية عشرة، سواء كانوا أحراراً أم عبيداً. أما ضريبة الأرض فكانت تبعاً لقدرة المنطقة الزراعية، وعادةً ما كانت العشر من الحبوب، والخمس من الخمر أو الفاكهة. وكان من عادة الرومان أن يجبوا ذلك كمواد عينيّة أو نقداً، تبعاً للمقاطعة. وعلى سبيل المثال، لم تكن الجزية تُدْفَع نقداً في مصر وأفريقيا وصقلية بل من المحصول، أمّا في اليونان فكانت تُدْفَع نقداً. وعلاوة على هاتين الجزيتين الإمبراطوريتين، كان ثمّة رسوم تُدْفَع على الواردات والصادرات التي تُنْقَل على الطرقات وفي الموانئ. وهنالك بعض الأمثلة لرسوم حفظتها النقوش. أمّا السلع فكانت من الأنواع المعتادة: ملابس، طعام، وبضائع غريبة، لكنها اشتملت على العبيد أيضاً. وما جعل الجزية باهظةً في يهودا هو أنَّ مال الجزية كان في الأصل يذهب إلى الهيكل كرمى لله في الظاهر، أما الآن فبات يذهب إلى الإمبراطور في روما.

غير أنَّ أسباب كراهية الجزية هذه كان يمكن أن تنطبق على أيّة جماعة جَبَت الجزية في يهودا. فالآشوريون اشتهروا بقسوتهم. والفرس والبابليون كانوا يجمعون جزيةً تنتهي إلى آلهتهم وهياكلهم. والبطالمة والسوريون فرضوا أنماطاً مختلفة من الجزية القاسية. وهيرودس اشتهر بمنهجيته في جمع الجزية. فلماذا أثار الرومان مثل هذه الكراهية؟ لماذا رأى اليهود

هذه الجزية على غير ما رأوها زمن الفرس أو البطالمة أو السوريين؟ أحد الأسباب هو سبب ثقافيّ. فعلى الرغم من كون الإسكندر العظيم وخلفائه غربيين، لكنهم حاولوا أن يتمثّلوا بيئة الشرق الأدنى ويتثاقفوا معها. وقد تبنّى الإسكندر وبطليموس وسلوقس وسواهم من الملوك الهلنستيين ثقافات الشرق الأدنى ونظراتها إلى المَلَكيَّة. ومع أنَّ اليهود عارضوا مفهوم الملوك الآلهة، فإنَّ هذا المفهوم كان قائماً في غير مكان. بل إنَّ هؤلاء الحكّام، باستثناء أنطيوخس الرابع وكتائبه، احترموا العوائد اليهودية من الناحية الرسمية، وإنْ كان رعاياهم وموظفوهم قد أظهروا خلاف ذلك في بعض الأحيان. وبالمقابل، فقد جاء الرومان وأعلنوا تفوقهم على السكّان المحليين. والأهمّ من ذلك أنّهم لم يحاولوا أن يعرفوا المنطقة، ولم يروا فيها سوى فرصة للإثراء. ولقد استباح بومبي وجيوشه أورشليم، ونهبوا الهيكل. وهذا الفعل مهّد السبيل لمشكلات لاحقة. ونَصَّبَ أنطوني وأغسطس هيرودس، الأمر الذي خلق العداء وانعدام الثقة تجاه روما بسبب أعمال هيرودس. ولم يفهم الولاة الأوائل بعد هيرودس المنطقة؛ ولم يروا فيها سوى فرصة للترقّي. ولقد ضمن غياب الحسّ هذا وغطرسة الرومان تنغيص كثيرين في فلسطين وإثارة غضبهم، الأمر الذي يمكن أن نراه في محاولات التمرد الكثيرة وفي نشوء فرقة الغيورين (الزيلوت).

العلاقات اليهودية–الرومانية المحلية

لم تكن روما السبب الوحيد وراء المشكلات. بل ينبغي الإنحاء باللائمة على القيادة اليهودية المحلية أيضاً. فهم الذين التمسوا أن تتولى روما السيطرة بعد هيرودس أرخيلاوس، وبدوا راغبين في أن يحكمهم ذلك الكيان غير اليهودي. لقد أرادوا بشتّى الطرق أن يحصّلوا الأفضل في كلا العالمين. أرادوا حمايةً حكومةٍ إمبراطورية، ونظامها، ومساعدتها، وراحوا يقولون بعد ذلك إنهم ضد هذه القوة البوليسية الوثنية، الغريبة، المتغطرسة، آملين بذلك أن يجذبوا السكّان المحليين إلى صفّهم. وبإحجامهم عن القيام بمهمة الحكم الصعبة، وإتاحتهم لكيان آخر أن يحكم، بات بمقدور اليهود أن يعلنوا أنهم قد أُجْبِروا على إطاعة روما. والذي لم تُشِر إليه القيادة الدينية هو أنها كانت تغتني على الصعيد الشخصي على حساب السكان المحليين.

غير أنّ أيّاً من الطرفين لم يكن يريد للآخر النجاح في شرق المتوسط. فروما تخشى من

أنَّ أيّ شكلٍ من أشكال الاستقلال قد يخلق ثغرةً يمكن لعدوها القديم، الفرثيين، أن يشنّوا هجومهم من خلالها، وهو الشيء الذي سبق أن حصل في القرن السابق؛ وكان اليهود يخشون من أنَّ أي تعاون مع روما يمكن أن يؤدّي إلى خسارة الهوية الدينية. وتمثّلت النتيجة النهائية في ذلك الخلاف المتواصل بين روما والسكان المحليين، ذلك الخلاف المُهيَّأ دائماً للاحتدام. وهذا الاحتدام كان متواصلاً. فكلما اقترف الولاة الرومان خطأً، وكانت أخطاؤهم كثيرة، احتجّ المحليون، وغالباً بصورة عنيفة وبتشجيع من القيادة اليهودية المحلية. ولعلّ بيلاطس البنطي هو أشهر الولاة. وتبعاً ليوسفوس، فإنَّ هذا قد أدخل رايات الفيالق إلى أورشليم في الليل. وحين اكتُشف الأمر، احتجّ اليهود وتجاهلهم بيلاطس خمسة أيام. وفي النهاية قابلهم وهددهم بالقتل إنْ لم يكفّوا. فما كان منهم، بحسب يوسفوس، إلا أن كشفوا عن أعناقهم، وأعلنوا أنّهم يفضلون الموت على رؤية فظاعةٍ تُرتَكَب. وعندئذٍ لانَ بيلاطس وأزال الرايات. ويروي المؤرّخ فيلو أنّ بيلاطس رفع مرّةً على حصنٍ في أورشليم تروساً ذهبية تحمل اسم الإمبراطور تيبيريوس. وحين رآها اليهود طالبوا بأن تُزال، فرفض بيلاطس ذلك. فلجأوا بدورهم إلى تيبيريوس الذي أمر بإزالتها وأرسلها إلى قيصرية. وكان ذلك بالنسبة لبيلاطس وضعاً لابدّ من أن ينتهي إلى الخسران، ما إنْ نَصَب تلك التروس. فإذا ما استجاب لمطالب اليهود كان في ذلك إهانة للإمبراطور؛ وإذا لم يستجب فسوف ينتهي به الأمر إلى إهانة اليهود. وكان عليه، بالطبع، ألاّ يقوم بذلك أصلاً. ومن الأخطاء أيضاً استخدام مال الهيكل لبناء قناطر خيريّة لمدينة أورشليم. فمع أنَّ أحداً لا يمكن أن يعترض على الماء العذب النظيف، إلا أنَّ كيفية دَفْع المال خلقت مشكلة لم تُحَل سلمياً. فحين عُلِمَ أنَّ مال الهيكل قد استُخْدِم، اندلعت أحداث شغب دموية، لم يخمدها سوى الجنود. هكذا كان اليهود مشكلة بالنسبة إلى الرومان. ورفضهم أن يسمحوا للرومان وغير اليهود بأن يعبدوا آلهتهم في أورشليم كان يبدو لروما أمراً فظيعاً. أمّا احتجاجهم بأنّهم لا ينبغي أن يدفعوا الجزية للإمبراطور ومطالبتهم بأن يدفع الرومان الجزية لإلههم، وهو الأمر الذي كان يفعله الرومان تبرّعاً، فكان يبدو مُرائياً. وأخيراً، فإنَّ الإصرار على رفض تكريم الإمبراطور بخلاف الجميع بدا للرومان عناداً صرفاً.

وما يجدر فهمه ليس ما إذا كانت أفعال كلّ جماعة صائبة أم غير صائبة، بل أنَّ كلا

الجماعتين لم تكونا تريدان التواصل في الظاهر. صحيحٌ أنَّ روما هي المحتلّ، لكننا يجب أن نتذكر أنَّ مساعدة الرومان لطالما طُلِبَت في بداية علاقتهما. وصحيحٌ أنه كانت لدى اليهود فكرة مختلفة عما تقتضيه هذه المساعدة، إذ كانوا يريدون من روما أن تقدّم لهم العون ثم تمضي، غير أنَّ روما قدّمت هذا العون وهي تتوقّع أن تتمكّن من البقاء في المنطقة أو تبسط عليها نفوذها على الأقل. وهذا الصراع المتواصل هو ما أفضى في النهاية إلى الحربين الكبريين في 66–73 وفي 132–135م.

أَبْعَد من فلسطين

اختلف الوضع خارج فلسطين اختلافاً طفيفاً. ففي حين ظلّ المحليون ينظرون إلى روما كمحتلٍّ جائر لا يكترث بهم، إلا أنَّ مستوى السخط لم يرتفع في العادة ليصل إلى التمرد. ففي آسيا الصغرى، كانت روما قد حلّت محلّ القادة الهلنستيين الذين واصلوا جمع الجزية وفرض سيطرتهم على الجماعات المحلية، شأنهم شأن الفرس من قبلهم. أمّا روما فقد اكتفت بإزاحة الحاكم الأعلى والعودة إلى المناطق المحلية على هيئة حماية وتواصل وتنمية اقتصادية. وخلال القرن الأول قبل الميلاد كانت مشكلات الأمن تُطْبِق على المنطقة. وقام ملك بيثينيا إلى الشمال، متريداتيس، بمهاجمة الأجزاء الغربية والجنوبية من آسيا الصغرى، الأمر الذي أدّى إلى حالة من الزعزعة والاضطراب. وتلا ذلك حضور القراصنة على ساحل آسيا الصغرى، أولئك القراصنة الذين شاعت الإشارة إليهم باسم قراصنة كيليكية، وكانوا يعترضون السفن التجارية، مما هدّد إمدادات الحبوب في أرجاء المتوسط. وتدخلت روما في النهاية، ونجح بومبي في التعامل مع كلٍّ من متريداتيس والقراصنة على حدٍّ سواء. وبوصول روما وجيشها، جرى تطوير طرق وموانئ جديدة. وأتاحت هذه الأنشطة اتصالاً سهلاً، أفسح المجال بدوره، إلى جانب ازدياد الأمن، أمام التطور الاقتصادي. وقد تجلّى هذا التطور الاقتصادي أحسن تجلٍّ في صعود تجارة المسافات البعيدة. فقد بات بمقدور التجار عندئذٍ لا أن يتاجروا بسلام وحسب بل عبر مسافات طويلة أيضاً، بسبب ما أقامه الرومان من نظامٍ أزيلت فيه الحواجز التجارية. ففي العهد الهلنستي أفلحت الممالك المحلية في الحيلولة دون قيام الفرص التجارية بفرض رسوم باهظة وسواها من الموانع. أمّا روما فقد أزالت هذه الموانع وغدا المتوسط أكثر أمناً،

مما أتاح الفرصة لازدياد التجارة.

ولقد واصلت المناطق المحلية محاولتها الاحتفاظ بهوياتها. وقد تجلّى ذلك أكثر ما تجلّى في الفنّ. وبحسب الاعتقاد الشعبي، فإنَّ الثقافة الرومانية بلغت ذروتها خلال العصر الإمبراطوريّ الباكر. وكانت الثقافة الرومانية الإمبراطورية الباكرة (14–235م)، خاصةً الفنون التشكيلية من نَحْتٍ ونَقْشٍ ورَسْم، قد حاولت أن تميّز نفسها من المرحلة الجمهورية الأبكر أو الهلنستية الشرقية، خاصةً في المقاطعات. وهذه العملية تُدعى الرَّوْمَنَة، وتُعَرَّف بأنّها امتزاج الثقافة الرومانية، والهلنستية، في الأساس، مع العوائد والمهارات والموضوعات المحلية، أو التحام العالم الكلاسيكي مع المناطق غير الكلاسيكية. ومع أنَّ ذلك لم يحصل في فلسطين بالسهولة التي حدث بها في غير مكان، إلا أنَّ هيرودس حاول أن يُحْدِث هذا الالتحام في قصوره في قيصرية، ومسّادة، وسواها من المواقع غير اليهودية.

ولقد جرّت هذه الرَّوْمَنة في الغرب بأشدّ ما يكون العمق، لأنَّ الشرق كان قد صدَّر الهلنستية إلى روما في أواخر الجمهورية، ومن ثمَّ صدّر الرومان ثقافتهم إلى الغرب، حيث التحمت بالثقافات المحلية، مثل الديانة الغاليّة أو العمارة البونيّة (الأفريقية). وكان هذا الالتحام قائماً في الشرق إنما ليس بالقدر الذي نجده في الغرب. ومن الواضح خلال الإمبراطورية الباكرة أنَّ روما، أي إيطاليا، كانت لها الصدارة في دَفْع عملية الرَّوْمَنة، وتبعتها في ذلك النخب المحلية وقلّدتها كي تتكامل مع الرومان وتحافظ على السلطة أو تنالها؛ مع أنَّ كثيراً من المناطق تلقّت الثقافة الرومانية كارهةً وعلى مضض، باعتبارها شكلاً من الإمبريالية الثقافية. فقد وصل الجنود والبيروقراطيين والمعمّرون الرومان إلى الأراضي «البربرية» الغربية المفتوحة حديثاً، وجلبوا معهم الثقافة الرومانية–الإيطالية، وبنوا المدن والقرى الرومانية، وفرضوا الأفكار الثقافية الرومانية على السكان الأصليين. وتبنّت النخب المحلية الثقافة الرومانية وحاكتها، بوصفها وسيلةً للترقّي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وأَسْفَر هذا التبنّي، في النهاية، عن تهجين محلّي للموضوعات والصنائع والعوائد الرومانية التي امتزجت مع نظيراتها المحلية، مما أنتج الرَّومَنة.

ولا ينبغي أن نغفل عن تأثير ذلك على المجتمع والحياة اليومية. فلابدّ من أن يكون السكان المحليون في فلسطين قد رأوا في وابل المؤثّرات الرومانية، الوثنية، المتواصل

محاولةً لإغراق المنطقة، وهو وابل لم يكن يصدر عن المشرفين الرومان وحسب بل عن القيادة المحلية أيضاً. ولابدَّ من أن يكون تدفّق الهلنستية أو الإيديولوجيا الرومانية، الذي بدأ بهيرودس وعائلته وتسارع مع القادة اليهود المحليين، قد أحدث ارتباكاً أو خلطاً لدى السكان المحليين. وتمثّل ردّ الفعل الأخير في صراع بين الأفكار الرومانية والأفكار اليهودية. وأفضى هذا الصراع في نهاية المطاف إلى دمار طريقة الحياة اليهودية في فلسطين مع نهاية زمن العهد الجديد واكتمال الانفصام بين اليهودية والمسيحية.

شهدت حياة البشر ومجتمعهم في فلسطين انقلابات هائلة في أواخر القرن الأول الميلادي. فقد واصل السكان عيشهم كما كانوا عليه من قبل، يكدحون في الحقول، ويحاولون التوفيق بين دَخْلِهِم وخَرْجِهم، ويُجْبَرون على تأدية جزية لا تني تتزايد؛ غير أنَّ صلتهم بالحياة الدينية القديمة انحلّت. فمع خراب فلسطين والفشل في إحياء الدولة اليهودية، بات العالم السياسي رومانياً، أمّا العالم الديني فقد تشظّى.

سيرتا أغسطس وهيرودس

اغسطس

اسمه غايوس أوكتافيوس (63ق.م– 14م)، وقد غيّره بإرادته إلى غايوس يوليوس قيصر بعد اغتيال يوليوس قيصر الذي تبنّاه، لكنه يُعْرَف أكثر باسم اغسطس، الذي خلعه عليه مجلس الشيوخ الروماني عام 27 ق.م. قامت أمّه، ابنة أخت يوليوس قيصر، بتربيته بعد وفاة والده عام 58 ق.م، وعمل يوليوس قيصر على إدخاله الحياة العامة، حيث أخذه معه إلى إسبانيا في العام 45 ثم أرسله إلى أبولونيا في إبيروس ليكمل دراساته، وكان يقيم هناك حين اغتيل قيصر عام 44 ق.م. لكنه عاد إلى إيطاليا ليطالب بميراثه، المالي والسياسي على حدٍّ سواء، فتعارك مع مارك أنطوني أولاً ثم تحالف معه في مقارعة قاتليّ قيصر، بروتوس وكاسيوس. كما تحالف مع أنطوني وماركوس ليبيدوس في إقامة التريومفيريت (حكم الثلاثة) الثاني. وحين أُعْلِن يوليوس قيصر إلهاً في السنة التالية، 42 ق.م، غدا أوكتافيوس، عملياً، ابن إله كونه ابن قيصر بالتبني. بعدها تمكّن التريومفيريت من أن يهزم بروتوس وكاسيوس في فيلبي في مقدونية. وقد تزوج أوكتافيوس من سكريبونيا، قريبة سيكستوس بومبي، الذي حشد الشيوخ ضد قرار يوليوس قيصر والتريومفيريت اللاحق الذهاب إلى صقلية. وكان سيكستوس بومبي قد بدأ يُرْهِب سفن الحبوب المتجهة إلى روما. وكان الزواج محاولة لإقامة هدنة،

لكنها كانت هدنة مؤقتة وحسب. وأسفَر هذا الزواج عن ابنة أوكتافيوس الوحيدة، جوليا. وفي العام 40 ق.م طلّق سكريبونيا وتزوّج من ليفيا دروسيلا، التي بقيت زوجته حتى وفاته.

كان أنطوني متزوجاً من أوكتافيا أخت أوكتافيوس. غير أنّ كليوباترا كان قد سبق لها أن فتنته فهجر أوكتافيا، ومعه ابنتاه، أنطونيا الكبرى وأنطونيا الصغرى. وأفلح جنرال أوكتافيوس، أغريبا، في أن يهزم سيكستوس بومبي ويزيح ليبيدوس عن السلطة. وبقي أنطوني معارضاً لأوكتافيوس. وفي العام 31 ق.م التقى الاثنان في أكتيوم، وتمكّن أغريبا، الذي كان يقود أسطول أوكتافيوس، من كسر أنطوني، الذي فرّ إلى مصر مع كليوباترا، حيث انتحرا في السنة التالية لدى وصول أوكتافيوس إلى هناك. وباستيلاء أوكتافيوس على مصر ومواردها، ثبّت هناك عدداً ضخماً من الجنود، وأعطاهم الأرض والمال مكافأةً لهم. ولدى عودته إلى إيطاليا، اتّخذ أوكتافيوس سلسلةً من القرارات السياسية التي ضمنت سلطته. فقد أمسك بسلطة أنصار العامة، مما أعطاه الحقّ في نقض أي مرسوم وفي طرح التشريعات، وأمسك بسلطة القنصل، مما منحه الحق في أن يصدر الأوامر للجيش، كما أمسك بموارد الإمبراطورية المالية. وفي العام 22 ق.م أصبح يُعْرَف باسم أغسطس، الذي يدلّ على إنقاذه الدولة الرومانية.

وفي هذه الفترة بدأ أغسطس يخطط لخلافته. فزوّج ابنته الوحيدة، جوليا، إلى مارسيلوس، ابن أخيه. وبعد وفاة مارسيلوس في العام 23 ق.م، زوّجها أغسطس إلى جنراله أغريبا. ولأن أغريبا لم يكن سوى واحد من طبقة الفرسان، فإنّه لم يكن في أعين الشيوخ مناسباً لخلافة الإمبراطور. وتبنّى أغسطس ابني أغريبا وجوليا، غايوس ولوسيوس، كأنّهما ابناه. وتوفي أغريبا في العام 12 ق.م فأجبر أغسطس جوليا على الزواج من تيبيريوس، ابن زوجته، الذي كان عليه أن يطلّق زوجته. ولم يكن هذا الزواج سعيداً وسرعان ما اتهمت جوليا بالزنا وأُبْعِدَت إلى جزيرة صغيرة. وأنحى أغسطس باللائمة على تيبيريوس، الذي مضى إلى منفاه القسري. غير أنّه استُدعي عند وفاة غايوس ولوسيوس لأنّه كان الشخص الوحيد الذي لديه من العمر والأهلية ما يمكّن أغسطس من الاتّكال عليه. توفي أغسطس في العام 14م.

هيرودس

وُلِد هيرودس الأكبر في العام 73 ق.م في إدومية، وهو ابن أنتيباتر وسيبرس، ابنة شيخ عربي. وكان أنتيباتر نصيراً للملك اليهودي هرقانوس، ودعم كلاهما يوليوس قيصر في الحرب الأهلية. وأمّن أنتيباتر لولده هيرودس البالغ من العمر 16 عاماً حكم الجليل، وما لبث أنْ شَنَّ حملة على قطاع الطرق. وأدانه السنهدرين بسبب أعماله الوحشية في الجليل. وبعد اغتيال يوليوس قيصر، أدّى الصراع الناشب بين قتلته وأوكتافيوس وأنطوني، ابن أخته ونائبه على التوالي، إلى فوضى في الشرق. فقُتِل أنتيباتر وراح هيرودس يثأر له. وتزوّج هيرودس بعدئذٍ مريامن التي تنتمي إلى عائلةٍ يهودية ملكية، الأمر الذي أسهم أيضاً في اقترابه من العرش.

عَيَّن أنطوني هيرودس حاكماً على الجليل وعيّن أخاه حاكماً على أورشليم. وكان اليهود ينظرون إلى هيرودس كخارجيّ لأنَّ عائلته لم تتحول إلى اليهودية إلا مؤخّراً. لكن الرومان جعلوا هيرودس ملكاً على يهودا في العام 37 ق.م وارتكز حكمه على إقامة علاقات طيبة مع روما وقادة الدين اليهودي. أما في السياسة الخارجية فكانت علاقاته عسيرة مع كليوباترا في مصر في حين أقام علاقات طيبة مع مارك أنطوني. ومع الهزيمة التي ألحقها أوكتافيان بأنطوني، أَعْدَم هيرودس الملك الأخير، هرقانوس، ثم التقى أوكتافيان وتصالح معه.

ومن منجزات حكم هيرودس الباقية برنامج البناء الذي تولّاه. فقد بنى مدينة جديدة، هي قيصرية الساحل، على غرار المدن اليونانية. وبنى في أورشليم سلسلة من المباني الجديدة، ومدرَّجاً، وسوقاً، وحصناً (حصن أنطونيا)، وقصراً. ومأثرته الأعظم، التي بدأت في العام 20 ق.م، هي الهيكل. لكن هيرودس لم يكسب قلوب رعاياه. فقد أثار حنق الصدوقيين بتخلّصه من البيت الملكي القديم الذي كانوا حلفاءه. ولم يكن الفرّيسيون يحبّونه لأنّه كان يسير بعكس النواميس اليهودية. كما فرض جزيات جديدة لم تحظَ بالتأييد.

عاش هيرودس حياة عائلية بائسة، وكان يتصور المؤامرات والأعداء يحيطون به من كلّ جانب. وقد قتل عدداً من زوجاته وأبنائه. ومات من مرض رهيب، لعلّه القصور الكلوي المزمن. ولقد اشتهُر هيرودس بوحشيته، وأفلح في الحفاظ على سلطته بالخوف والترهيب. ولم يكن خلفاء هيرودس بمثل جدارته السياسية، فكان أن أتت روما في النهاية إلى يهودا واحتلتها.

الفصل العاشر

خاتمة

تأثّرت الحياة اليومية في القرن الأول الميلادي بالدِّين ذلك التأثّر المباشر وأثّرت بدورها في تطور الدِّين اليهوديّ ثمّ المسيحيّ. ولقد حافظ اليهود في فلسطين على كثيرٍ من عقائدهم على الرغم من أنَّ مجتمعاتٍ وثنيةً كانت قد سيطرت على المنطقة وطَغَت عليها. وإذا ما كانوا قد ربحوا المعركة السياسية التي قادها المكابيون ضد المملكة السلوقية، إلا أنّهم خسروا الحرب الثقافية ضد الهلنستية من نواحٍ كثيرة. وخلال استقلالهم ثم حكمهم شبه الذاتي أيام هيرودس الأكبر، حافظ اليهود على قَدْرٍ كبير من هويتهم الدينية. ومن حافَظَ على هذه الهوية بصورة أساسية هم الفرّيسيون، الذين لم يساوموا في الصراع الديني بين الهلنستية واليهودية على الرغم من احتمالهم السيطرة الأجنبية. بيد أنَّ الفرّيسيين عجزوا عن إقناع كثيرٍ من المناطق المهتدية حديثاً، مثل الجليل، باتّباع فلسفتهم السياسية المتمثّلة بترقّب المسيح المُنْتَظَر واحتمال الحكم الروماني. وهذه هي الخَلْطَةُ التي انضاف إليها يسوع. ففي طفولته كان ثمّة تمردٍ قاده أحد الجليليين ضد الاكتتاب أو التعداد. ولاحقاً، قطع هيرودس أنتيباس رأس قريبه، يوحنا المعمدان، لأنه أدان زواجه من زوجة أخيه. وكذلك كان الخطر يحفّ بحياة يسوع واضطرَّ في الحقيقة لأن يفرّ من الجليل. ذلك أنّه كان دائم الإشارة إلى مشكلات اليهود في فلسطين. فكان يكرز ضد القواعد القاسية التي فرضها الفرّيسيون والصدوقيون، وضِدَّ بِدْعَة الطلاق والزواج من جديد، تلك البدعة المستحدثة التي قبلها الفرّيسيون. ودافع عن فكرة القيامة، التي لطالما قارعها الصدوقيون. كما دافع، أخيراً، عن أنّه المسيح المُنْتَظَر من دون أن يُفَصِّل في نوعِ هذا المسيح المُنْتَظَر. وكلُّ ذلك جرى على خلفيةٍ من الوقائع السياسية، لأنَّ الإمبراطورية الرومانية كانت قد احتلّت فلسطين. وأدّى هذا الاحتلال إلى التمرّد وخراب أورشليم في العام 72م.

ضَمِن خرابُ أورشليم واحتلالُ الرومان يهودا انتصارَ الهلنستية الثقافي على اليهودية في القرن الأول الميلادي. وضمنت نهاية اليهودية ككيان سياسي، تلك النهاية التي

عزّزها الغيورون والصدوقيون، انتصار الهلنستية على اليهودية في شرق المتوسط. ولا يعني ذلك أنّ اليهودية تحولت إلى هلنستية من جميع النواحي، بل يعني أن منطقة فلسطين لم تعد يهودية حصراً. يُضاف إلى ذلك أنَّ هذه الهزيمة التي مُنِيَت بها اليهودية كثقافة غيَّرت الكيفية التي كان ينظر بها المجتمع إلى نفسه، أي أنّها غيّرت ما كان قائماً من ضروب الانقسام، فأفل الغيورون والإسينيون والصدوقيون؛ وبرز الفرّيسيون بوصفهم البقيّة الوحيدة الباقية من الفرق الدينية—السياسية القديمة. وقد بقي الفرّيسيون لأنّه كان قد سبق لهم أن تكيّفوا من خلال استخدامهم المجامع.

ولأنَّ يسوع كان قد كَرَز برسالته بين اليهود واتَّبَع أفكار الفرّيسيين الأساسية، فإنَّ من الأفضل أن ننظر إلى المسيحيين، أتباع يسوع، على أنّهم في الأصل طائفة من الفرّيسيين، وأن نقول إنهم جماعةٌ بعينها من الفرّيسيين. فضروب التشابه كانت عميقة وضروب الاختلاف لم تكن عظيمة، على الرغم من نظرة المسيحيين إلى يسوع أنّه المسيح المُنْتَظَر. غير أنَّ التمرّد وفَّرَ قطيعةً نهائية بين الجماعتين، قطيعةً كانت قد بدأت في الأصل مع نشاطات بولس التبشيرية في آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا، حيث حاول أن يهدي لا اليهود وحسب بل غير اليهود أيضاً. فاليهود المسيحيون الأوائل، الذين يمثّلهم أحسن تمثيل يعقوب، حواري يسوع والقائد في أورشليم، كانوا فرّيسيين. واليهودية والمسيحية، بوصفها جزءاً من الديانة ذاتها، كانتا تتبعان العوائد اليهودية، خاصةً نواميس الطعام. وفي المسيحية الباكرة كان كثير من تلاميذ يسوع من الفرّيسيين. ويبدو أنَّ يعقوب، أسقف أورشليم، كان نصيراً متحمساً للفرّيسيين. فعلاقاته ووجهات نظره تعكس ما كان لدى التيار اليهودي السائد، تيار الفرّيسيين، وغالباً ما أَدْخَلَتْهُ في صراعٍ مع اليهود المسيحيين الأكثر تحرراً.

وأفضل مثال على ذلك هو الجدال حول الختان. ففي حين رأى يعقوب أنَّ أتباع يسوع ينبغي أن يَخْتَتِنوا أولاً، ليصبحوا بذلك يهوداً، رأى بولس عكس ذلك، مع أنّه فرّيسيّ أيضاً. وقد أضْحى رأي بولس هو الرأي المقبول والطريقة القارّة، فلم يكن على المهتدين أن يصبحوا يهوداً. ويمكن النظر إلى هذا الجدال على أنّه يتعدّى النقاش الديني إلى كونه نقاشاً ثقافياً أيضاً (أعمال الرسل 15: 1—15)(1). فأولئك الذين تبعوا يعقوب، المسيحيون

(1) « 1 وَانْحَدَرَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ، وَجَعَلُوا يُعَلِّمُونَ الإِخْوَةَ أَنَّهُ «إِنْ لَمْ تَخْتَتِنُوا حَسَبَ عَادَةِ مُوسَى، لاَ يُمْكِنُكُمْ أَنْ

اليهود، كانوا يتمسّكون بالممارسات الثقافية اليهودية، أما أولئك الذين ناصروا بولس، المسيحيون غير اليهود، فكانوا أكثر ميلاً لاتّباع المُثُل الهلنستية. ومع التمرد رَغِبَ كثيرٌ من المسيحيين، خاصةً غير اليهود، في أن ينأوا بأنفسهم عن الحروب السياسية ويظهروا ولاءهم، أو موقفهم المسالم على الأقلّ، حيال روما. فقد أتاحت الهزيمة في يهودا للمسيحية أن تقطع مع اليهودية وتجري في مسارها الخاص. وبتضافرها مع الهلنستية عبر الفلسفة، باتت المسيحية أشدّ قبولاً لدى غير اليهود. وكان هذا تغيّراً أدّى إلى طريقة حياة مختلفة.

فمع انفصال المسيحية عن اليهودية لم تَعُدْ مفروضةً تلك المجموعة الكبيرة من نواميس الطعام. وعنى ذلك أنّه لم يَعُدْ على غير اليهود أن يتركوا عاداتهم في ما يتعلّق بأنواع الطعام وطرق تحضيرها. وعلى سبيل المثال، فقد أبيح أكل لحم الخنزير في كثيرٍ من المناطق اليونانية؛ فمع انفصام العرى، صار بمقدور المسيحيين غير اليهود أن يواصلوا أكلهم لحمَ حيوانٍ يرى اليهود أنه نَجِس. ولقد أتاحت هذه التغيرات بدورها للمسيحية أن تنتشر أبعد من السكان اليهود المحليين. وسرعان ما فاق عدد المسيحيين غير اليهود عدد المسيحيين اليهود، الأمر الذي حَدَّ من سلطة الطائفة الفرّيسية القديمة ونفوذها. ومع وَقْف الختان القسري، باتت أفكار التوحيد والمسيحية أشدّ جاذبية وأسهل قبولاً لدى غير اليهود. وكان لصعود المسيحية بين هؤلاء الأخيرين وتضاؤل دور اليهود المسيحيين أن يفضيا إلى تغيّرات ظاهرة في الشعائر. وعلى سبيل المثال، فقد تغيّرت أيام العبادة التقليدية. فاليهود في الأصل كانوا يتعبّدون يومي الاثنين والخميس، لكن المسيحيين نقلوا ذلك إلى يومي

تَخْلُصُوا». 2فَلَمَّا حَصَلَ لِبُولُسَ وَبَرْنَابَا مُنَازَعَةٌ وَمُبَاحَثَةٌ لَيْسَتْ بِقَلِيلَةٍ مَعَهُمْ، رَتَّبُوا أَنْ يَصْعَدَ بُولُسُ وَبَرْنَابَا وَأُنَاسٌ
آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى الرُّسُلِ وَالْمَشَايخِ إِلَى أُورُشَلِيمَ مِنْ أَجْلِ هذِهِ الْمَسْأَلَةِ. 3فَهؤُلاَءِ بَعْدَ مَا شَيَّعَتْهُمُ الْكَنِيسَةُ اجْتَازُوا في
فِينِيقِيَةَ وَالسَّامِرَةِ يُخْبِرُونَهُمْ بِرُجُوعِ الأُمَمِ، وَكَانُوا يُسَبِّبُونَ سُرُورًا عَظِيمًا لِجَمِيعِ الإِخْوَةِ. 4وَلَمَّا حَضَرُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ
قَبِلَتْهُمُ الْكَنِيسَةُ وَالرُّسُلُ وَالْمَشَايخُ، فَأَخْبَرُوهُمْ بِكُلِّ مَا صَنَعَ اللهُ مَعَهُمْ. 5وَلكِنْ قَامَ أُنَاسٌ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ آمَنُوا
مِنْ مَذْهَبِ الْفَرِّيسِيِّينَ، وَقَالُوا: «إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَنُوا، وَيُوصَوْا بِأَنْ يَحْفَظُوا نَامُوسَ مُوسَى».
6فَاجْتَمَعَ الرُّسُلُ وَالْمَشَايخُ لِيَنْظُرُوا في هذَا الأَمْرِ. 7فَبَعْدَ مَا حَصَلَتْ مُبَاحَثَةٌ كَثِيرَةٌ قَامَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ
الإِخْوَةُ، أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْذُ أَيَّامٍ قَدِيمَةٍ اخْتَارَ اللهُ بَيْنَنَا أَنَّهُ بِفَمِي يَسْمَعُ الأُمَمُ كَلِمَةَ الإِنْجِيلِ وَيُؤْمِنُونَ. 8وَاللهُ الْعَارِفُ
الْقُلُوبَ، شَهِدَ لَهُمْ مُعْطِيًا لَهُمُ الرُّوحَ الْقُدُسَ كَمَا لَنَا أَيْضًا. 9وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِشَيْءٍ، إِذْ طَهَّرَ بِالإِيمَانِ قُلُوبَهُمْ.
10فَالآنَ لِمَاذَا تُجَرِّبُونَ اللهَ بِوَضْعِ نِيرٍ عَلَى عُنُقِ التَّلاَمِيذِ لَمْ يَسْتَطِعْ آبَاؤُنَا وَلاَ نَحْنُ أَنْ نَحْمِلَهُ؟ 11لكِنْ بِنِعْمَةِ الرَّبِّ
يَسُوعَ الْمَسِيحِ نُؤْمِنُ أَنْ نَخْلُصَ كَمَا أُولئِكَ أَيْضًا». 12فَسَكَتَ الْجُمْهُورُ كُلُّهُ. وَكَانُوا يَسْمَعُونَ بَرْنَابَا وَبُولُسَ
يُحَدِّثَانِ بِجَمِيعِ مَا صَنَعَ اللهُ مِنَ الآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ في الأُمَمِ بِوَاسِطَتِهِمْ.
13وَبَعْدَمَا سَكَتَا أَجَابَ يَعْقُوبُ قَائِلاً: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ، اسْمَعُونِي. 14سِمْعَانُ قَدْ أَخْبَرَ كَيْفَ افْتَقَدَ اللهُ أَوَّلاً الأُمَمَ
لِيَأْخُذَ مِنْهُمْ شَعْبًا عَلَى اسْمِهِ. 15وَهذَا تُوافِقُهُ أَقْوَالُ الأَنْبِيَاءِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ».

الأربعاء والجمعة. كما حلَّ الأحد المسيحي محلّ السبت اليهودي. وقد كَرَّس المسيحيون هذه التغيّرات لكي يجعلوا الفروق بين اليهودية والمسيحية أَجْلى وأَوْضَح. ومع أنّه يصعب أن نعلم على وجه الدقّة كيف وقَعَت هذه التغيّرات، من الواضح أنّه لم يمْضِ قرنٌ حتى فاقت المسيحيةُ اليهوديةَ عدداً، نظراً لسهولة انتشارها، من بين أسباب أخرى. ولم يعد الأفراد بحاجةٍ إلى اتّباع العوائد اليهودية الصارمة.

وقد لا يكون تأثير الحياة اليومية زمن العهد الجديد على المجتمع الحديث واضحاً بالضرورة. غير أننا إذا ما تفحّصنا شعائر المسيحيين وفروضهم في القرون الوسطى فسوف نجد تشابهات عظيمة. فالإلحاح بشأن العبادة كان لا يزال على أيام معينة في الأسبوع، خاصةً الأربعاء والجمعة. وكان الصيام في هذه الأيام لا يزال متّبعاً أيضاً. وكذلك الامتناع عن أكل اللحم أيام الجمعة. وكان بارزاً أيضاً الاحتفاء بالمناسبات الدينية التي كانت تمهّد لعيدي الفصح والحصاد اليهوديين الكبيرين اللذين صارا مسيحيين أيضاً.

ويمكن رؤية التحوّل الذي اعترى الإيديولوجيا اليهودية الفنية في الكنائس الشرقية والصراعات التي نشبت حول الإيقونات. فقد شهد القرن التاسع الميلادي حركةً في الدولة والكنيسة البيزنطيتين تحرّم استخدام الإيقونات. ونَبَع الأساس الذي قام عليه هذا الهجوم على الإيقونات من تأويل جزء من المسيحية كان ينظر إلى الإيقونات على أنّها أوثان. وهذه الفكرة، التي تضرب بجذورها في الإيديولوجيا اليهودية، عزلت الكنيسة الشرقية ما يقارب القرن. ومع أنَّ القضية حُسِمَت في النهاية لجهة الاستمرار في إجلال الإيقونات، فإنَّ الرأي الأساسي الذي يعتبر الإيقونات أوثاناً لم يَزُل.

وأكبر تأثيرٍ وَقَع كان في مجال اللاهوت والتغيّر الديني. فمذهب التوحيد اليهودي، الذي كان يُنظَر إليه في القرن الأول الميلادي على أنّه غريب وخرافيّ، بات الآن متاحاً لجمهور أوسع عبر التحام اليهودية والفلسفة الهلنستية. فقد أتاح هذا الالتحام لمفهوم التوحيد وفكرة أنَّ يسوع هو المسيح المُنْتَظَر أن يتسرَّبا إلى المجتمع اليوناني–الروماني. وإذا ما كان ذلك قد بدا بربرياً وغريباً في البداية، فإنه لم تَمْضِ ثلاثة قرون حتى قُبِلَ بوصفه الديانة الرسمية للدولة.

وكان للاهوت اليهودية الجديد هذا، الذي يرى أن يسوع هو المسيح المُنْتَظَر، أن ينتج في شكله النهائي، ومع الفلسفة اليونانية، لاهوت أغسطين، الذي رأى أنَّ المسيحية ليست

السبب في المشكلات التي أَطْبَقَت على الإمبراطورية الرومانية؛ بل لعلّها تكون السبب في إنقاذها. وما يبسطه أغسطين في عمليه مدينة الله والاعترافات لا يقتصر على تحوّله الخاص بل يتعدّاه إلى الأفكار التي ستتيح للمسيحية أن تزدهر. ولم تَقُم فلسفة أغسطين ولاهوته على الخطابة اليونانية وحسب بل على معرفةٍ بـ«العهد القديم» أيضاً. ولا يزال تأثير هذه الفلسفة وهذا اللاهوت متواصلاً إلى اليوم.

غير أنَّ التغيّر في الدين هو التأثير الأعظم اليوم. فلا بدَّ من أن نَعُدَّ تنامي المسيحية وتحولها من طائفةٍ من الفرّيسيين اليهود إلى ديانة كبرى واحدةً من ظواهر التاريخ العظمى. ولقد بدأ توسّع المسيحية في فلسطين وانتشر في آسيا الصغرى. ولم يكن هذا التنامي عبر الانتشار البسيط، من نقطةٍ إلى التي تليها؛ بل كان انتشاراً من مدينةٍ إلى أخرى بالقفز فوق مناطق. وعلى سبيل المثال، فإن انتشار المسيحية لم يَجْرِ من أنطاكية إلى المدينة التي تليها؛ بل إلى قبرص ثم إلى البرّ الرئيس. ولقد تلقت مدنٌ مثل أَفسُس، وبرغامُم، وسميرنا، ومنطقة غلاطية المسيحيةَ في حين لم تقبل مناطق بينها المبشّرين. وسرعان ما تسارع هذا الانتشار إلى مناطق غير يهودية ووصل إلى اليونان، ومدن مثل فيلبي وتسالونيكي وكورنثوس. وبعد الانتشار إلى هذه المدن الكبرى، اتبعت المسيحية مسارين؛ إذ كانت هنالك أولاً حركةٌ باتجاه توسّع المسيحية إلى الغرب، وكانت هنالك ثانياً حركة باتجاه هداية مناطق الشرق التي لم تسبق هدايتها. ولقد شَهِدَت الأولى دخول المسيحية إلى إيطاليا وشمال إفريقيا. وكما جرى في الشرق، فقد انتشرت المسيحية هنا إلى المدن الكبرى قبل أن تقفز إلى مناطق جديدة مثل إسبانيا وبلاد الغال ثم تعاود لتملأ المناطق التي لم تملأها في إفريقيا وإيطاليا. ومع نهاية القرن الثاني الميلادي كانت المسيحية قد استحكمت في آسيا الصغرى واليونان ومصر وشمال إفريقيا وإيطاليا. وخلال القرن الثالث انتشر الدين الجديد إلى منطقة الراين والدانوب وإلى برّ إسبانيا. وفي نهاية هذا القرن الثالث، حين أصدر دوقليتيان أمره الجائر الأخير بتخليص الإمبراطورية من هذا الدين الغريب، كان الوقت قد تأخّر كثيراً. وفي العام 337م، حين تُوفّي قسطنطين، كانت المسيحية قد قطعت شوطاً لا بأس به على طريق صيرورتها الدين السائد، ودين الدولة الرسمي في العام 391م في ظلّ ثيودوسيوس.

تطور التنامي الديني في هذه المناطق على نحوٍ منفصلٍ بعيداً عن فلسطين واليهودية.

وحين أخفق تمرد ستينيات القرن الأول وتمرد العام 130 في إقامة دولة يهودية مستقلة، لم يعد ثمّة أمل في أن تعاود المسيحية الاتحاد مع اليهودية. وكانت فلسطين عندئذٍ قد تغيّرت أيضاً. فقد أحدثت الحروب انقلابات هائلة سوف تؤثّر على المستقبل. فخراب الهيكل، الذي أَمِلَ بعضهم أن يُعاد بناؤه، أفضى في النهاية إلى نهاية فرقة كبرى في اليهودية، على الرغم من صغر حجمها، هي فرقة الصدوقيين. فهذه الجماعة، التي كانت تستمدّ سلطتها من الهيكل، لم تعد قادرة على البقاء. وكذلك بادت جماعة أخرى، هي الإسينيون. لكن هذه الجماعة أثّرت على المجتمع الحديث عبر بقاياها الأثرية، ومن بينها لفائف البحر الميت.

تشكّل لفائف البحر الميت صلة وَصْل مهمة بين القرن الأول والقرن الواحد والعشرين الميلاديين. ومع أنَّ هذه اللفائف لا تفضي لنا سوى بالقليل عن الحياة اليومية آنئذٍ، فإنّها تخبرنا ببعض أوجه المجتمع والدين والسياسة. وعلاوةً على اللفائف، كان ثمة مكتشفات أخرى تساعدنا في فهم المجتمع في ذلك الحين. فقد وُجِدَت اللفائف مع أردية كتّانية. ويبدو أنَّ هذه الأردية الكتانية كانت تُستَخْدَم لتغطية اللفائف، من أجل حمايتها. ولعلّ بعض المادة الكتانية كان قد استُخْدِم لباساً عادياً. كما اكتُشِفَت في الموقع نقودٌ، بما فيها ثلاثة أوعية خزفية ملأى بنقود الفضة. ويبدو أنَّ هذه الأوعية المتلكات الدنيوية لمبتدئين جدد كان عليهم أن يتخلّوا عن متاعهم الدنيوي، أو ملكاً للطائفة كان يُجْمَع تحت المدخل بقصد الأمان. وحقيقة أنَّ هذه الأشياء لم تُكتشف قبل العشرين إنّما تشهد على براعة بعضهم في إخفاء ما يريدون إخفاءه. واكتُشِفَت في الموقع أيضاً أكثر من 1000 قطعة من الفخّار المخصص للاستعمالات العملية بصورة أساسية، فمعظمها كان يُستَخْدَم على نحوٍ يوميّ في الطعام، كأطباق وأباريق وكؤوس وقدور. وتشير هذه البقايا إلى أنَّ هذا الموقع كان يستخدم لإقامة الجماعة وأنّه لم يكن ثمة فصل بين الطبقات بحيث يحظى أحدٌ بوسائل الرفاهية بينما تذهب الأشياء العادية الشائعة إلى الآخرين. ولعلّ هذا يشير بالفعل إلى أنَّ الموقع كان مكاناً لجماعةٍ وليس دارةً أو ڤيلا.

وكان بين آثار الجماعة الإسينية في قمران عدد ضخم من البقايا الفخارية، اشتمل عليها بناء واحد كان فيه أكثر من 1000 وعاء مرتّبة بحسب وظيفتها. وبعض اللفائف وُجِدَت هي ذاتها في أوعيةٍ من الفخار. فاستخدام هذه الأوعية الفخارية كان يتيح للمادة

أن تبقى جافّة ومحمية. ومن بين المكتشفات كان ثمّة أطباق وأباريق وسُرُج وكؤوس، جميعها تُستَخدَم في الحياة اليومية. وكان بعضها مُنَضَّداً كما في خزانة مطبخ حديث. ولقد اكتُشِفت في الموقع وحوله أشياء جلدية، مصنوعة من جلد الأغنام بصورة أساسية، كانت تستخدم قِرَباً للماء، وجزادين وأرديةً وصنادل. كما اكتشفت في قمران بعض المصنوعات الخشبية، من بينها قدور وأمشاط. وهذه الأمشاط مصنوعةٌ من خشب البَقْس وتعمل من الجهتين، وهو نمط شائع في العالم القديم. وكان في الموقع أيضاً حروزٌ ذات جيوب صغيرة توضع فيها قطع ورق صغيرة كتبت عليها أَدْعِية. وحجم هذه الحروز هو حجم صغير، بغية ربطها بثياب المرء. وقد وُجِدَت عدّة حروز، يحوي الواحد منها آيات من سفر التثنية (6: 4—9؛ 11: 13—21)[1] وآيات من سفر الخروج (13: 1—10؛ 13: 11—16)[2]. أمّا الأوعية الحجرية فكان يمكن استخدامها مراراً دون أن تتنجّس، بخلاف

(1) «4اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. 5فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. 6وَلْتَكُنْ هذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ، 7وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلاَدِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ، 8وَارْبُطْهَا عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ، وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، 9وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ».

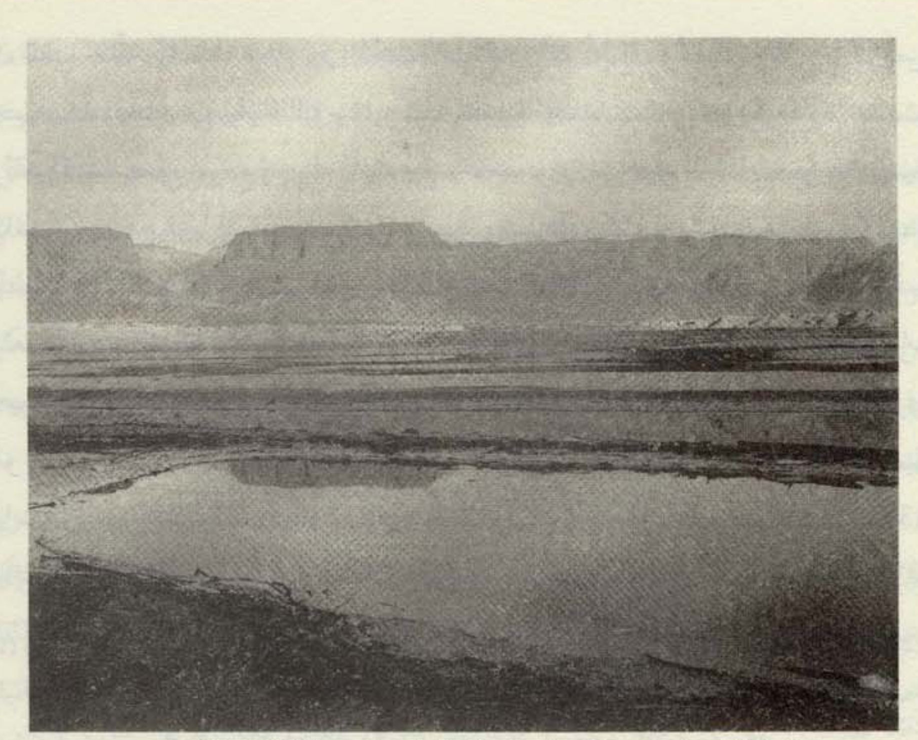
—»فَإِذَا سَمِعْتُمْ لِوَصَايَايَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ لِتُحِبُّوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ وَتَعْبُدُوهُ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ، 14أُعْطِي مَطَرَ أَرْضِكُمْ فِي حِينِهِ: الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ. فَتَجْمَعُ حِنْطَتَكَ وَخَمْرَكَ وَزَيْتَكَ. 15وَأُعْطِي لِبَهَائِمِكَ عُشْبًا فِي حَقْلِكَ فَتَأْكُلُ أَنْتَ وَتَشْبَعُ. 16فَاحْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَنْغَوِيَ قُلُوبُكُمْ فَتَزِيغُوا وَتَعْبُدُوا آلِهَةً أُخْرَى وَتَسْجُدُوا لَهَا، 17فَيَحْمَى غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْكُمْ، وَيُغْلِقُ السَّمَاءَ فَلاَ يَكُونُ مَطَرٌ، وَلاَ تُعْطِي الأَرْضُ غَلَّتَهَا، فَتَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ الَّتِي يُعْطِيكُمُ الرَّبُّ.

18فَضَعُوا كَلِمَاتِي هذِهِ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَنُفُوسِكُمْ، وَارْبُطُوهَا عَلاَمَةً عَلَى أَيْدِيكُمْ، وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عُيُونِكُمْ، 19وَعَلِّمُوهَا أَوْلاَدَكُمْ، مُتَكَلِّمِينَ بِهَا حِينَ تَجْلِسُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، وَحِينَ تَمْشُونَ فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُونَ، وَحِينَ تَقُومُونَ. 20وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ، 21لِكَيْ تَكْثُرَ أَيَّامُكَ وَأَيَّامُ أَوْلاَدِكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لآبَائِكَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا، كَأَيَّامِ السَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ».

(2) « 1 وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: 2»قَدِّسْ لِي كُلَّ بِكْرٍ، كُلَّ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْبَهَائِمِ. إِنَّهُ لِي». 3وَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «اذْكُرُوا هذَا الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ أَخْرَجَكُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَا. وَلاَ يُؤْكَلُ خَمِيرٌ. 4اَلْيَوْمَ أَنْتُمْ خَارِجُونَ فِي شَهْرِ أَبِيبَ. 5وَيَكُونُ مَتَى أَدْخَلَكَ الرَّبُّ أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ الَّتِي حَلَفَ لآبَائِكَ أَنْ يُعْطِيَكَ، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً، أَنَّكَ تَصْنَعُ هذِهِ الْخِدْمَةَ فِي هذَا الشَّهْرِ. 6سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُ فَطِيرًا، وَفِي الْيَوْمِ السَّابعِ عِيدٌ لِلرَّبِّ. 7فَطِيرٌ يُؤْكَلُ السَّبْعَةَ الأَيَّامِ، وَلاَ يُرَى عِنْدَكَ مُخْتَمِرٌ، وَلاَ يُرَى عِنْدَكَ خَمِيرٌ فِي جَمِيعِ تُخُومِكَ.

8وَتُخْبِرُ ابْنَكَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاً: مِنْ أَجْلِ مَا صَنَعَ إِلَيَّ الرَّبُّ حِينَ أَخْرَجَنِي مِنْ مِصْرَ. 9وَيَكُونُ لَكَ عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ، وَتَذْكَارًا بَيْنَ عَيْنَيْكَ، لِكَيْ تَكُونَ شَرِيعَةُ الرَّبِّ فِي فَمِكَ. لأَنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ أَخْرَجَكَ الرَّبُّ مِنْ مِصْرَ. 10فَتَحْفَظُ هذِهِ الْفَرِيضَةَ فِي وَقْتِهَا مِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ».

— « 11وَيَكُونُ مَتَى أَدْخَلَكَ الرَّبُّ أَرْضَ الْكَنْعَانِيِّينَ كَمَا حَلَفَ لَكَ وَلآبَائِكَ، وَأَعْطَاكَ إِيَّاهَا، 12أَنَّكَ تُقَدِّمُ لِلرَّبِّ كُلَّ

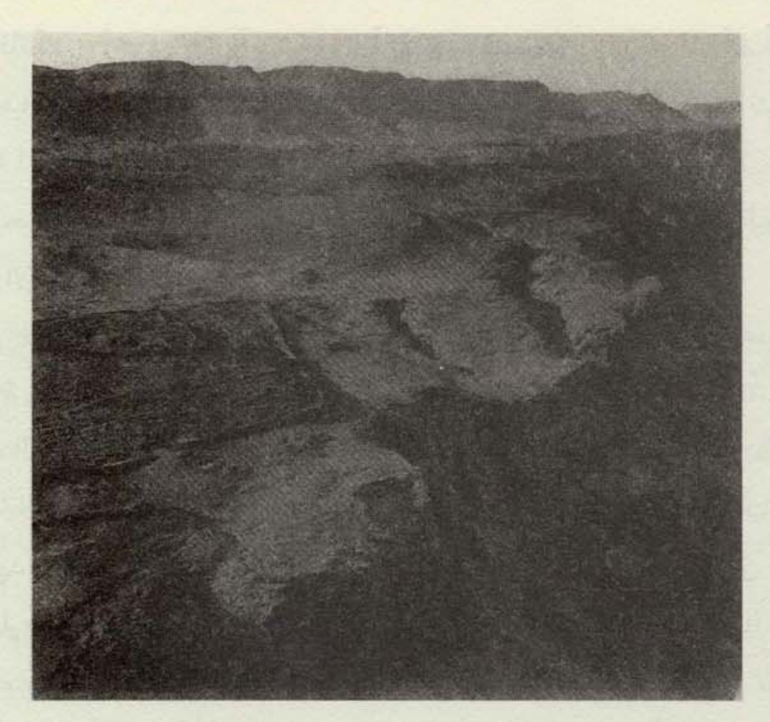


المنطقة المحيطة بالبحر الميت (بحر لوط). قلعة مسادة. بموافقة مكتبة الكونغرس.

أوعية الفخّار التي كانت تتنجّس باستخدامها وتغدو بحاجةٍ لأن تُكْسَر كي لا يُعاد استعمالها. وتشهد بقايا هذه الأوعية الحجرية، ليس في قمران وحسب بل في أورشليم أيضاً وسواها، على ما كان من احتياجها واستخدامها الشائع. فقد اكتشفت كؤوسٌ للكَيْل وأوعية للخَزْن وكؤوس للشراب مصنوعة من حجر الكلس؛ وكان استخدامها قد توقّف في فلسطين مع خراب الهيكل في العام 70م. وتشير هذه المكتشفات إلى أنَّ الجماعة كانت تستخدم أشياء شاع وجودها في أرجاء فلسطين.

وتحوي اللفائف شذرات من كلّ سفرٍ من أسفار العهد القديم ما عدا سفر إستير. وهذا مهم لأنّه يبيّن كيف جرت عملية تطور العهد القديم. فمع أنَّ النصوص شذرات،

فَاتِحِ رَحِم، وَكُلَّ بِكْرٍ مِنْ نِتَاجِ الْبَهَائِمِ الَّتِي تَكُونُ لَكَ. الذُّكُورُ لِلرَّبِّ. 13وَلكِنَّ كُلَّ بِكْرِ حِمَارٍ تَفْدِيهِ بِشَاةٍ. وَإِنْ لَمْ
تَفْدِهِ فَتَكْسِرُ عُنُقَهُ. وَكُلُّ بِكْرِ إِنْسَانٍ مِنْ أَوْلاَدِكَ تَفْدِيهِ.
14وَيَكُونُ مَتَى سَأَلَكَ ابْنُكَ غَدًا قَائِلاً: مَا هذَا؟ تَقُولُ لَهُ: بِيَدٍ قَوِيَّةٍ أَخْرَجَنَا الرَّبُّ مِنْ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ.
15وَكَانَ لَمَّا تَقَسَّى فِرْعَوْنُ عَنْ إِطْلاَقِنَا أَنَّ الرَّبَّ قَتَلَ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بِكْرِ النَّاسِ إِلَى بِكْرِ الْبَهَائِمِ. لِذلِكَ
أَنَا أَذْبَحُ لِلرَّبِّ الذُّكُورَ مِنْ كُلِّ فَاتِحِ رَحِم، وَأَفْدِي كُلَّ بِكْرٍ مِنْ أَوْلاَدِي. 16فَيَكُونُ عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ، وَعِصَابَةً بَيْنَ
عَيْنَيْكَ. لأَنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ أَخْرَجَنَا الرَّبُّ مِنْ مِصْرَ».



معسكر روماني قرب مسادة. بموافقة مكتبة الكونغرس.

إلا أنّها موثوقة، أي أنّها متوافقة مع النصّ كما وصل عبر القرون. كما تشهد اللفائف على فكرة أنَّ المجامع المحلية زمن يسوع كانت تحوي أسفار الكتاب المقدّس. ففي أحد المقاطع يفتح يسوع سفر أشعيا ويقرأ منه (لوقا 4: 16–22)[1] ، ربما من لفافةٍ مثل تلك التي وُجِدَت في قمران. والشذرات التي وُجِدَت مكتوبةٌ بثلاث لغات، هي العبرية والآرامية واليونانية. وهذا يشهد من جديد على ما تميّز به المكان والزمان اللذان عاش فيهما يسوع وتلامذته من كوسموبوليتانية لغوية. وتحتوي اللفائف على مواد لا وجود لها في الكتاب المقدّس، لكنها دينية الطابع. وعلى سبيل المثال، فإنَّ هنالك لفائف تحوي مزامير ترد في

(1) «16 وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَ قَدْ تَرَبَّى. وَدَخَلَ الْمَجْمَعَ حَسَبَ عَادَتِهِ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَامَ لِيَقْرَأَ، 17فَدُفِعَ إِلَيْهِ
سِفْرُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ. وَلَمَّا فَتَحَ السِّفْرَ وَجَدَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ مَكْتُوبًا فِيهِ: 18»رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ
الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ
فِي الْحُرِّيَّةِ، 19وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ». 20ثُمَّ طَوَى السِّفْرَ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْخَادِمِ، وَجَلَسَ. وَجَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْمَجْمَعِ
كَانَتْ عُيُونُهُمْ شَاخِصَةً إِلَيْهِ. 21فَابْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ:«إِنَّهُ الْيَوْمَ قَدْ تَمَّ هذَا الْمَكْتُوبُ فِي مَسَامِعِكُمْ».
22 وَكَانَ الْجَمِيعُ يَشْهَدُونَ لَهُ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ كَلِمَاتِ النِّعْمَةِ الْخَارِجَةِ مِنْ فَمِهِ، وَيَقُولُونَ: «أَلَيْسَ هذَا ابْنَ
يُوسُفَ؟».

الكتاب المقدّس وأخرى لا ترد فيه. وإضافةً إلى هذه النصوص الدينية، ثمّة أيضاً لفافات تتناول حياة الجماعة، ولفافة هي عبارة عن تقويم يُظْهِر أنَّ الجماعة كانت تتبع السنة الشمسية المؤلّفة من 364 يوماً وليس التقويم القمري اليهودي التقليدي المؤلف من 354 يوماً. وبحسب هذا التقويم كانت السنة الجديدة تبدأ دوماً يوم أربعاء، وهو اليوم الذي خلق فيه الإله السموات.

توفّر اللفائف إطلالةً على جماعة نأت بنفسها عن اليهودية السائدة. وعلى الرغم من إشارة يوسفوس إلى هذه الجماعة في أعماله، إلا أنها بقيت سرّاً مستغلقاً إلى حين اكتشاف اللفائف في العام 1947. ومنذ ذلك الحين راح تاريخها يتكشّف، ببطء وليس من غير خلاف. فاللفائف واكتشافها يشيران إلى وجهٍ آخر من أوجه دراسة الحياة اليومية زمن العهد الجديد، وهو أنّ الاكتشافات الجديدة لا تزال تقع. فمؤخّراً جرى الكشف في أورشليم عن مقلع يعود إلى زمن هيرودس الأكبر ويشير إلى استخدامه في بناء الهيكل. وإلى الجنوب من البحر الميت تمّ التنقيب عن قلعة مسادة، وأَسْفَر ذلك عن معلومات جديدة تساعد في فهم رواية يوسفوس. وتواصل البقايا الأثرية توفير فُرَصٍ للباحثين كي يسائلوا القرن الأول ويستكشفوه في العصر الحديث. ولقد أثار حصار مسادة إعجاباً بالمدافعين وجدالاً حول صحّة رواية يوسفوس عن الانتحار الجماعي. هذه الرواية، بصرف النظر عن صحّتها، تظلّ بياناً لصورة اليهود الذين يعصون حتى الموت حفاظاً على ديانتهم وطريقتهم في الحياة.

رواية يوسفوس عن الانتحار الجماعي
في حصار مسادة

كيف اقتنع من كانوا في الحصن بكلام إليعازر.
وقتلَ كلٌ واحدٍ منهم الآخر، باستثناء امرأتين وخمسة أطفال

1– وبينما كان إليعازر يواصل تحريضه هذا، قاطعه جميعهم، وهُرِعوا يقومون بالعمل، مفعمين بحماسة لا تُقهَر، ومدفوعين بثورة غضب شيطانية. ومضوا على هذا النحو، كلٌّ يُسابِقُ الآخر، وهم يحسبون أنَّ في هذا التشوّق إظهارٌ لشجاعتهم وحُسْنِ سيرتهم، إذا ما تَحاشوا أن يكونوا الأخيرين: فكانت حماستهم عظيمة لأن يقتلوا زوجاتهم وأطفالهم وأنفسهم أيضاً! ولم تَخُنْهُم شجاعتهم، كما قد يدور في خلدنا، حين كان عليهم أن يبدأوا بذلك، بل تمسّكوا، دون تردّد، بما عزموا عليه لدى سماعهم خطبة إليعازر، مع أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان لا يزال يكنّ شعور المحبّة الطبيعي لنفسه وعائلته. فقد بدا لهم ما فكّروا فيه على أنّه عين الصواب، حتى ما تعلّق منه بأعزّائهم؛ فراح الأزواج يعانقون زوجاتهم بحنانٍ، ويحضنون أطفالهم، ويقبلونهم أطول قبلات الوداع والدموع في أعينهم. غير أنَّ ذلك لم يمنعهم من إتمام ما عزموا عليه، كأنهم كانوا يقتلون بأيدي غرباء، ولا شيء يريحهم سوى هذه الضرورة التي كانت تدفعهم إلى هذا القتل، تفادياً لما يمكن أن يعانوه من صنوف الشقاء إذا ما وقعوا في قبضة أعدائهم. ولم يكن بين هؤلاء الرجال، في النهاية، من تَحَرَّج من أخذ دوره في هذا القتل الرهيب، بل عَجّل كلّ واحد منهم بقتل أعزّ أقربائه. ويا لأولئك البؤساء! الذين دفعهم كربهم إلى قتل زوجاتهم وأطفالهم بأيديهم، لأنَّ ذلك كان أمامهم أهون الشرور. وما كان بوسعهم أن يحتملوا ما اعتمل فيهم من جَزَعٍ لما فعلوه، وعدّوا عيشهم أيّة وهلةٍ أخرى إساءة لأولئك الذين قتلوهم، فجمعوا في كومةٍ كلّ ما كان لديهم، وأضرموا فيه النار. ثم اختاروا بالقرعة عشرة رجال من بينهم ليقتلوا البقية، التي استلقى كلّ واحدٍ منها على الأرض عند زوجته وأطفاله، وأحاطهم بذراعيه وكشف عن عنقه ليدقّها أولئك الذين اختارتهم القرعة لإنفاذ هذه المهمة الرهيبة؛ وحين قَتَل هؤلاء العشرة الجميع، دون وَجَل، اقترعوا بالمثل في ما بينهم، فكان على من تختاره القرعة أن يقتل التسعة الآخرين قبل أن يقتل نفسه. وكان لديهم جميعاً ما يكفي من الشجاعة لأن يتسابقوا إلى أيٍّ من الدورين، إلى أن قدّم التسعة أعناقهم للذبح، ثم عاين من بقي الأخير جميع الجثث، علّ أحداً بين هذه الكثرة ممن قُتلوا يكون محتاجاً لعونه في أن يُعجّل موته، وحين تأكّد من أنهم قُتِلوا جميعاً، أضرم النار في القصر، وأَغْمَد سيفه بطوله في جسده بكلّ ما أوتي من قوّة، وخرّ صريعاً قرب أقربائه. كذلك مات هؤلاء بهذه النيّة ألاّ يبقى حيّاً من بينهم أحدٌ ويخضع للرومان. غير أنَّ عجوزاً هرمةً بقيت، وأخرى من قريبات إليعازر، فاقت معظم النساء تبصّراً وعلماً، مع خمسة أطفال، كانوا قد اختفوا في كهوف تحت الأرض، وأخذوا

معهم ماءً للشرب، فكانوا مختبئين هناك حين عزم البقية على قتل واحدهم الآخر. وكان عدد الذين قتلوا تسعمائة وستين، بمن فيهم النساء والأطفال. وقد جرت هذه المذبحة في اليوم الرابع عشر من شهر أبريل.

2- أمّا الرومان، فكانوا يحسبون أنه لا بدّ من خوض القتال في الصباح، وعندئذٍ لبسوا دروعهم، ووضعوا جسوراً من ألواح الخشب على سلالمهم من جوانبها، كي يهجموا على الحصن، وحين دخلوه لم يجدوا فيه عدواً، سوى وحشة رهيبة في كلّ ناحية، ونارٍ مستعرة في المكان، وصمتٍ مُطْبق. فاحتاروا في ما جرى. وفي النهاية أطلقوا صيحةً، كأنها ضربةُ آلة دكّ القلاع، ليروا إنْ كان بوسعهم أن يُخْرِجوا أحداً من الداخل؛ وسمعت المرأتان الصوت، وخرجتا من كهفهما تحت الأرض، وأعلمتا الرومان بما جرى، كما جرى؛ ووصفت الأخرى كلّ ما قيل وما فُعِل، والطريقة التي فُعِل بها؛ فلم يكن سهلاً على الرومان أن يلقوا بالاً إلى مثل هذا العمل اليائس، ولم يصدّقوا أنّ الأمر كما قالتا؛ وحاولوا أن يخمدوا النار، وشقوا طريقهم عبرها؛ فدخلوا القصر، ورأوا كثرة القتلى، لكنهم لم يُسرّوا بذلك، مع أنّه حصل لأعدائهم. ولم يسعهم سوى أن يتعجّبوا لشجاعة قرارهم، وما أظهره أكثرهم من ازدراءٍ للموت لا يلين، حين مضوا بتنفيذ هذا الفعل.

The Works of Josephus, Frans William Whiston (william Milner. Cheapside, 1850), pp. 628- 29.

مسرد مصطلحات

الشتات (Dias pora): مصطلح يشير إلى اليهود الذين أُجْبِروا على ترك فلسطين بعد استيلاء البابليين على أورشليم.

الإسينيون (Essens): جماعة دينية خلال القرن الأول الميلادي نأت بنفسها عن اليهودية السائدة وكانت تعتقد بفساد الصدوقيين.

العرفان، أو الغنوصية (Gnostic): مصطلح يشير إلى كتابات ينبغي فهم الرسالة الخفية التي تنطوي عليها من ضمنها وليس عبر توسّط الكنيسة.

الأناجيل (Gospels): ومعناها الأنباء السارّة، ويمكن أن تشير إلى النصوص الأربعة المعتمدة في العهد الجديد، متّى ومرقس ولوقا ويوحنا، وكذلك إلى النصوص غير المعتمدة، التي هي في العادة أعمال عرفانية أو غنوصية، ترمي إلى كشف حقائق يسوع المخبّأة.

الحشمونية (Hasmonaean): سلالة حكمت في فلسطين من 140—37 ق.م.

الهيرودسيون (Herodians): الفرقة السياسية التي ناصرت هيرودس الأكبر وخلفائه. وكانت مؤيدةً للرومان بوجهٍ عام.

كوهن (Kohen): كلمة عبرية تعني الكاهن.

اليونانية الكوينيّة (Koine Greek): اللغة اليونانية الشائعة المتداولة، وقد تطورت بعد الإسكندر حتى غدت زمن يسوع اليونانية الفصحى، المكتوبة والشفهية على حدٍّ سواء.

القُربان (Korban): أضحية الهيكل التي يكرّسها الكهنة.

المسيح المُنْتَظَر (Messian): يُشار إليه في اليهودية على أنّه المُخلِّص المنتظَر. ولم يُحَدَّد المسيح المُنْتَظَر قطّ ذلك التحديد الواضح سوى أنّه من نَسْل دواد، ملك إسرائيل.

العهد الجديد (New Testament): الميثاق أو الاتفاق الجديد بين الله والمسيحيين، والذي تحقق في يسوع؛ وهو أيضاً ذلك الجزء من الكتاب المقدس الذي يُخْبِر عن أصول المسيحية.

البنتاتوك (Pentateuch): مصطلح يوناني يشير إلى الأسفار الخمسة الأولى في العهد القديم، وهي التوراة بالعبرية.

الفرّيسيون (Pharisee): وتعني المستقلين، وهم الجماعة الغالبة في اليهودية خلال القرن الأول الميلادي. وقد نشأوا خارج الهيكل وغدوا الفرقة الحاخامية بعد خراب أورشليم.

العشّارون (Publicans): جباة الجزية الذين استخدمتهم روما. وعادةً ما كانوا من السكّان المحليين.

قمران (Qumran): موضع على شاطئ البحر الميت الشمالي الغربي حيث تشير الآثار الباقية إلى أنّ الإسينيين قد أقاموا فيه جماعتهم. وبقربه اكتُشِفَت لفائف البحر الميت في كهوف ابتداء من العام 1947.

السبت (Sabbath): يوم العبادة من أيام الأسبوع لا يُنْجَز فيه أيّ عمل. وهو يقع في المسيحية يوم الأحد.

الصدوقيون (Sadducee): نشأوا في القرن الثاني ق.م، وهم الفرقة الحاكمة، سياسياً ثم دينياً من خلال الهيكل. ومع أنَّ عددهم لم يكن كبيراً، إلا أنهم كانوا يحتلون أرفع المناصب السياسية.

السامرة (Samaria): منطقة إلى الشمال من يهودا كان يقطنها السامريون، الذين هم من نسل اليهود، لكنهم كانوا يعتقدون أنَّ لديهم موقع الهيكل القديم.

السنهدرين (Sanhedrin): ويعني المجلس، وهو هيئة مؤلّفة من 23 من الشيوخ أو القضاة الذين يرسمون السياسات. وفي أورشليم، كان السنهدرين العظيم هيئة مؤلفة من 71 عضواً، ولم يكن يرسم السياسات المتعلقة بأورشليم وحدها بل بـ«الهيكل» أيضاً.

الكَتَبَة (Scribes): رجال القانون في اليهودية.

السيخاري (Sicarii): ومعناه حملة الخناجر، حيث يشير إلى من كانوا يغتالون الرومان ومن يناصرهم من السكّان في فلسطين.

المَجْمَع (Synagogue): بيتٌ للصلاة أو الاجتماع، تطور بعد النفي البابلي وغدا مكان الدراسة أو العبادة الغالب زمن العهد الجديد.

التلمود (Telmud): أعمالٌ حاخامية أو تعاليم ترتبط بالنواميس، والعوائد، والتاريخ، والأخلاق اليهودية، ومكوّناه هما التقليدان الشفويان، المشناه (الذي دُوِّن 200م) والجمارا، الذي كان في الأصل تعليقات شفوية على المشناه. وثمة التلمود البابلي وتلمود أورشليم.

الترجوم (Targum): ترجمة وتعليقات آرامية على العهد القديم، لعلّها كانت تُستخدَم في أرجاء فلسطين.

الهيكل (Temple): يشير هنا إلى ذلك البناء الذي أتمّه في أورشليم هيرودس الأكبر وكان يُستخدَم للعبادة زمن يسوع، وخرّبه الرومان عام 70م.

الغيورون (Zealots): جماعة دينية كانت تؤمن بإنهاء الاحتلال الروماني لفلسطين بالعنف.

ببليوغرافيا مختارة

Aviam, Mordechai. *Jews, Pagans, and Christians in the Galilee, 25 Years of Archaeological Excavations and Surveys: Hellenistic to Byzantine Periods.* Land of Galilee, vol. 1. Rochester, NY: University of Rochester Press, 2004.
Beall, Todd S. *Josephus' Description of the Essenes Illustrated by the Dead Sea Scrolls.* Cambridge: Cambridge University Press, 2004.
Beyer, Klaus. *The Aramaic Language: Its Distribution and Subdivisions,* trans. John F. Healey. Gottingen: Vandenhoeck and Ruprecht, 1986.
Borowski, Oded. *Daily Life in Biblical Times. Archaeology and Biblical Studies.* Vol. 5. Atlanta, GA: Society of Biblical Literature, 2003.
Burrows, Millar. *The Dead Sea Scrolls with Translation by the Author.* New York: Viking, 1956.
Case, Shirley Jackson. *The Historicity of Jesus.* University of Chicago Press, 1912.
Chilton, Bruce, and Jacob Neusner. *The Brother of Jesus: James the Just and His Mission.* Louisville, KY: Westminster John Knox Press, 2001.
Fine, Steven. *Art and Judaism in the Greco-Roman World toward a New Jewish Archaeology.* Cambridge: Cambridge University Press, 2005.
———. "Synagogues in the Land of Israel." In *Near Eastern Archaeology: A Reader,* ed. Suzanne Richard, pp. 455–64. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.
Fosdick, Harry. *The Man from Nazareth.* New York: Harper and Brothers, 1949.
Gilen, Terry. "The Samaritans." In *Near Eastern Archaeology: A Reader,* ed. Suzanne Richard, pp. 413–17. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.
Goodman, Martin. *Jews in a Graeco-Roman World.* Oxford: Clarendon Press, 1998.
Grant, Michael. *The Ancient Mediterranean.* New York: Penguin, 1969.
———. *Cleopatra.* New York: Barnes and Noble Books, 1995.
———. *The History of Ancient Israel.* London: Weidenfeld and Nicolson, 1996.

Rajak, Tessa. *Josephus, the Historian and His Society*. London: Duckworth, 1983.
Reicke, Bo Ivar. *The New Testament Era: The World of the Bible from 500 B.C. to A.D. 100*. Philadelphia: Fortress Press, 1975.
Rendsburg, Gary A. "Semitic Languages." In *Near Eastern Archaeology: A Reader*, ed. Suzanne Richard, pp. 71–73. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.
Richard, Suzanne, ed. *Near Eastern Archaeology: A Reader*. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.
Saldarini, Anthony J. "Babatha's Story." *Biblical Archaeology Review* 24, 1998: 28–39.
———. *Pharisees, Scribes and Sadducees in Palestinian Society*. Edinburgh: T. & T. Clark, 1989.
Schwartz, Seth. *Imperialism and Jewish Society, 200 B.C.E. to 640 C.E.: Jews, Christians, and Muslims from the Ancient to the Modern World*. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2001.
Scott, J. Julius. *Customs and Controversies: Intertestamental Jewish Backgrounds of the New Testament*. Grand Rapids, MI: Baker Books, 1995.
———. *Jewish Backgrounds of the New Testament*. Grand Rapids, MI: Baker Books, 2000.
Shanks, Hershel. *Understanding the Dead Sea Scrolls: A Reader from the* Biblical Archaeology Review. New York: Random House, 1992.
Smith, George Adam. *The Historical Geography of the Holy Land*. London: Hodder and Stoughton, 24th ed., 1920.
Steiner, Richard C. "Ancient Hebrew." In *The Semitic Languages*, ed. Robert Hetron, pp. 145–73. London: Routledge, 1997.
Stewart, Aubrey, and Charles William Wilson. *Itinerary from Bordeaux to Jerusalem*. London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1887.
Urman, Dan, and Paul Virgil McCracken Flesher. *Ancient Synagogues: Historical Analysis and Archaeological Discovery*. Studia Post-Biblica, vol. 47. Leiden: E. J. Brill, 1995.
VanderKam, James C. *The Dead Sea Scrolls Today*. Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1994.
Whiston, William. *The Works of Josephus*. Cheapside: William Milner, 1850.
Wise, Michael Owen, Martin G. Abegg, and Edward M. Cook. *The Dead Sea Scrolls: A New Translation*. San Francisco: Harper San Francisco, 1996.

INTERNET SOURCES

Bible History Online. Rusty Russell, private company, home page http://www.bible-history.com/ gives an extensive amount of material online, although without critical review. For an illustration of Herod the Great's Temple, see http://www.bible-history.com/jewishtemple/JEWISH_TEMPLEHerods_Temple_Illustration.htm.
Christian Classics Ethereal Library at Calvin College, Grand Rapids, Michigan, http://www.ccel.org/j/josephus/works/JOSEPHUS.HTM. The site provides the translation of Josephus, a primary nonbiblical source for the first century B.C.E.–C.E. by William Whiston.
Early Christian Writings. Peter Kirby, private company, home page http://www.earlychristianwritings.com/. The site provides a collection material from the first through the third centuries C.E., not just the canonical Christian writings, but Jewish, Early Church Fathers, Apocrypha, and Gnostics.

Hachlili, Rachel. "Jewish Art and Iconography in the Land of Israel." In *Near Eastern Archaeology: A Reader*, ed. Suzanne Richard, pp. 445–54. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.

Harland, Philip A. *Associations, Synagogues, and Congregations Claiming a Place in Ancient Mediterranean Society*. Minneapolis, MN: Fortress Press, 2003.

Hetzron, Robert, ed. *The Semitic Languages*. London: Routledge, 1997.

Hoehner, Harold W. *Herod Antipas*. Cambridge: Cambridge University Press, 1972.

Hopkins, David. "Agriculture." In *Near Eastern Archaeology: A Reader*, ed. Suzanne Richard, pp. 124–30. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.

Huntington, Ellsworth. *The Climate of Ancient Palestine*. New York, 1908.

Jeffers, James S. *The Greco-Roman World of the New Testament Era: Exploring the Background of Early Christianity*. Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1999.

Josephus, Flavius. *Life of Josephus*, trans. and commentary, Steve Mason. Boston: Brill Academic Publishers, 2003.

Katz, Steven T. *The Cambridge History of Judaism*. Vol. 4. *The Late Roman-Rabbinic Period*. Cambridge: Cambridge University Press, 2006.

Kaufman, Stephen A., "Aramaic." In *The Semitic Languages*, ed. Robert Hetzron, pp. 114–30. London: Routledge, 1997.

Kessler, Rainer. *The Social History of Ancient Israel: An Introduction*. Minneapolis, MN: Fortress Press, 2008.

La Bianca, Oystein S. "Subsistence Pastoralism." In *Near Eastern Archaeology: A Reader*, ed. Suzanne Richard, pp. 116–23. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.

Le Deaut, R. *The Message of the New Testament and the Aramaic Bible (Targum)*, trans. Stephen F. Miletic. Rome: Biblical Institute Press, 1982.

Levine, Lee I. *Ancient Synagogues Revealed*. Jerusalem: Israel Exploration Society, 1982.

———. *The Galilee in Late Antiquity*. New York: Jewish Theological Seminary of America, 1992.

Lim, Timothy H., and the Centre for Christian Origins. *The Dead Sea Scrolls in Their Historical Context*. Edinburgh: T & T Clark, 2000.

MacAdam, Henry Innes. *Studies in the History of the Roman Province of Arabia: The Northern Sector*. BAR International Series, 295. Oxford: Biblical Archaeology Review, 1986.

Magness, Jodi. *The Archaeology of Qumran and the Dead Sea Scrolls: Studies in the Dead Sea Scrolls and Related Literature*. Grand Rapids, MI: William B. Eerdmans, 2002.

Matthews, Victor H. "Everyday Life." In *Near Eastern Archaeology: A Reader*, ed. Suzanne Richard, pp. 157–63. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2003.

Milson, David. *Art and Architecture of the Synagogue in Late Antique Palestine: In the Shadow of the Church*. Leiden: Brill, 2007.

Neusner, Jacob. *Judaism in the Beginning of Christianity*. Philadelphia: Fortress Press, 1984.

———. *The Yerushalmi—The Talmud of the Land of Israel: An Introduction*. Northvale, NJ: J. Aronson, 1993.

———, and Bruce Chilton. *In Quest of the Historical Pharisees*. Waco, TX: Baylor University Press, 2007.

Painter, K. S. *Churches Built in Ancient Times: Recent Studies in Early Christian Archaeology*. Specialist studies of the Mediterranean, vol. 1. London: Society of Antiquaries of London, 1994.

dialogue). Release date April 3, 1977 (USA). Incorporated Television Company (ITC), TV miniseries.

King of Kings (1961). Director, Nicholas Ray; writer, Philip Yordan. Release date October 30, 1961 (USA). Samuel Bronston Productions.

Masada (1981). Director, Boris Sagal; writers, Ernest K. Gann and Joel Oliansky. Release date April 5, 1981 (USA). Arnon Milchan Productions, ABC TV miniseries.

The Passion of the Christ (2004). Director, Mel Gibson; writers, Benedict Fitzgerald (screenplay) and Mel Gibson (screenplay). Release date February 25, 2004 (USA). Icon Productions.

Quo Vadis (1951). Director, Mervyn LeRoy; writers, S. N. Behrman (screenplay) and Sonya Levien (screenplay). Release date, November 8, 1951 (USA). Metro-Goldwyn-Mayer (MGM).

The Robe (1953). Director, Henry Koster; writers (WGA), Philip Dunne (screenplay), Lloyd C. Douglas (novel), and Gina Kaus (adaptation). Release date September 16, 1953 (USA). Twentieth Century-Fox Film Corporation.

Gnostic Society of Los Angelus. Dr. Stephan Hoeller, private company, home page http://gnosis.org/library.html, for the library http://www.webcom.com/~gnosis/library/scroll.htm. Material with commentary and histories of the Dead Sea Scrolls from the Gnostic Society Library, providing material from the Nag Hammadi Library as well as other sources.

Holyland Model of Ancient Jerusalem. Hans Kroch, owner of Holyland Hotel Jerusalem, completed a model of Ancient Jerusalem in 1967 with the help of professor Avi Yonah of the Hebrew University. See http://www.holyland network.com/temple/model.htm. This online model gives an interactive model of ancient Jerusalem during the time of the Second Temple at the start of the Jewish Rebellion in 66 C.E.

Institute for Jewish Studies at the Hebrew University of Jerusalem, http://orion.mscc.huji.ac.il/. The site gives material about the Dead Sea Scrolls from the Orion center in Jerusalem, part of the Institute for Jewish Studies at the Hebrew University of Jerusalem, and promotes research on all aspects of the Dead Sea Scrolls.

Internet Sacred Text Archive. John Bruno Hare, private company, home page http://www.sacred-texts.com/index.htm. The site gives a 1918 English translation of the Babylonian Talmud, translated by Michael L. Rodkinson, http://www.sacred-texts.com/jud/talmud.htm

Jewish National and University Library and the Hebrew University of Jerusalem, http://jnul.huji.ac.il/dl/maps/jer/. This site provides images and maps of ancient Jerusalem that were compiled by the Jewish National and University Library and the Hebrew University of Jerusalem.

LacusCurtius. Bill Thayer, hosted on the Web site of the University of Chicago, http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Roman/home.html. This site provides useful material covering Roman history including sources in both the original language and translations.

Library of Congress, Washington D.C., http://www.ibiblio.org/expo/deadsea.scrolls.exhibit/intro.html. Provides an introduction to the Dead Sea Scrolls for an exhibit at the Library of Congress. The site provides images and histories of the community and the scrolls.

VIDEO AND MOVIES

Barabbas (1961). Director, Richard Fleischer; writers, Christopher Fry (screenplay) and Pär Lagerkvist (novel). Release date October 10, 1962 (USA). Dino de Laurentiis Cinematografica.

Ben-Hur (1959). Director, William Wyler; writers, Lew Wallace (novel) and Karl Tunberg. Release date November 18, 1959 (USA). Metro-Goldwyn-Mayer (MGM).

Demetrius and the Gladiators (1954). Director, Delmer Daves; writers, Lloyd C. Douglas (characters in *The Robe*) and Philip Dunne (written by). Release date, June 18, 1954 (USA). Twentieth Century-Fox Film Corporation.

I, Claudius (1976). director, Herbert Wise; writers, Robert Graves (novels) and Jack Pulman. Release date, September 20, 1976 (UK), November 6, 1977 (USA). British Broadcasting Corporation, UK, TV miniseries.

Jesus of Nazareth (1977). Director, Franco Zeffirelli; writing credits, Anthony Burgess, Suso Cecchi d'Amico, Franco Zeffirelli, and David Butler (additional

نبذة عن المؤلف:

جيمس و. إرْماتنغر عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة بلومسبرغ، بنسلڤانيا. وهو مؤلّف حياة المسيحيين اليومية في روما القديمة (غرين وود 2007)، وتدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (2004)، وإصلاحات دوقليتيان الاقتصادية (1996)، علاوة على مقالات أخرى عن التاريخ الروماني المتأخّر.

نبذة عن المترجم:

- طبيب بشري. متفرّغ كلياً للترجمة والعمل الثقافي. وهو من مواليد سوريا 1962.

- يعمل بعقد خبرة في الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة. وسبق أن كان مديراً للترجمة فيها.

- رئيس تحرير مجلة «جسور». وهي فصلية تُعنى بالترجمة ودراساتها تصدرها الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة.

- عضو هيئة تحرير مجلة «الآداب العالمية» التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب. دمشق؛

- كاتب مواظب في الصحافة الثقافية والفكرية العربية. وله عديد من الدراسات والأبحاث

- له العديد من الكتب المترجمة. منها:

• علامات أُخِذَت على أنها أعاجيب: سوسيولوجيا الأشكال الأدبية. فرانكو موريتي. المركز القومي للترجمة. القاهرة. 2009.

• السينما والتلفزيون بعد 11/9. مجموعة من الكتّاب. مهرجان الشرق الأوسط السينمائي الدولي. أبو ظبي. 2008.

• العسل (رواية). زينة غندور. دار الآداب. بيروت. 2002

• نشوء الرواية. إيان واط. دار شرقيات. القاهرة. 1997.

• الحب بين الشهوة والأنا. ثيودور رايك. دار الحوار. اللاذقية. 1992.

زمن العهد الجديد

يحاول هذا الكتاب أن يؤسّس لفهم الحياة اليومية خلال فترة العهد الجديد، خاصةً في فلسطين. ويتفحص جغرافيا المنطقة وتاريخها، وجماعاتها الإثنية المختلفة، والعوامل غير الدينية التي أثّرت بقوة على الحياة اليومية. وينتقل بعد ذلك إلى اليهودية فيحلل ضروب ترقب المسيح. ثم تكمل الصورة بمختلف المهن التي كانت قائمة،وحياة الفلاحين وسواهم من الأفراد اليومية.



المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الآداب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة



Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

